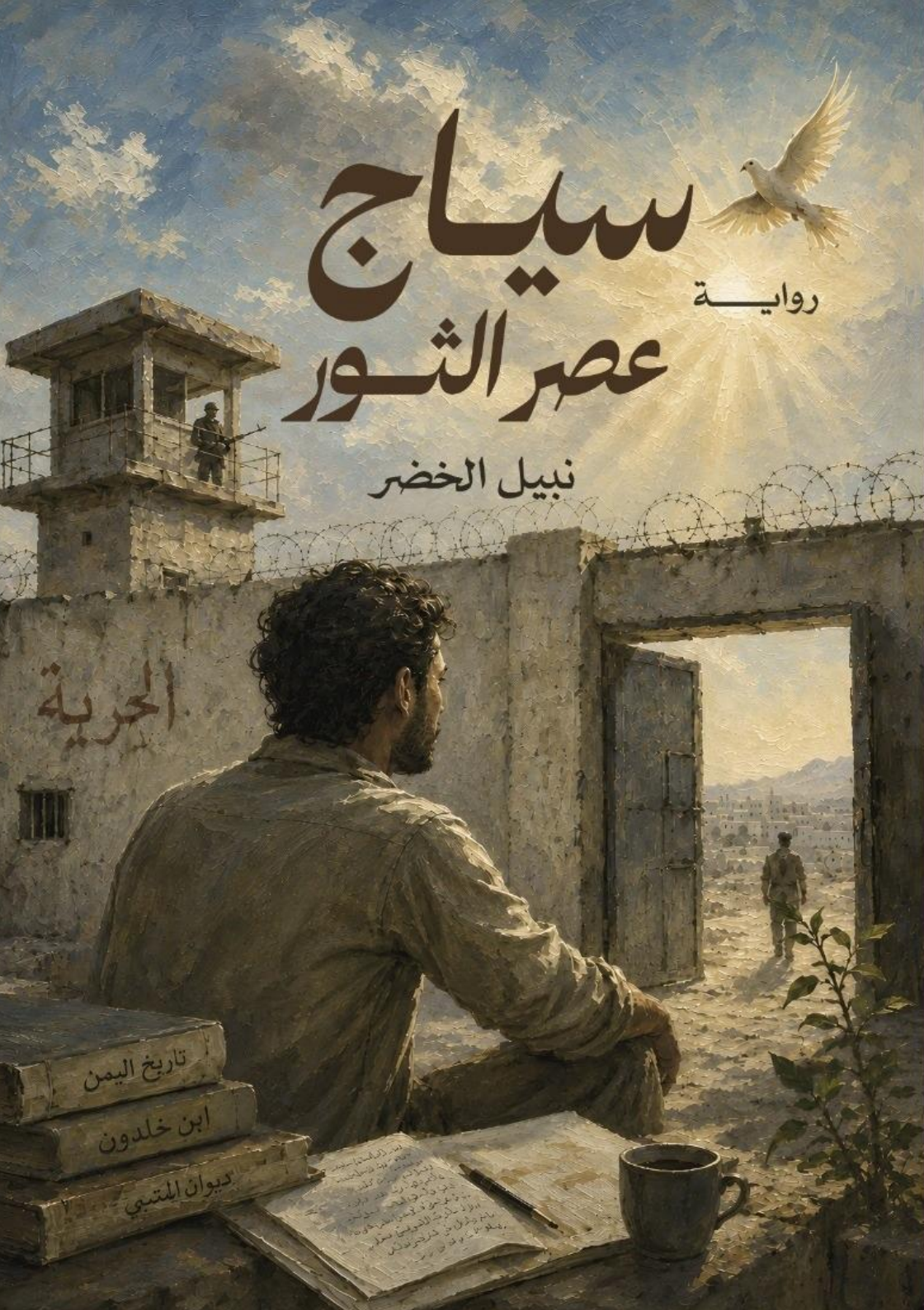
سياج
رواية
عصر الثور
نبيل الخضر
الحرية
تاريخ اليمن
ابن خلدون
ديوان المتنبي

سـيـاج

عصـر الثـور

بيانات رواية سياج: عصر الثور:

- ❖ الرواية: سياج: عصر الثور
- ❖ الكاتب: نبيل أحمد الخضر
- ❖ النوع: رواية
- ❖ تحرير وتدقيق النص وتصدير الغلاف: رياض الحَمّادي
- ❖ لوحة الغلاف بالذكاء الاصطناعي: رياض الحَمّادي
- ❖ تنفيذ الغلاف: أمنية محمد
- ❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- ❖ سنة الإصدار: ٢٠٢٦
- ❖ الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، سبتمبر ٢٠٢٦
- ❖ رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٤٢٥ لسنة ٢٠٢٦.

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي)، الدورة الرابعة ٢٠٢٥، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب والكاتب وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، ما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

YKB
بنك اليمن والكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

سبأ

سلسلة روائية

الرواية الأولى

عصر الثور

نبيل الخضر

٢٠٢٦

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

إهداء

لليمنيين،

من عاشوا رهائن،

وماتوا سجناء.

❊ ❊ ❊

مرعى ومدينة

لا تبدأ صـــراصـــير الليل بالغناء وحدها؛ فلســـاني أيضًـــا يتبرّع بالغناء معها، بصفير اللحن المميّز لـــسميرة سعيد: "بشتاقلك ساعات". وفي الشارع، لا تتمدّد القطط بنعومة على إطارات الســـيارات الدافئة وحدها؛ فأنا أيضًـــا أستلقي على فراشـي الإسـفنجيّ المهترئ، بعد أن أخرجه من الدكّان الذي أعيش فيه منذ سنوات طويلة ومريرة. وحتى الكلاب لا تنبح سعيدةً باختفاء البشر المزعجين في منتصف كلّ ليلة؛ فأنا أيضًا أهتف معها بسعادة. فالوحدة تمنحني فرصـة التحديق إلى نافذةٍ مضـاءةٍ بنور الشـموع، بعد انقطاع التيار الكهربائي الكامل في بدايات قصـف صـنعاء؛ نافذةٍ تسـكب نورًا ذهبيًا على الشارع، ليختلط مع نور القمر الفضي، مُكوِّنًا جمالًا أسطوريًا.

في الســماء، القمر ينير الدروب، وقمرٌ آخر ينير جوانب روحي خلف تلك النافذة. والنجوم ليست وحدها من تظهر لتحديد المسار؛ فهناك نجمةٌ تحدّد لي وحدي مســار اللقاء ونقطة الالتقاء. وحتى الهواء لا يســكن بداخلي من تلقاء نفســه؛ بل قلبي يهدأ ويســكن بعد طول وجيب، وجوانحي تهدأ بعد طول ارتعاش، وعيناي تناماـن بعد طول ســهر. أمّا جائزتي الكبرى، فهي مشهدها وهي تمضي في الشارع، أو حين أرى ظلّها على نافذة المنزل.

***

كنّا، في بداية الحرب، وبصفتنا شباب الحارة، قد شكّلنا مجموعات حراسة

للبيوت التي نزح سكّانها إلى أماكن قريبة من مستشفى الكويت، بالرغم من أنّنا كنّا بعيدين نسبيًا عن القصف؛ لكنّ المنطقة قريبة من مقرّ الفرقة الأولى مدرّع، وقد تتعرّض للقصف أو للراجع من فارغ الرصاص الساقط من السماء. وكنت أفضّل الحراسة ليلًا؛ فأنا، طوال سنواتي الماضية، صديق الليل.

لم أكن أتعب وأنا أحرس البيوت بثمن لقمتي، وبالقليل من القات الذي كان "أنصار الله" يعطونني إيّاه، والأطعمة التي كانت تُوزّع علينا. فقد كنت أحرس، بشكلٍ خاص، إحدى تلك البيوت، وفيها من ملكت روحي وسيطرت على أنفاسي. وغالبًا ما كنت أشاهدها وهي تصعد إلى سطح بيتهم لتجلب الغسيل، أو لتملأ قنينةً زجاجية شفافة، كروحها، من كوز مصنوع من الفخار كبير اشتروه ليحصلوا على ماءٍ بارد مع انطفاء الكهرباء وتوقّف الأجهزة الكهربائية. كنت أتخيّلها، وهي تسقي أهلها الماء، وتعاود سقايتي برضابها، فأنسى انفجار الصواريخ على الجبال المجاورة لشوارعنا.

***

اليوم هو الأحد ٠٣/ ٠٣/ ٢٠٢٤، الساعة ٠٦:٢٤ مساءً. جلستُ في مكاني على فراش الإسفنج، وقد كوّمت بطانيتي لتصبح متكأً يضبط مقيلي اليومي. أجترّ القات في فمي لساعات طويلة، حتى أذان الفجر. ثم أجمع فراشي من الشارع، وأعود إلى الدكّان لأنام حتى المغرب. هكذا أصبحت حياتي: مجرّد حارسٍ رخيص لجماعةٍ كنت أعتقد، حتى سنوات مضت، أنّها غير

معروفة، ولا تستطيع أن تحكم شارعًا من شوارع صنعاء.

مرّت حتى الآن عشر سنوات من عمري الرديء منذ أن دخلت عالم الكبار: عالم الجنون، والحب، والحياة الحقيقية في الشارع، والصداقات، والعداوات.

القات ما يزال في فمي، وفي يدي دفترٌ مستعمل من أيام المعهد، كُتب عليه: "نوتة محاضرات الجامعة". تتلوّن صفحاته بين الأزرق والوردي، ومعي قلم أزرق رخيص كتبتُ به اسمي بالعربية والإنجليزية. حاولت أن أغيّر نمط الخط إلى حروف كوفية أو حجازية، رقعة، نسخ.

عندما مللت، فتحتُ صفحةً جديدةً لكتابة ماضٍ سحيقٍ أصبح يثقلني، ولا أعرف كيف أتخلّص منه وأتحرّر من سطوته.

ومجدّدًا، كتبتُ اسمي في الجانب الأيمن من أعلى صفحةٍ ذات إطار وردي من النوتة، وحاولت تذكّر سنواتٍ من التعب والإرهاق والجنون والطفولة والشباب؛ يوميات الحب والجمال، والسجن والحرية، والثورة والحرب.

***

أنا الرابع في عنقودٍ من الإخوة والأخوات تجاوز عددهم الأحد عشر؛ منهم من تُوفّي، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة. كنتُ الأكثرَ صمتًا وسلبيةً، والأشدَّ رغبةً في الدراسة والعيش في المراعي، والتنقّل بين الهضاب والجبال، وبين الثيران والأبقار والأغنام.

لم أكن مثل بقية أشقائي الرافضين رعي الحيوانات؛ باعتبارهم أنه نشاط

أنثوي، ولم أكن مثل شقيقاتي اللاتي يرفضن الرعي أيضًا؛ بسبب حرارة الشمس وتحرّشات الرعاة. عشتُ في عائلة مكوّنة من والدي وزوجتيه: أنجب من الأولى خمسة أبناء، منهم ذكران؛ ومن الثانية- والدتي- ثمانية أبناء: ثلاثة ذكور وخمس بنات. وقد كبرنا جميعًا في قرية كبيرة، مقارنةً بالقرى الأخرى. قريتنا تضم عددًا من الأسر ذات الأسماء الرنّانة في محيط العزلة بأكملها، وكانت، وما زالت، ذات صوتٍ يُستمع إليه في محيط ريفنا الكبير. تنام على جبلٍ عالٍ يناطح السماء، حيث كنت أتلمّس السحاب كل صباح. إنّها قرية باردة وقاسية، لكنها أيضًا حميمية ومضيافة. وعائلتي تسكن فيها منذ مئات السنين، حتى صارت القرية بحرها الكبير الذي تموت إن خرجت منه.

عن نفسي، لم أتعارك يومًا في حياتي مع أيّ شخص. وربما لو كنت أعرف العراك وأساليبه، لدخلت في معركةٍ لأنصر الحق. لكنني لم أنصر الحق، لا في ذلك الوقت، ولا الآن، ولا أظنني سأفعل في المستقبل. كنت دائمًا هادئًا إلى حدّ السلبية، ومطيعًا إلى حدّ الذل، وساكنًا إلى حدّ الموت. نادرًا ما أغضب أو أنفعل. لا أعرف إلا أن أقول: حاضر، لأيّ شخص في أسرتي. وأشعر بأنني خالٍ من المشاعر تجاه أيّ شخص في حياتي: غير مهتم، غير مبالٍ، غير مرئي للجميع، بمن فيهم مرايا البيت. ومع ذلك، فأنا الوحيد الذي واصلت دراستي حتى انتهيت من تخصّصٍ جيّدٍ ومطلوبٍ في سوق العمل في صنعاء.

في الماضي، لم أكن أعمل شيئًا لنفسي، ولم أحبّ القيام بشيء يخصّني. كانت كلّ أعمالي منصبّة على خدمة البيت والمرعى، ولم أتقن في الحياة شيئًا سوى الجلوس في غرفةٍ ضيّقة؛ أحيانًا تصبح غرفتي، وأحيانًا أُطرَد منها عندما يأتي أحد إخوتي مع زوجته ويريد غرفةً منفصلة. وعندما أكون في المرعى، حيث أمكث ساعات النهار، أحرس الحيوانات وأتخيّل، وأغرق في الخيال حتى أعماقه السحيقة، حتى يختلط الخيال بالحقيقة؛ فلا أدري ما الذي تخيّلته قبل ساعة، وما الذي حلمت به قبل نصف ساعة من أحلام اليقظة، وما الذي فكّرت فيه للتو أو قبل قليل. أدخل عالمًا سحريًا، وقبل أن أخرج منه أنساه بسرعةٍ مدهشة.

ربما يمرّ اليوم كاملًا وأنا غارق في أحلام اليقظة، ولا أعود إلى الواقع إلا إذا قطع أحلامي أحدهم؛ فأجيبه، ثم أرجع إلى أحلامٍ جديدة، لأنّ الأحلام الأولى التي كنت أحلم بها قد نسيتها. ربما كانت هذه الأحلام هي ما جعلني أحبّ الكتابة وأعود إليها بلهفة في هذا المساء الغريب من أمسيات الحرب. فمنذ الطفولة، أحلم بالكثير من الأشياء التي، لو تحوّلت إلى حكايات، لربما أصبحت مادةً جديرة بالقراءة.

***

كنت أشعر دائمًا بأنني مهمّش داخل العائلة، وقد ساهم ذلك في تنمية هذا الإحساس داخلي. فإخوتي الأصغر منّي يتزوّجون واحدًا تلو الآخر، بينما أنا، حتى الآن، لا أجد من يسألني: متى سيأتي دورك؟ أو متى سيتذكّر أبي

وأمي زواج ابنٍ عاش عمره مثاليـًا، ملتزمًا، صامتًا؟
أمّا والدي، فقد عاش في الأرض، وأعطاها وأعطته الخيرات والمحبة، وما يزال، بعد سـنوات طويلة من عمره، يحرث الأرض ويربّي أبناءه، كأيّ ريفي يواصل الحياة وسيرحل عنها.
عشـتُ طفولتي بسـعادة، ودون اهتمامٍ كبير بالمسـتقبل، خصـوصًـا أنّ أجواء القرية ليســت تنافســية كما في المدينة. لكن بعد إقامتي في صــنعاء طيلة ســنوات، ومروري بأحداث كثيرة عشــتها خلالها، أصــبحت أقلّ ســعادة، وأكثر تفكيرًا في المسـتقبل. وهذا لا يعني أنّ تلك الأيام كانت سـعيدةً دائمًا؛ بل كان فيها أيضًـا الكثير من الصراع والحزن.
إنّ قصص الطفولة، بما تحمله من تمييز، جعلتني منفصلًا عن العائلة بشكلٍ شــبه كامل. كنت أعيش داخل الغرفة أو في المرعى، والآن في دكّان متّســخ بالغبار. تآكلت أيّامي منذ الطفولة، وذهبت كلّها في أحلام يقظة لم أعد أتذكّر معظمهـا. وربمـا تكون هـذه الكلمـات المكتوبـة على "نوتـة محـاضــرات الجامعة" محاولةً لجمع تلك الذكريات المتناثرة.
تســاعدني على الكتابة نزهتي اليومية حول الســور القديم لصــنعاء القديمة؛ وهي عـادة ســتلازمني بقيـة العمر على مـا يبدو. بعد كلّ مـا مررت بـه من قصــص الطفولة والشــباب، كنت وما زلت ميّالًا إلى العزلة. إن غضــبت، ذهبت في هذه الجولة لأشــكو همومي إلى الحجر، وإن فرحت، شــاركت الصــخور أفراحي. وحتى عندما تتجمّد مشــاعري ولا أحسّ بشــيء، أتأمل

الحجارة القديمة والصخور المتناثرة، ألمسها، فتبعث في داخلي دفئها، وتمنحني قوةً وإيمانًا.

أدور حول السور القديم لصنعاء، وأفكّر في كلّ شيء: ذكريات الماضي، وأحلام المستقبل. أناجي صنعاء لتحتضنني. وأتوقّف في جولتي أمام "باب اليمن" التاريخي؛ باب الجمال والهيبة والأناقة، باب الروائح الزكيّة، وبائعي الزبيب والعسل، باب تلج منه إلى التاريخ. أدخل السوق، وأتظاهر بشراء بعض الثياب من بائعي الملابس المستعملة خلف الباب. غالبًا لا أشتري شيئًا، لكنني أبحث عمّن أتحدّث معه، حتى لو كان الحديث عن سعر قميصٍ مستعمل.

في طرف المدينة الآخر أمرّ بجوار تلةٍ من القمامة، تتراكم فيها أكياس بلاستيكية كانت يومًا أغلفة للبضائع. صعدت مرّات عديدة إلى أعلى "باب اليمن"، حيث يوجد سطحٌ يصعد إليه الناس عبر درجات صغيرة على طرف الباب. من هناك، يمكن للمرء أن يرى الحداثة من جهة الباب الخارجية: فنادق وبنايات حديثة، ومن الجهة الأخرى بيوتًا غارقة في القدم، وثّقتها أقدم الكاميرات، وسبقتها كتب الرحالة التي وصفت جمالها وألوانها البيضاء الممزوجة بلون العقيق في الياجور الأحمر الدافئ.

***

صارت صنعاء مدينتي؛ مدينة لا تعرف البرد القارس كما في البلدان الباردة، ولا الحرّ اللاهب كما في البلدان الحارّة. هواؤها يحمل برودة معتدلة

منعشة، وتبدو فصولها متقاربة ومتداخلة. لا تحتاج إلى مكيّفات تبثّ الهواء البارد، ولا إلى مدافئ تنفث الحرارة.

يقول أبناء المناطق الحارّة والمدن الساحلية، عند زيارتهم لصنعاء، إنّ هواءها كالدواء، مقارنةً بحرارة مدنهم التي تخنق الأرواح. ويقول أهل المدن الباردة إنّ طقسها لا يُقارن ببرودة مدنهم. مدينة لا يشعر فيها أحد بالغربة؛ فالصنعاني قد يشعر بالغربة خارجها، لكنّ القادم إليها تحتضنه سريعًا، وتمنحه انتماءً خاصًا، حتى يغدو واحدًا من أبنائها. لقد أحببت هذه المدينة، وصارت سكني وموطن أحلامي ومشاكلي وصداقاتي.

***

منذ وصولي من القرية إلى صنعاء، اعتدت الذهاب إلى المدينة القديمة؛ أغرق في شوارعها الضيّقة، وأحاول أن أتعرف إليها. وفي بعض الأحيان، أمارس نزهتي في صنعاء الحديثة، لأتعرّف إلى الشوارع والطرقات الجديدة التي تشكّلت خلال نصف قرن من أبناء اليمن جميعًا؛ فتجد في بيت عائلة من مأرب، تجاورها عائلة من المحويت، وبجوارهم عائلة من ريمة، وأخرى من ذمار والحُديدة، وتعز، حتى تصل إلى الجار السابع فتكتشف أنّه من عدن، وبجواره عائلة من شبوة، تجاورها عائلة من حضرموت... عندها تدرك أنّ هذه المدينة هي عائلة الجميع، وأمّ اليمن.

صنعاء، مدينة الله.

***

مغامرة غير محسوبة

إنّ حكايات الطفولة والشباب كثيرة، وقد تلتهم كلّ الذكريات، لكنني أنظر إليها بوصفها مدخلًا لحكاية أكثر أهمية، حدثت لي في أواخر المرحلة الثانوية. في تلك الفترة، افتعل شقيقي مشكلة كبيرة بيننا وبين الجيران في القرية، دخلتُ على إثرها السجن لفترة من حياتي، شكّلت مساري كلّه فيما بعد، وصارت واحدة من أبرز ذكرياتي.

كنتُ أُكمل العمل في المنجرة في ليالٍ ينازع فيها ظلام الليل الأبدية، وتُسمع فيها أصوات أدوات المنجرة وهي تحتك بالخشب وتقتلع زوائده وتفرعاته، في مشهدٍ أشبه بتعذيبٍ مهين، ومجموعةٍ من الأبواب العارية المتلاصقة، بعضها خلف بعض، تحاول أن تستر عريها، وتنتظرني بشوقٍ لرشّ الطلاء البني الذي يسترها. ومجموعةٌ أخرى من الأبواب ما زالت المناشير تُقشّرها وتقطعها، ومسامير تُزرع وتُقتلع في أجسادها السمراء.

كانت وظيفتي هي رشُّ الطلاء على الأبواب والنوافذ، وقد أحببتُ هذا العمل؛ لأنه يشعرني بالانتعاش، فضلًا عن أنه الأريح داخل المنجرة؛ قياسًا إلى الأعمال الأخرى التي تستنزف قوى العاملين.

في السنة الأخيرة من الثانوية، كان جسدي قد استطال؛ بسبب عملي في المدينة منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. كنتُ خلالها أنام في حوش المنجرة، وكان هذا، إضافة إلى تعاملي اليومي مع الخشب، قد جعل جسدي خشنًا.

بالعمل الخشــن صــرتُ عملاقًا، لكنني احتفظت بنظرة المراهق الحالمة وتردده وعجزه عن تحديد ما يريد. بعد حصولي على الشهادة الأساسية من مدرسـة القرية سـافرت إلى صـنعاء لاسـتكمال تعليمي. كان طلاب قريتي والقادمون من القرى المجاورة يتكدسـون في مدرسـة القرية التي يقتصـر التعليم فيها على الحصـول على الشـهادة الأسـاسـية ومن أراد أن يُكمل الثانوية فعليه أن يذهب إلى المدينة. أما من يعجز فلا أهمية لذلك في نظر البعض: "أسـاسًـا ماذا سـيفعلون بالشـهادة؟ فالأرض تحتاج إلى الشـباب لحرثها!" كنتُ أتذكر دائمًا مقولات القرية هذه وأنا أستنشق رذاذ الطلاء.

"أحلم بأن أكون طبيبًا"، هذا ما كنت أقوله لضيوفنا في البيت. وبعد المرحلة الأساسية فكرت في التوقف عن التعليم، لولا أن والدي أصرّ على خروجي من القرية والسـفر إلى المدينة. لعله أراد حقًا أن يحقق حلمي وأنا صـغير وأصبح طبيبًا، وربما كان ينظر إليّ كشخصٍ ضعيف لن يتحمل قسوة القرية، فأحب أن أعيش على نعومة المدينة، أو لعله أبعدني عنه قائلًا:

"اعتمد على نفسك مثل إخوتك."

أليس هو من دفعهم إلى الجندية في وقتٍ مبكر؟ فمع اختفاء الماء التدريجي، لم تعد الأرض تُعطي كما كانت من قبل، فأصـبحت الجندية هي الوظيفة الأسهل لكل شباب القرية، إلا فيما ندر. وبما أني لستُ رجلًا، كما كان يقول دائمًا، ولسـت أهلًا لقسـوة القرية أو رعونة الجندية، فقد اختار لي إتمام التعليم.

في تلك الليلة المحورية من حياتي، وأنا أرشّ الطلاء، سمعت صوتًا يناديني من بعيد:

"يا سهيييل، يا سهيييل!"

ظهر صاحب الصوت عند باب المنجرة، ابن خالي الأصغر. كانت أسرة خالي قد هاجرت إلى المدينة بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢م، واستأجرت بيتًا في صنعاء. كان خالي من الجمهوريين الذين شاركوا في بالثورة، لم يكن من رؤوسها بل من أذيالها، ولذلك لم يكن قادرًا على أن يستفيد منها كما استفاد الكبار. لكنه، في النهاية، استطاع شراء بيتٍ كبير في الشارع نفسه الذي استأجر فيه بيته القديم، وطوال أكثر من أربعين عامًا عاش فيه وأنجب فيه أبناءه، وهؤلاء أيضًا تناسلوا فيه، حتى أصبح البيت يضم ثلاث أسر.

كنتُ ما زلتُ منتشيًا من رائحة الطلاء عندما توجهتُ إليه. قال:

- **خبر عاجل، اتصلوا من البلاد، قالوا: ترجع حالًا.**
- **أبى مات؟**
- **لا، شقيقك، تعارك مع واحد من الشباب، تلاعنوا، طعنه وهرب، والشاب مات.**

كان مبتسمًا وهو ينقل هذا الخبر الشنيع. بالطبع؛ فشقيقه لم يرتكب هذه الجريمة. لم أهتم به، ودخلتُ إلى المنجرة، وظل هو يناديني ويؤكد أهمية عودتي إلى القرية، لكنني لم أكن أهتم بما يقول- إن كنتُ سمعت ما يقول أساسًا. ولم أعد أدري ما الذي أصابني، لم أكن قد استوعبت ما قاله!

عدت إلى عملي في رش الأبواب بهدوء، وكأني برائحة الطلاء أحاول طرد الخبر المزعج من رأسي، لكن دون جدوى. لم تكن رائحة الطلاء، ولا أي شيءٍ آخر، قادرًا على أن ينسيني هذا الخبر الذي بدأ يكبر في داخلي. ليلتها رميتُ رشاش الطلاء من يدي، وتوجهتُ إلى الغرفة المخصصة للعاملين في المنجرة. جمعتُ ثيابي والنقود التي خبأتها أسفل الصندوق، وعددتها؛ كانت خمسة عشر ألفًا. هذا المبلغ ليس ذا فائدة، إلا أنه قد يساهم ولو بجزءٍ بسيط. هكذا فكرتُ في ذلك الوقت وأنا أغادر الغرفة. قلت لأحد العاملين: سأذهب إلى القرية في موضوعٍ عاجل، وسأعود قبل يوم السبت القادم.

اعتقدتُ حينها أن كل شيء سيمر على خير. كنتُ قد بدأتُ فعليًا المذاكرة للامتحانات التي ستبدأ قريبًا، في شهر نوفمبر، أي بعد ثلاثة أشهر ونصف من الآن، وهو وقتٌ يكفي لكي أذاكر بشكلٍ جيد وأحاول الخروج بمجموع يقنع والدي بأن أواصل دراستي الجامعية. لم أكن بحاجة إلى موافقته؛ فأنا أصرف على نفسي. ثم، لماذا يدخلني في هذه المشكلة؟ إذا كنتُ لستُ بحاجة إليه، فلماذا يحتاجني؟ هل سأحلّ المشكلة؟ أنا المراهق عديم الحيلة!

***

كان الوقت حينها التاسعة مساءً، وكان بإمكاني أن أصل إلى القرية قبل منتصف الليل، وهذا ما حدث فعلًا. لكن قبل ذلك، سارعتُ إلى موقف سيارات الأجرة. وصلتُ حوالي التاسعة والنصف، وكان هناك عشرات من

سيارات "البيجو" المخصصة للسفر، لكن ولا سائق كان يرغب في رحلة طويلة في هذه الساعة من الليل، وبراكب واحد فقط.

كانت محطة السيارات تمتد بمحاذاة جدار مدرسة للبنات، وأمامها دكاكين تضم مطعمًا، ومركز اتصالات، ومتجرًا لبيع المنتجات الاستهلاكية كالصابون وغيره. بدا المطعم فارغًا، بينما كان عامل الاتصالات وعامل المتجر يقفان جنبًا إلى جنب، يتبادلان حديثًا يبدو مشوّقًا. يرتديان ثيابًا ملتصقة بأجسادهما، وبين لحظة وأخرى يتبادلان نكات تكشف طبيعة حديثهما. وأمام المدرسة، ثمة مجنون يفترش كرتونًا ويتدثر بآخر، وتحيط به كلاب ضالة.

من بعيد، ظهر أحد أطفال الشوارع وراح يرمي المجنون وكلابه بالحجارة ويضحك. لم يكن يبدو آنذاك أنني سأتمكن من السفر، وربما لو منعني القدر من السفر لتغير الكثير في حياتي. أغلب أشقائي كانوا هنا أو هناك، في معسكراتهم أو في أعمالهم، لكن القدر بدا متحمسًا لدخولي هذه التجربة.

في تلك اللحظة، ظهرت من بعيد عين واحدة لدراجة نارية، أو ربما كانت سيارة عوراء! وتأكد ظني بعد لحظات، فقد كانت سيارة بعين واحدة. تقل سائقها وزوجته وطفلهما، وعلى سقفها المكشوف تكدست حمولة من أثاث أخضر اللون لديوان مقيل، على الأرجح.

توقفت السيارة، وأشار إليّ السائق بالصعود. أخبرني أنه لن يأخذ مني أجرًا، مقابل أن أراقب الأثاث كي لا يتساقط، وأن أنبّهه إذا سقط شيء ليتوقف

ويلتقطه. صعدتُ، وصعد الطفل بجانبي فوق كومة الأثاث الأخضر. بدا أن والده أراد له أن يكون برفقة أحد.

وبدأ يحادثني:

- **سأتزوج!**
- **أنت!**
- **أنا رجل، هذا الأثاث للديوان الكبير، ثلاثون نافذة، بين كل نافذة ونافذة نصف متر. أنا أعمل في الأرض وبعنا قات هذه السنة بمليوني ريال.**
- **تعبت لوحدك في الأرض؟**
- **لا، أبي وإخوتي ساعدوني قليلًا، لكن الدور دوري في الزواج. ما دامت النقود متوفرة، والبنات موجودات، نتزوج ونبني حياتنا.**
- **تدرس؟**
- **تركتُ الدراسة هذه السنة، أنا رجل الآن.**
- **من اختار هذا اللون؟**
- **أمي، يعجبها اللون الأخضر، غرفتها وأبى فراشها أخضر! لون جميل، وأنا مثل أمي يعجبني اللون الأخضر.**
- **متى ستتزوج؟**
- **بعد أسبوعين. دخلتُ وخرجتُ من صنعاء هذه الأيام أكثر من عشر مرات، تعبت، لكن بعد الزواج... راحة، وأي راحة!**

وصلنا إلى مفترق الطريق. كانت السيارة العوراء ستواصل سيرها إلى قرية مالكها، أما بالنسبة لي، فهذا السوق هو سوق قريتنا، وعليّ أن أنزل هنا. طرقتُ سقف السيارة طرقًا خفيفًا، فتوقفت بهدوء بجانب المفترق، وبقفزة واحدة كنتُ على الرصيف.

- **شكرا لكم ومبروك للولد!**
- **كلمك! ما يترك أحد إلا ويخبره!**
- **فرحان، الله يسعده!**

قالت الأم:

- **الولد ينزل جنبي، لا ينكع والا شيء.**
- **ولا يقع به حاجة يا مرة!**
- **لا، لا، الآن ينزل جنبي، يا عماد، يا عماد!**

***

في الأفق، كانت أضواء القمر الفضية تحتضن منازل القرى القديمة، ذات النوافذ الذهبية بفعل أضواء "النوارات" التي تعمل بالقاز. بعض النوافذ ما تزال مفتوحة، يطل منها رجال ساهرون بعد نهار القات والمقيل، وعجزهم عن النوم. وفي الأفق أيضًا، بدت غرف الحراسة، وبداخلها رجال يحرسون أراضيهم المزروعة بقات بلغ طور القطف، وهذا مدعاة لأن يسيل له لعاب اللصوص وبعض مدمني القات ممن لا يستطيعون شراءه ولا يملكون أرضًا لزراعته.

في السماء، كان القمر مشعًا بكامل هيئته، وقد امتزجت فضته مع ذهب النوافذ، فكوّنت لوحة أشبه بالحلم. بدا وكأن كل شيء- القمر، والنجوم، والنوافذ- يستعد لعرس كبير، كأنه حلم أو أشد بهاءً.

كانت النسوة ما يزلن يُحضّرن العشاء، فالوقت ما يزال مبكرًا نسبيًا، حتى وإن كان أهل الريف ينامون مبكرًا. كانت الساعة لا تزال العاشرة مساءً، ويبدو أن خبر مقتل شخص في قريتنا قد انتشر، وبدأ الناس يتداولونه على موائد عشاء تلك الليلة.

وضعت قدمًا على الإسفلت، والأخرى على التراب. كنت ما أزال مترددًا في خوض تجربة أجهل مصيرها. في ذلك الظلام الدامس، فكرتُ بما فعلته بنفسي: لماذا لا أعلن براءتي من هذه الأسرة؟ لكن ثمة شيء من حماس الشباب كان يدفعني إلى المضي في الظلمة، في طريقٍ غير واضح المعالم، يقود إلى قريتنا، وإلى بيتنا تحديدًا، وربما لذلك رفعتُ قدمي عن الإسفلت، وخضت في الأرض الترابية.

بدأتُ المسير نحو قريتنا القريبة من السوق؛ ساعة واحدة على الأقدام، أو ربع ساعة بالسيارة. خطوتُ أولى خطواتي باتجاه المجهول، وتذكرتُ ما كان يفعله أخي من مشكلات خلال فترات إقامته المتقطعة في القرية.

كان قد التحق بالجندية قبل نحو ثلاث سنوات، وكان يعود إلى القرية في الأعياد الدينية. ورغم صغر سنه على الزواج، أقدم والدي على تزويجه، كما هي عادته مع أبنائه، واختار له زوجةً بقيت في منزلنا خلال فترة غيابه في المعسكر.

لطالما كان يثير المشـكلات في كل زيارة، خصـوصًـا بعد الزواج. كانت زوجته جميلة وصـغيرة السـن، لكن شـائعاتٍ سـرت بأنها كانت تصـاحب الرعاة عندما كانت تخرج إلى المرعى مع الحيوانات، وأنها لم تكن عذراء. غير أن هذه الشـائعات تبيّن كذبها منذ الأيام الأولى للزواج، إلا أن ذلك لم يُقنعه، فصـار هذا الأمر هاجسه الوحيد، وصـنع بسببه كثيرًا من المشكلات والأوهام، داخل أسرتنا أولًا، وبين أسرتنا وأسرة الفتاة ثانيًا. بدا وكأنه مقتنع بأن الفتاة، حتى لو كانت عذراء، فهذا لا يعني أنها لم تصـاحب الرعاة، وربما- كما كان يلمّح- كانوا يأتونها من الخلف!

حاول شـقيقي مرارًا أن يثبت وجهة نظره، وكان يخيّرها قبل النوم معًا: من أين تريده؟ فكانت تصـرخ رافضـة أن يأتيها من دبرها، فينهال عليها ضـربًا، فتعود إلى أسرتها. في السنة الأولى، كانت تعود إلى بيت أهلها مرة كل شهر، أو أكثر.

ومع مرور الأيام، ومع حملها، بدأ ينسـى أو يتناسـى، لكنه تحوّل- في الأيام التي يقضـيها في القرية- إلى سـجّان. كان يرفض تمامًا أن تخرج إلى أي مكان: لا لجلب الماء، ولا للحطب، ولا للزيارات. كانت تعمل داخل البيت فقط، وتؤدي كل الأعمال.

في السنة الثانية، وخلال إحدى إجازاته، صنع لنا مشكلتين كبيرتين استهلكتا الكثير من مدخرات العائلة. حدث ذلك عندما مرّ أحد الرعاة بجانب البيت، ولأنه كان يعرف زوجة أخي أيام رعي الماشية، فقد توقف ليتبادلا الحديث.

وسرعان ما أُشيع في القرية أنه شرب من جرّتها. التزم شقيقي الصمت، أنهى غداءه، وخرج. ثم سمعنا أنه أطلق النار على الراعي، وأن الرصاصة اقتلعت أذنه اليمنى. حمد أهل البيت الله أنها لم تخترق رأسه، بل اكتفت بأذنه. حينها، أخرج والدي مبلغًا من المال، ومعه ثورٌ ضخم، وتم الصلح.

وفي الزيارة نفسها من العام الماضي، أخبرنا- وهو يبرر أفعاله- أنه ظل ساعة كاملة عند النافذة، يراقب أحد شباب القرية الذي لم يرفع نظره عن نوافذ البيت. لكنه هذه المرة لم يستخدم الرصاص؛ بل استخدم قوسًا قديمًا كان يصطاد به الحمام في طفولته، فوجده على أحد الرفوف. وبحصوة صغيرة، صوبها نحو عين الشاب، ففقأها. لم يكن لدى والدي ما يغطي تكاليف العلاج والتعويض، ومع ذلك ساهمت الأسرة بأكملها- بما في ذلك الأنساب والأصهار- في جمع المبلغ اللازم لعلاج الشاب وتعويضه. كان شقيقي دائمًا شرارةً تشعل المشكلات، ويجرّها إلى البيت.

***

فكرتُ، وأنا أخطو في الطرقات المظلمة والوعرة، أن الناس ستنظر إليّ بوصفي الابن المطيع الذي يهبّ لنجدة أسرته عند الحاجة، الابن المثالي. ربما كنت، في بدايات مراهقتي، أتوهم أنني أعيش في مدينة فاضلة، وكان الحماس يملؤني وأنا أتقدم بخطى واثقة نحو البيت، معتقدًا أنني سأُستقبل بحرارة:

"ها قد جاء المخلّص... ها قد جاء الابن البار!"

كانت هناك قرى عديدة عليّ أن أعبرها قبل الوصـــول إلى قريتي. ولم يكن يدلّ على وجودها في ظلمة الليل ســـوى تلك الأنوار، ونباح الكلاب التي كانت تشـــمّ رائحتي من بعيد، تحدّق بي وأنا أمر بمحاذاة حدودها. لم تكن تقترب مني ما دمتُ لم أتجاوز حدود مملكتها؛ تنبح، وتراقب بحذر، وحين أتخطاها، تنبح مودّعة.

بدت الأضـــواء الشـــاحبة لقريتي من بعيد، وكان منزلنا أكثر إنارة من بقية المنازل، كأنه مثقل بالزوار من الأخوات وأزواجهن وآخرين.

بدأت كلاب قريتنا تنبح، كأنها تســـتقبلني: من أنت أيها الغريب؟ لم أعرها اهتمامًا وأنا أعبر، وعيونها تحدق بي بشـــراســـة، فقد تجرأت ودخلت حدود مملكتها. كانت فوهات البنادق تبرز من نوافذ البيت، رغم الهدوء المسيطر. ومن بعيد، تعالت أصـــوات صـــراخٍ حزين- ربما من بيت القتيل- وأصـــوات غاضـــبة أيضًـــا، وهمهمات قريبة من منزلنا المضـــاء بفوانيس ألقت ضـــوءها على ثلاثة رجال يتحدثون بهدوء: خالي، وعاقل القرية، ورجل لا أعرفه.

لم أستطع حتى أن ألقي السلام، لكن ما إن رآني خالي حتى صرخ:

"ادخل البيت الآن!"

دخلتُ دون نقاش. لم أشعر أنه يريد الحديث معي أو حتى السلام، بقدر ما أراد إدخالي من العراء إلى الداخل. كان المنزل كله مضـــاءً بالشـــموع والفوانيس. نســـاء متلفعات بالســـواد- عرفت منهن شـــقيقاتي- بعضـــهن يهمسن، وبعضهن يبكين، وأخريات يعضضن شفاههن. بدا الجميع كأنهم

في حالة خَدَر بعد نهار طويل من المقيل ومضـغ القات، وكأن كل شـيء يُضخَّم: الأسباب والنتائج، تحت تأثير ما يسري في الدم.

وسمعت صوت أمي، مثقلًا بالحزن والخوف، حين رأتني:

- **ما جاء بك؟ عنموت الليلة ما جاء بك، تموت معانا!**
- **ما عنموتش!**
- **إبسـر من الطاقة، في كل طاقة سـلاح تقول ولا "ذر" مرصـوفات في الطيقان!**

كان الجميع آنذاك متحفّزًا، يكفي صوت طلقة واحدة لتندلع الحرب. كانت الوفود من القبائل المجاورة تتوافد إلى قريتنا؛ منهم أنصـارنا، ومنهم أنصـار أسرة القتيل. وكان الجو مشحونًا، كأنه يدفع نحو حرب... أي حرب.

سألتُ نفسي:

"ما الذي جاء بي حقًا إلى هنا؟"

كان الوسـطاء أكثر من الغرماء، ومعظمهم منتفخو الخدود بالقات. وربما كان ذلك أحد أسباب التراخي في إشعال الحرب تلك الليلة؛ فالجميع يريد الكلام. جلستُ عند نافذة، أمسك بسلاح، وأوجه فوهته نحو نافذة في البيت المجاور، حيث كنت أسمع صياحًا وهمسًا. وفي الوقت نفسه، أنصتُ لرجل يروي حكايةً ربما لم تحدث إلا في خياله، عن أبٍ قُتل ابنه غدرًا بطعنة صديق، فسامح القاتل طمعًا في الجنة.

كنت أراقب الشـيوخ الذين حضـروا؛ ففي قريتنا جريمة قتل، وهذا يعني

أســـابيع من اللحم والقات المجاني، وثيران تُذبح لهم ولأتباعهم الذين يجرّونهم خلفهم دائمًا. اســتغربت كيف لم أرَ تلك الســيارات في الطريق! كانت السيارات تتقاطر على امتداد البصر، تدخل الطريق الترابي متجهة إلى قريتنا، لكن سوء الحظ جعلني أصل في وقت لم تمر فيه أي سيارة بجانبي. شعرت أن القدر لم يشأ حتى أن يخفف عني عناء الطريق الطويل.

وصــل أحد شــيوخ القرى المجاورة، وقد التقط آخر الكلام، ويبدو أنه كان يسعِّر نار الحرب. ما إن سمع عبارة: "سامحه الأب"، حتى صرخ في وجه الحاضرين من أسرة القتيل:

"من ترك ثأره ترك عرضه! من يترك دم ابنه يذهب هدرًا؟"

تجاوبت معه بعض الأصوات الشابة. كنت قد أطفأت نور الغرفة التي أقف عند نافذتها، وأوجه ســلاحي نحو صــدورهم جميعًا، خيرهم وشــرهم. لم أكن أعرف- بصــدق- من الصــديق ومن العدو. ولو أطلق أحدهم النار واندلع النزاع، هل كنت سأطلق رصاصي أم لا؟ كنت قد نسيت حتى طريقة إطلاق النار التي تعلمتها في الماضــي؛ فقد أصــبحت الفأرة ولوحة المفاتيح ورشاش الدهان أدواتي التي أتقنها.

اندفع شيخٌ طيب نحو الشيخ المحرّض، وقال له:

- **أنت تشــتي لحمة وقات، تجلس أول الناس على الغداء وتقوم آخرهم!**
- **احترم نفسك، أنا شيخ أبا عن جد، وأكفيكم أنتم ومثلكم سنة أكل وقات وكل شيء!**

- **بتتخيل أنى مش محترم، أنا شيخ، ابن شيخ، أنا عمدت مشيختي في مجلس النواب، الناس كلهم انتخبوني، لكن أنت من عينك شـيخ! أنت شيخ نفسك.**
- **معروف يا مجاهد، أنت مرشح المؤتمر، من رشحك يا بطل؟**
- **تقول اننى مزور؟ والله لأوصلها للمجلس.**
- **وصله حتى للرئيس، فجعت طيزى، هاع!**

انتزع حينها الشـيخ المرشـح "جنبيته" وحاول أن يطعن بها الشـيخ الآخر. التفّ الحاضـرون حولهما، وتدخل بقية الشيوخ لفض الاشـتباك. في لحظة، تحوّل الشـيخ الذي كان يدعو للتهدئة إلى محرّضٍ على الشـر، وانحاز إلى أسـرة القتيل. أما الآخر، فرغم أنه لم يكن من أنصـارنا، فقد اضـطر إلى الوقوف في الجهة المقابلة مناكفة لغريمه. وهكذا انقسـمت القرية على نفسها.

انقسـم الشـيخان الكبيران، وتبعهما صـغار الشـيوخ الذين جاؤوا أصـلًا للصلح، فإذا بهم يصبحون طرفًا في النزاع. بدا عاقل القرية كالمجنون وسط تلك الكتلة من الشـيوخ المتأنقين وأتباعهم، الذين كانوا في مثل عمري، لكنهم أقرب إلى القردة منهم إلى البشر: متسخون، شعورهم مشعثة، يلفّون رؤوسـهم بعشـوائية، وكل واحد يحمل سـلاحه، ويطوّق خصـره بحزام من الرصـاص. كانوا جميعًا "مُخزّنين"، وعيونهم مترقبة لأي شـرارة عنف، وقد جعل القات كل مشـكلة تبدو عظيمة، مهما كانت صـغيرة. وربما كان كل

شيخ يحرص على أن يحيط نفسه بأقبح أتباعه خَلقًا وخُلقًا، ليزرع الرهبة في نفوس الناس.

ساعة تجرّ أخرى، والكل يرشف القهوة ويعود إلى مضغ القات. لم تُطلق رصاصة واحدة، رغم أن الليل انقضى وأصبحت الساعة الثالثة صباحًا. ولم يكن يبدو أن صلاة الفجر ستقام ذلك اليوم.

جاء الصباح، والجميع ما يزال يقظًا: يتجادلون، يتنازعون، يهدّئون، ويتصاحبون. أما أسرتنا، فكانت تنتظر نتيجة المفاوضات.

***

اشتقتُ لصباح قريتنا. كنت معتادًا في المدينة على السهر والعمل ليلًا، ثم النوم حتى الظهر، فالذهاب إلى المدرسة، ثم العودة إلى العمل. أما اليوم، فأنا في القرية، ما زلت ساهرًا، أوجّه فوهة سلاحي إلى كل ما يتحرك- حتى القطط- كأنني في لعبة إلكترونية لا تنتهي.

بدأت المداخن تنفث دخان الإفطار، وبدأ الناس يخرجون القات من أفواههم لتناول الإفطار. حتى الشيوخ الذين أعلنوا بالأمس أنهم متخمون ولا يريدون شيئًا، جلسوا يأكلون مع القرويين. لم أستطع الأكل، رغم أن أمي أعدّت شيئًا- لا أذكره الآن- ربما خبز ذرة مع اللبن والبُن. أذكر فقط رائحة البن.

كنت أقف كالمراقب، أتابع المشهد العام، بينما الجميع منشغلون بالإفطار. ولا أعرف لماذا أرهقت نفسي هكذا... لكنني كنت متقمصًا دور البطل. ومن

هناك، من بداية الطريق الترابي المؤدي إلى القرى، رأيت غبارًا يتصاعد. بدت سياراتٌ قادمة؛ لعلها لشيوخ جدد، جاءوا ليشبعوا بطونهم من لحوم ثيراننا، ويعتلفون من قاتنا. اقتربت السيارات، وكانت ثلاثًا، جميعها خضراء. ومع ازدياد اقترابها، اكتشفت أنها سيارات شرطة. ربما كان شيخ الحكومة قد أرسل إلى صنعاء ليبلغهم بالجريمة.

كنت أظن آنذاك أن تدخُّل الحكومة قد يخلق حلًا سريعًا للأزمة؛ فالحكومة ليست شيخًا يريد أن تمتد المشكلة شهورًا ليملأ معدته لحمًا وقاتًا؛ لدى الحكومة ما تأكله دائمًا. لكنني اكتشفت لاحقًا أن الحكومة أيضًا جائعة.

توقفت سيارات الشرطة بحركات استعراضية، تشبه ما تفعله الشرطة الأمريكية في الأفلام، فألقت الخوف في نفوس نساء القرية، وأثارت غبارًا كثيفًا التصق بثياب الشيوخ والقرويين والرعاة. ومع وصول الأمن، سرت في القرية حالة من الأمان النسبي. حتى والدي- الذي ظل طوال الليل، مثلي، عند النافذة- خرج لملاقاة القادمين. خرج خالي أيضًا، ومعهما جمعٌ كبير من أنصارنا وأصهارنا. ولا أدري ما الذي دفعني أنا للخروج، وترك موقعي في حراسة البيت. أكان فضولًا؟ أم رغبة في حماية والدي؟ أم رغبة خفية في أن أُظهر نفسي بعد سنوات الغياب، وكأنني أريد أن أقول:

"ما يزال هناك رجل آخر بعد هروب الأول وغياب الآخرين!"

كنت أريد أن أصرخ بالجميع:

"أنا الرجل الوحيد الذي حضر!"

تجمّع الشيوخ حول الجنود، وتوافد الغرماء مع غرمائهم. ارتفعت الأصوات، وساد الهرج. الكل يريد أن يتكلم، كأطفال تشاجروا في غياب أمهم، فلما حضرت الأم، سارع كل واحد ليشكو الآخر ويبرّئ نفسه.

في الوسط، كان يقف عسكري برتبة نقيب، يستمع إليهم. كان مظهره جميلًا- لا وسيمًا، بل أقرب إلى الأنوثة- يبتسم بشفتيه الناعمتين لكل شيخ يقترب منه.

صاح عاقل القرية، الذي كان قد اتصل بالشرطة:

- **الحمد لله، من أمس وأنا اتصل، والله ما نعرف كيف مرت الليلة، وإحنا من هذا البيت لهذا البيت!**
- **ما حصل؟**
- **عبد الفتاح بن محمد، كلب! كل سنة ما يروح معسكره إلا بعد مشكلة، مرة يخزق عين جار، ومرة يقطع أذن جار، وهذه السنة قتل صاحبه، كانوا يدرسوا سوا، ويلعبوا سوا.**
- **مات؟**
- **مات يا فندم، مات من ساعته، طعنه بالجنبية في ضرجمته لوما خزق لقفة وبعدين هرسها في صدره لوما خرجت من ظهره.**
- **أين القاتل؟**
- **هرب لمعسكره.**

أمر النقيب جنوده بتفتيش المنزل. لم يطمئن إلى رواية العاقل ولا إلى

ضجيج الشيوخ من حوله. وبعد التفتيش لم يجد الجنود ما يبحثون عنه.
كنت أراقب المشهد كأنني خارج القضية، وهذا ما أزعجني. لم أكن أتصور أنني، بعد لحظات، سأصبح في قلبها.
صاح النقيب بوالدي:

- **خليت ابنك يهرب، خذوه مكان ولده، لما يرجع!**

نظر والدي إلى الشيوخ من أنصارنا نظرةً خائفة، فيما نظر إليه شيوخ الطرف الآخر بسخريةٍ خفية، ولمع في عيون أسرة القتيل شيء من الرضا، رغم أنهم لم يدفنوا ابنهم بعد. كانوا ينتظرون نتيجة المفاوضات، كما أن العادة في قريتنا ألا يُدفن القتيل ليلًا، رغم أنه غُسّل منذ الصباح، وكانت النسوة يُحضرن الماء من البئر.
كان جميع أهل القرية في الساحة الوسطى، أكبر ساحاتها. النساء يراقبن من النوافذ، وبعض العجائز تجرأن وخرجن بين الرجال. التفّ الجميع حول النقيب، يحاولون ثنيه عن أخذ والدي بدلًا من شقيقي.
وفجأة، صاح عاقل القرية، كأنه عثر على الحل السحري:

- **خذ سهيل يا فندم ولا تهتم، وشقيقه سيأتي إليك خلال يومين فقط.**

وصاح شيخ من أنصارنا وقد وجد في شخصي الحل السحري:

- **هذا وجهي أنا والشيخ ناصر، سنذهب إليه إلى المعسكر ونسحبه من أذنه لعندك.**
- **حرام عليك تأخذ عجوز، يموت بين يديك!**

- **يا فندم لو جاء معنا والده إلى المعسكر عيقدر يأخذه من وسط المعسكر، ما أحد يقدر يمنع الأب من ولده.**

وغمز لي عاقل القرية، كأنه كان يريد بغمزته هذه أن يجعلني أطمئن:

- **أنت ولد طايع يا سهيل، روح مع الفندم وعنخرجك من السجن بأسرع وقت.**

وبغمزه أخرى من شيخ من أنصارنا:

- **لو ما رجع النقيب بصيده عترجع الدنيا حرب، روح معهم نحقن الدم وبعدين نلقى حل بالدية، أو حتى نعدم شقيقك، لكن أنت، أنت العاقل في عائلتك وما عتفلتها تدخل حرب مع الغرماء!**

وغمزه أخرى من والدي:

- **روح يا سهيل، كلام العاقل صدق.**

أما خالي- الذي كنت أنتظر منه غمزة- فقال بلا إشارة:

- **أنا في صنعاء، ولا يهمك، ما ينقص عليك شيء، كل حاجة لعندك من أكل وشرب وقات وزلط.**

بدأت أقتنع. صدّقت أن الأمر لن يتجاوز يومًا أو بضعة أيام، وأن حلًا سيُوجد، كما قالوا. نظرت إلى النقيب، فحدّق بي لحظات، ثم أشار إلى جنوده فالتفّوا حولي. كان من الصعب أن تعود الحكومة بلا صيد. وكنت أنا الصيد. ربما لم أكن الصيد الأفضل، لكنني أفضل من لا شيء. فالحكومة، آنذاك، لم تكن قوية في الأرياف بما يكفي لأخذ أحد دون موافقة أهله. لذلك

كانت أغلب القضايا تُحل عرفيًا.

صعدت إلى إحدى السيارات الخضراء، وأحاط بي رجالٌ خضر. تذكرت- ولا أدري لماذا- أنني جئت قبل ساعات على سيارة من النوع نفسه، لكنها لم تكن تحمل جنودًا، بل أثاثًا. ظل هذا الخاطر يلازمني طوال الطريق، كأنني أهرب من واقعي.

رأيت الجموع تبتعد، والسيارة تنطلق. وخُيّل إليّ أنهم ينظرون إليّ كبطل. انتفخت حينها، وأنا أشاهد العيون كلها متجهة نحوي:

"ها هو البريء يرمي بنفسه في النار لينقذ أسرته!"

"ها هو البطل الذي سيمنع الحرب!"

"ها هي القرية ستدخل أيامًا من التفاوض بدلًا من الدم!"

كنت مطمئنًا؛ كثرة الغمزات التي تلقيتها جعلتني أصدق أنني في أمان. لكن ما إن تحركت السيارات الخضراء نحو العاصمة، حتى بدا لي أن الغنيمة لم تكن ثمينة. لم تكن بالحجم الذي يمكن للشرطة أن تساوم عليها وتحصل على حُزم القات، لكنها- على أي حال- غنيمة مقبولة.

كان لكلِّ شخصٍ، كما أعرف، ثمنٌ. فلو كان والدي هو المسجون، لكانت رُزَمُ القات الأحمر القاني تصل إليهم يوميًّا. أمّا أنا، فربما لا يحصلون إلا على قات من نوع "القَطَل". نعم، لكلِّ شخصٍ ثمنٌ يختلف عن الآخر.

***

كانت السيارة التي أستقلّها واحدةً من سياراتٍ تقلّ نحو خمسة عشر شرطيًا، وقد وصلت إلى الطريق المُسفلت وبدأت رحلة العودة إلى العاصمة. وعلى

الطريق الترابي، ظهرت سيارةٌ لأحد أنسبائنا. تعرّفتُ إليهم: على سقفها المكشوف كان خالي، وفي قفصها الخلفي السائقُ والشيخُ الذي اختار الوقوف إلى جانبنا في هذه المشكلة.

كان هناك صوتٌ في رأسي يؤنّبني على موافقتي التضحية بنفسي في سبيل والدي. فأنا لا أحبّه. وربما لم يكن الدافع إلا أن أفتح صدري أمام الجميع، لأُريهم كم أصبحتُ بطلاً، وكيف أستطيع دخول السجن، وأن أحوز ما يحوزه الرجال... الرجال السيئون، أولئك الذين ترضى عنهم النسوة، وتنظر إليهم كأنهم فحول الألفية.

في السيارة التي تطاردنا كانت أذيال الشيخ؛ شبابٌ بتسريحاتٍ مجنونة، يمسكون بحديد سقف السيارة المكشوفة كأنهم فرسانٌ على خيولٍ تتقافز فوق رمال الصحراء، في زمن الصعاليك. رأيتها تنطلق من الطريق الترابي، مسرعةً لتجاري سيارات الشرطة التي لا ينافسها أحد في سرعتها، ولا في كسرها للإشارات. كانت الريح تصفِر حولي، والجنود، والسيارات القادمة من الاتجاه المعاكس، تصفع وجوهنا كلما مرّت بنا.

ومن على رأس جبل عَصْر، بدت صنعاء ممتدّة في كل الاتجاهات؛ ببناياتها، وشوارعها، وأصوات مزامير سياراتها الغارقة في طرقها المتشعّبة. وكعادتها، لم تتوقّف سيارات الشرطة عند الإشارات، بل كانت تطلق أبواقها كلما اعترضها زحام. اختفت سيارة الشيخ التي كانت تتبعنا على الطريق السريع؛ وربما أوقفتها إحدى إشارات المرور.

كنت مطمئنًا إلى أن خالي سيأتي؛ فهو لن يتركني. مع أني أعرف أنه، في وقتٍ سابق، لم يُبقِني في بيته أكثر من شهر، ثم طردني. لم يكن الرفض منه ولا من زوجته، بل من ابنه الأكبر، الذي بدا كأنه سيّد البيت والآمر الناهي فيه. هو من طردني، ولم يتحرّك خالي، ولم ينبس ببنت شفة، متعلّلًا بأن بناته في سنّ المراهقة، وأن وجود شابٍ غريبٍ في البيت قد يسبّب مشكلة.

لاحقًا، عرفت أن إحدى بناته هربت مع صديقٍ لها، ويقال إنها ذهبت معه إلى مدينة باجل، تلك المدينة الحارّة، حيث كان يعمل في لواءٍ عسكري. استأجر لها بيتًا رخيصًا، ويُقال إنها تعيش الآن حياةً بائسة مع زوجٍ لا يكفي راتبه في المعسكر ثمنًا للخبز.

لم أكن أهتم. ومع ذلك، ظلّت فكرة تختلج داخلي: أن أذهب إلى ابن خالي وأحدّثه عن الأمر. فالمسألة ليست في وجود ضيفٍ في البيت فقط، ولا حتى آلاف الضيوف، بل تتعلّق بالفتاة أيضًا. لا أفهم هذه الثقافة الجديدة التي تجعل الأبناء الكبار مسيطرين على كل شيء. ألم يكن الأجدر أن تبقى السلطة للأب، الذي بنى هذا البيت ورعاه، ويعرف خباياه؟ لماذا يضعف الآباء، حين يكبرون، ويصيرون غير قادرين على السيطرة على ما صنعوه بأيديهم؟

***

كانت السيارات ما تزال تلتهم طرق صنعاء. اخترقت حيّ الزبيري، متجهةً إلى جسر الصداقة، ثم إلى ميدان التحرير، ومنها إلى مبنى المباحث في

شارع العدل. كان المبنى مرصوفًا بسطحٍ أسمنتيٍّ ناعم، كأنّه صُبّ فوق عددٍ لا يُحصى من الحجارة الصغيرة التي بدت رؤوسها الملساء تقاوم الزمن وهي عالقة في صلابة الإسمنت.

عند البوابة، مزيدٌ من الجنود، ومزيدٌ من الناس الذين لديهم أقارب أو أصدقاء في الداخل. وبجوارها ديوانٌ للحراسة، تكشف نظرةٌ واحدة إلى داخله مقدار الأوساخ المتراكمة عبر السنين. آثار طلاءٍ أصفر تغطّي النصف السفلي من الجدران، بينما يحتفظ النصف العلوي بطلاءٍ أبيض متشقّق، سالت عليه مياه الأمطار من ثقوب السقف، فتركت خيوطًا رمادية متفاوتة الطول.

ممرّات المباحث طويلة ومتقاطعة، وعلى الجانبين أبوابٌ متجاورة: بعضها مفتوح، وبعضها مغلق. من خلفها تتصاعد أصواتٌ متباينة: صياحٌ غاضب، وصياحٌ متوسّل، وأخرى مشبعة بشبقٍ فاضح.

كان الجندي المرافق لي يمسك بكفّي اليسرى، يعصرها بكفّه الخشنة الضخمة، ويحرّكها بإيقاعٍ منتظم، حتى تلتصق راحتي المتعرّقة براحة يده، ويصدر عند انفصالهما صوتٌ جنسي فاضح، يشبه احتكاك جسدين.

نظرتُ إليه بدهشة. ابتسم، كاشفًا عن أسنانٍ صفراء، وذقنٍ غير حليقة، وشعر صدرٍ امتدّ حتى لامس عنقه ولحيته. لم أتحدّث. تجاهلت الأمر، رغم أن الممر كان طويلًا، وحركته مستمرة، والصوت يزداد وضوحًا حتى بلغ حدًّا مُخجلًا.

من جهة البوابة، سمعت صوت خالي مرتفعًا، يتجادل مع من حوله؛ ربما أنصارنا، وربما بعض الخصوم. كانت أقدامهم الريفية تضرب بلاط الممر بقسوة. وعند أحد الأبواب، فتح الجندي بابًا خشبيًا، فدخلنا معًا، ثم أغلقه خلفنا. كان في المكتب شخصٌ واحد، على عكس ما تُصوّره المسلسلات. بدا أن الضابط الذي أمامي سيتولّى الاستجواب والكتابة معًا، دون أن يكون أمامه دفترٌ أو أوراق.

على مكتبه الحديدي الرخيص، انتشرت آثار أكواب الشاي بكثافة، رغم عدم وجود أيّ أكواب. وبجواره منفضة سجائر ممتلئة بأعقابها، وقد أضاف إليها سيجارةً جديدة للتو. ظننته سيسألني عن اسمي، وعمري، وعنواني، كما يحدث في المسلسلات. لكنه لم يفعل. كان برتبة رائد واسمه عبد الكريم. سألني:

- **أين شقيقك؟**
- **في المعسكر.**
- **متى سيسلم نفسه؟**
- **مدري.**

أشار إلى الجندي الذي جاء معي بإيماءة من يده، فسحبني الجندي عبر ممرات أخرى داخل المبنى. كان خالي وأصحابه ما يزالون خارج المكتب؛ أشار إليّ أن أطمئن. نظرت إليهم وهم يدخلون مكتب الرائد، قبل أن تبتلعني عتمة الممرات الداخلية للمبنى.

في الطريق بين مكتب الرائد والزنزانة، كانت الممرات مظلمة، لا يبدّدها إلا ضوء خافت يتسلل من نوافذ طولية قريبة من السقف. كان الجندي ما يزال يضغط على راحتي المتعرّقة براحته، والأصوات تتردّد في الفراغ. فجأة جذب يدي نحو فخذيه، لأتلمّس انتصابه. سحبت يدي سريعًا، لكنه أعادها بقسوة، كاشرًا عن أسنانه الصفراء. أدركتُ أن ما يحدث ليس عبثًا، بل اختبار؛ محاولة لمعرفة تهمتي، أو تصنيفي، ليُبنى على ذلك ما سيحدث لي في الداخل.

جمعتُ قوتي، وضغطتُ على قضيبه بكل ما أملك من قوة حتى احمر وجهه، وتمتم بصوتٍ يشبه الفحيح:

- **خلاص خلاص، دريت إنك مش مخنوث يا ابن القحبة.**

كانت أرضية السجن تتكوّن من ثلاث غرف طولية كبيرة، تتسع كل واحدة لنحو عشرين شخصًا. وفي الوسط ردهة دائرية واسعة، مكشوفة للسماء، تحيط بها جدران عالية ملساء، يعلوها شبك حديدي واسع الفتحات. على الأطراف تراصّت فُرش السجناء، وكان المكان مكتظًا على نحو خانق.

وجوه المساجين مخيفة وقاسية. معظمهم من الشباب، لحاهم طويلة غير مهذبة، يرتدون ثيابًا بيضاء، وقليل منهم ببناطيل وقمصان. في المقدّمة حمّامٌ مستور بقطعة قماش لا تستر شيئًا، وتنبعث منه رائحة نتنة تدور في المكان كله.

بدأت العيون تتفحّصني، والتخمينات تدور حول سبب وجودي هنا.

بعضـــهم كان يختبر ردود فعلي ويتحســـس قضـــيبه بوقاحة، وكأن دخولي يحتاج إلى تفسير جسدي لا قضائي.

وجدتُ مســـاحةً فارغة في زاوية قذرة داخل إحدى الغرف، مغطاة بأعقاب السجائر وبقع بصاق صفراء وخضراء. بجانبها صفّ من الفرش الإسفنجية المتّسخة يمتد حتى نهاية الغرفة. كانت تلك الزاوية الخيار الوحيد.

لم تمضِ نصف ساعة حتى نودي باسمي. انتعشتُ، ظننتها فرصة للخروج من هذا المســـتنقع. كانت الفرحة بادية على وجهي وأنا أهرع نحو الباب، لكن نظرات الســـخرية التي لاحقتني في الطريق كـانـت كفيلة بإعـادتي إلى واقعي. لم يكن النداء للخروج، بل سلّمني السجّان فرشًا إسفنجيًا متّسخًا. سألته عن بطانية، فمطّ شفتيه بلا اكتراث:

- **اتصل بهم يشتروا لك واحدة.**

كانت رائحة الفراش لا تُحتمل، كأن من استخدمه قبلي ترك فيه كل ما يمكن أن يتركه إنســـان من مني وبول. في غلافه فتحة صـــغيرة؛ نظرت داخلها، فوجدت تجويفًا في الإســـفنج، رطبًا، مليئًا بمادة لزجة من الفازلين. أدركتُ كيف استُخدم. شعرت بالغثيان من كل ما حولي: الروائح، الملمس، نظرات السجناء، وكل ما في الزنزانة.

"أين أنا؟ لم أعد أستطيع التفكير والإحساس بما حولي!"

جاء النداء مرة أخرى. كان خالي هذه المرة، يحمل لي غداءً من الأرز ونصف دجاجة. لم يسمح السجّان بدخول قنينة الكولا، واحتفظ بها لنفسه.

طلبتُ بطانية، فغمز لي خالي موافقًا، أحسست أني في دنيا من الغمزات الحنونة والشهوانية. لكنني لم أحصل على البطانية إلا بعد أذان المغرب.

كان النداء يتم غالبًا في أوقات الطعام. عدد من تُنادى أسماؤهم قليل، أما البقية فيتجهون إلى "شوالة" مليئة بـ "الكُدَم"، يأخذون منها ما يسدّ الرمق ويعودون لتناولها مع الماء. من يملك نقودًا يشتري كأس شاي من مطعم السجن، الذي له نافذتان: واحدة تطل على سجننا، وأخرى على السجن المجاور.

في المساء، نودي باسمي مجددًا. جاء خالي ببطانية وعشاء بسيط: فاصوليا وخبز. ليلتها حُشرتُ في الزاوية، وإلى جانبي تمدد رجل في أواخر العمر، يرتدي فانيلة داخلية ومعوزًا بنيًا، بملامح ساحلية واضحة. كان معوزه مرتفعًا عن فخذه. دون أن يتحدث، شاركني الطعام، ولم أستطع الرفض؛ الخوف كان يقودني.

مرّ الوقت ببطء. لا كتاب لأقرأه، ولا شيء لأفعله. ظل الرجل ينظر إليّ، بين حين وآخر، بنظرة زجاجية صامتة. لم أستطع استخدام الحمّام؛ كان مقززًا، ومعدتي ومثانتي تؤلماني. التوتر انعكس على جسدي ما جعل قضيبي يبدو من خلف الثوب منتصبا ومتوترا، وازداد شعوري بالاختناق.

واصل الرجل النظر نحو الجزء المنتصب في جسدي، ولم أكن قد توجهت إلى الحمام منذ دخولي السجن، رغم تناولي الغداء والعشاء، لم أستطع الصبر، فذهبت وكانت تجربة مقززة.

في الليل، كان الضـــوء خافتًا، لا يغطي المكان كله. الكهرباء تنقطع كما في الخارج. حاولت النوم، لكن كل شـــيء كان غريبًا: الروائح، الأصـــوات، الأجسـاد، الظلام. أغمضـت عينيّ فقط لأفكر. ثم شـعرت بيدٍ تتسـلل تحت البطانية. كانت تتحسّـــس فخذي ببطء. تجمّدت في مكاني. خفت أن يتطوّر الأمر، ولـم أســتطع الكلام. فكّرت أنـه اختبـار آخر. ومع مرور الوقـت، تحوّلت اللمسات إلى ضغط أوضح. أمسكتُ يده لأوقفه، ولأُظهر رفضي، لكنه همس تعبيرًا عن رغبته الملحة:

"جاااوع!"

وأدخل يده في سـروالي الداخلي وشـد شـعيرات عانتي بشـراسـة لأشـد يده بغضب مكبوت، إلا أنه ردها إلى قضيبي مرة ثانية وتوسلت أنفاسه الساخنة وأحسسته يسحب الهواء إلى رئتيه بفجور. بدأ يمسد قضيبي بهدوء، بحركة بطيئة متلذّذة، بينما كنت أكتم أنفاسي وأشعر براحة يده الناعمة تؤدي فعلها. ومع كل دفقة تخرج مني، كان شـــيء ما ينفلت في داخلي؛ شـــيء من الحنق، وشيء من الخوف، وشيء من ثقل اليومين الماضيين.

شـــعرت به يجمع ما خرج مني في راحة يده بشـــغف. ظننت أنه سـيتجه إلى الحمّام ليغسلها، لكنه رفع يده إلى فمه، ولعقها ببطء. بعد ذلك استلقى على جانبه، موجّهًا ظهره نحوي، وغرق في نومٍ عميق، كأن شيئًا لم يحدث.

كانت الســـاعة تقترب من الثانية بعد منتصـــف الليل. بدأ جســـدي يثقل بالنعاس، وهدأت أعصـــابي قليلًا. ربما نمت دقائق، وربما أكثر. فجأة،

اخترق صوتٌ السكون، ينادي باسمي في أرجاء السجن.

تذكّرت ما كنت أسـمعه عن التعذيب في مثل هذه السـاعات. لكنى لم أفعل شيئا. قلت لنفسي:

"أنا رهينة، مجرد رهينة، لماذا ينادونني؟"

خرجت إلى الممرات، والأسـئلة تتدافع داخلي. كانت الإضـاءة خافتة، قناديل صـفراء صـغيرة تجعل الرؤية متعبة. ومع صـعودي الدرج، بدأ شـيء من الأمان يتسلل إليّ؛ فغرف التعذيب، كما كنت أظن، تكون في الأسفل، في العتمة الخانقة حيث لا نور فيها ولا هواء.

تسلّل الأمل مجددًا فسألت نفسي:

"هل سأخرج من هذه الورطة؟ هل انتهى الأمر؟"

تدافعت الصور في رأسي: السجناء، الروائح، العيون، القرية... كل شيء.

وصـلت إلى مكتبٍ بدا مختلفًا تمامًا. لوحة على الباب كتب عليها: "مدير المباحث". كان الرجل بدينًا، أصلع، أسمر البشرة، ووجنتاه تلمعان بصحةٍ واضحة، وشفتاه توحيان بحياة مترفة لا تشبه ما في الأسفل.

- **أيش أسمك؟**
- **سهيل.**
- **حيًّا بالنجم اليماني، تُصلي يا ابني؟**
- **أيوة.**
- **صليت اليوم؟**

- **لا، ما لقيت ماء ولا بقعة طاهرة.**
- **صلِّي بثوب الدم قبل الندم. أنت صورتك ابن ناس، قرأت ملفك، ما عليك شيء، ما عليك شيء.**
- **يعني أقدر أخرج؟**
- **لا، بنستضيفك عندنا قليل، بس حننقلك لمكان أنظف، ما نشتي تخرج لنا مخنوث أو سارق من السجن الذي أنت فيه. يللا روح لك.**

وأشار لي بأن أنصرف.

عاد بي الرجل الذي أحضرني، وساعدني في حمل بطانيتي، وأمرني أن أترك الفرش القديم. انتقلنا من السجن الكبير إلى آخر أصغر. هناك، أعطاني فرشًا إسفنجيًا نظيفًا نسبيًا؛ غلافه سليم، لا تمزّق فيه، ولا آثار لمن سبقني إليه، ولا "فرج" له؛ كان يبدو إسفنجًا بكرًا.

❊ ❊ ❊

السجن

السـجن الثاني أصـغر بكثير من السـجن الأول، لكنه أنظف؛ فأغلب من فيه يمتلكون بطانيات غالية الثمن، وبعضـهم يملك فُرشًـا لا تبدو أنها من السـجن، إذ كان أكثر سـماكة وصـلابة ونظافة. كما أن الصـحون والطناجر المرتبة بجانب كل نائم توحي بوفرة الطعام الذي يدخل إلى هذا السـجن. ومع ذلك، كان ممتلئًا كالسجن السابق. يتكوّن من غرفتين: إحداهما صغيرة الحجم، والأخرى طولية، تشـبه تلك التي كنت فيها، إضـافة إلى حوش مسـتطيل مفتوح السـقف، يمتد لمسـافة خمسـة عشـر مترًا، وبعرض أربعة أمتار. أما الحمّام فكان في آخر الرواق، وعلى بابه سـتارة من نسـيج الخيام، تعطي إيحاءً بالخصوصية أكثر من الحمام السابق.

لم يترك العدد الكبير من السـجناء لي فسـحة أسـتقر فيها، إلا بجانب الحمّامات في آخر الرواق. لم أكن ملتصـقًا بها تمامًا، إذ كان هناك رجل نائم إلى جوار الجدار، وبيننا مساحة تتسع لشخصين. جاءني النوم بصعوبة، لكنه جاء في النهاية، بعد زيارتي لمدير السجن.

اكتشـفت أن الاندماج في هذا السـجن سـهل؛ ففي صـباح اليوم التالي لوصـولي، انهالت الدعوات لمشـاركة الطعام مع هذا وذاك من السـجناء. منهم من وصـله الفول مع الخبز الحار، ومنهم من جاءته فواكه وعنب، وآخرون وصلتهم أطعمة من مطاعم مجاورة للسجن. وخلال وقت قصير،

تعرّفت إلى معظم نزلاء السجن وأنماطهم.

كانت الغرفة الأولى، وهي الأصغر، مخصصة لليافعين الذين أُلقي القبض عليهم في قضايا جنسية، وكان من الخطورة إيداعهم في السجن الآخر مع رعاع القوم وشرار الشباب. أما الغرفة الطولية الكبيرة، فكانت مخصصة لكبار القوم من مدراء وأبناء رجال أعمال وإرهابيين رفيعي المستوى، إضافة إلى متهمين في قضايا كبيرة. بينما كان الحوش الطويل يضمّ أمثالنا؛ شبابًا ورجالًا، بل وحتى كهولًا، تتشابه ملامحنا جميعًا بسمات الطبقة المتوسطة والبساطة.

كانوا ودودين، ثرثارين، ومولعين بمعرفة قصة كل من يدخل هذا السجن. وكما أدركت لاحقًا، كان لكل سجين ثلاث قصص: واحدة يرويها عن نفسه، وأخرى تتداول عنه، وثالثة هي الحقيقية، التي قد تتكشف عند زيارة وكيل النيابة كل يوم خميس لتأكيد الكشوفات.

مع مرور الوقت، عرفت قصة علي ومحمد، وهما أخوان يبيعان العنب والفواكه في باب السباح بصنعاء. دخلا في شجار مع ضابط من قسم جمال جميل بسبب ديون، وتحوّل الشجار إلى عراك كبير، وصل إلى تبادل إطلاق النار. لاحقًا، جاءت الشرطة وقبضت عليهما، ولم تكن التهمة بسيطة؛ إذ كان الضابط، أثناء العراك، يرتدي الزي العسكري، وهي تهمة ثقيلة قد تودي بهما إلى السجن لسنوات. لم يهتم أحد بأن الضابط كان المعتدي، أو أنه كان مخمورًا، أو أنه استدعى زملاءه فكسروا محتويات المتجر الصغير

الذي ظل قائمًا لعشرات السنين. لم يُصب أحد بأذى، لكن الأخوين اعتُقلا، وهما الآن ينامان متجاورين، وتأتيهما يوميًا فواكه من أسرتهما التي أعادت بناء المتجر. لم يكن لديهما محامٍ، وكان والدهما يتابع القضية بلا جدوى.

أما القصة المتداولة عنهما داخل السجن، فتقول إنهما أدخلا فتاة من حي المهمّشين إلى المتجر واعتديا عليها، وأن العراك لم يكن مع ضابط، بل مع مجموعة من رجال ذلك الحي. ولم تُعرف الحقيقة حتى الآن، لأن وكيل النيابة لا ينادي اسميهما عند العرض.

إلى جواري رجل عجوز بدين، يقضي أغلب وقته ممددًا على فراشه. كان يزوره بعض اليافعين من الغرفة المجاورة بين الحين والآخر، يشدّون ثوبه الرمادي وينادونه:

- **هيا يا عم مسعد.**

فيضحك، ويقول إنهم تأخروا ثلاثين عامًا، ولو جاؤوا في الوقت المناسب لأسعدهم أيّما سعادة. أخبرني، خلال جلسة غداء في يومي الثاني، أنه دخل السجن بسبب قضية نفقة؛ إذ طالبت طليقته بنفقة لها ولأولادها، ولم يدفع رغم التزامه بالدفع، فتراكمت عليه النفقة حتى بلغت مبلغًا كبيرًا، فسُجن بسببها.

لكن السجناء كانوا يتهامسون بقصة أخرى، تربط قضيته بسلوكياته مع اليافعين داخل السجن. وقد بلغته هذه الإشاعة، فلم ينفها ولم يؤكدها، بل بدا وكأنه يستمتع بتفاصيلها، خاصة حين يرويها الأخ الأصغر لبائعي

العنب، مضيفًا إليها مشاهد مبالغًا فيها يصعب تصديقها، لا سيما حين يكون بطلها رجلًا في الستين من عمره، يقضي معظم لياليه في لعب الورق.

كان عمي مسعد بارعًا في كل ألعاب الورق التي يعرفها السجناء، ويعلّمهم ما يجهلون منها. يستمر في اللعب حتى ساعات متأخرة من الليل، ثم ينام طويلًا. لم يكن ممن تصلهم وجبات من الخارج، فكان من "الطفيليين" في سجن يقلّ فيه أمثالهم مقارنة بالسجن السابق. وفي ذلك الصباح، كانت عيناي تتجهان نحو بوابة السجن، بانتظار الإفطار.

همس لي علي، بائع العنب الذي توطدت علاقتي به خلال اليومين الماضيين:

- **لا تقلق الصبوح جاي؟**
- **ما أشتيش كُدَم ساع الحجار!**
- **ومن جاب سيرة الكدم؟ إحنا هنا لا نأكل الكدم مثل السجن الآخر حق الصعاليك. كل شيء يأتينا هنا ساخن، بالسمن البلدي وحياتك؟**
- **من أين؟**
- **أول صبوح يأتي من أصحاب "جَدِر". بيتهم في الريف، لكن والدهم كل يوم يأتي إلى المدينة بكل حاجة ساخنة! الناس بتصحى وتستحم وتطبخ وتصطبح، وتجيء من آخر الدنيا قبل أصحاب صنعاء الذين ما يصحوا من نومهم أساسًا، القرية حالية! الآن**

بيدخل علينا خبز مدهون بسمن بلدي مع طاسة "مطيط " مرشوش عليها سـمن بلدي من أروع ما يكون، ويا سـلام لو جاء مع الخبز العادي "مَلُوج بَلْسَـن" أو "جَحينة" ذرة حمراء، بتعمل لي إغماء من طعمها!

- **عادي آكل معهم!**
- **هم أغنياء، وأساسًا والدهم يحضر كمية كبيرة؛ لأنه عارف أن المساجين تأكل مع أولاده. الأب وأولاده كرماء وما يأكلوا إلا والناس حولهم.**
- **أها، اسمع بينادوا اسمه.**

تقدّم الشاب الأكبر سنًا من ابنَي الجدري نحو البوابة، بينما بدأ السجناء النائمون- الذين لم يهتموا بحديثي مع علي، ولا بصوت الجرس الرنّان- يستيقظون تباعًا. أخذوا يتوافدون إلى الحمّام لغسل أيديهم، ثم تجمّعوا في دائرة وسط السجن.

كانت هناك كمية كبيرة من الخبز الساخن، يزيد عددها على العشرين رغيفًا، مدهونة بالسمن البلدي، تلمع وجوهها تحت ضوء الشمس. وبجوارها طنجرة "مَطيط" ما تزال أبخرتها تتصاعد، وعلى سطحها يتموّج السمن السائل كأنه ذهب.

كنتُ جائعًا جدًا، وخجولًا، فلم أقترب من الدائرة التي أخذت تتسع وتزدحم. حتى عندما دعاني أحد الشابين، صاحبي الوليمة، اعتذرتُ. لكنه

لم يقتنع؛ فأخذ رغيفًا وصاح بي:

- **خلاص لا تأكل معانا، خذ! وكل لوحدك!**

ورمى إليّ بالرغيف. كانت رائحته الساخنة، ورائحة السمن البلدي، تُسيل لعابي وتوقظ معدتي. كان طعمه من أطيب ما أكلت في حياتي. خطر لي حينها كم أن أمّ هذين الشابين كريمة، تملك يدين مباركتين، إذ يكفي أن تلمس الخبز ليخرج بكل هذه اللذّة. وشكرت في سرّي ذلك العقيد المتديّن الذي أخرجني من سجن كنت سأتحول فيه إلى مجرد جسد مُستباح، وأرسلني إلى هذا السجن الذي لا يزال يحفظ شيئًا من آدميتي وكرامتي.

خلال الإفطار، سمعت اسمي يتردّد في فم السجّان البدين، عبر النافذة الصغيرة في الباب الشبكي. هرعت نحو البوابة، فوجدت نفسي وجهًا لوجه أمام خالي، لا يفصل بيننا سوى الشبّاك. كنت قد أحضرت الأواني من الداخل، وناولتها للسجّان الذي يقوم بعمله الروتيني: تبادل الأواني الفارغة بالممتلئة لنزلاء السجن. فتحها، وأخرج منها ما اعتبره محظورًا.

لم يكن المحظور ذا قيمة تُذكر؛ مشطًا مثبتًا خلفه مرآة، كسرها السجّان على الأرض، ثم أعاد إليّ المشط البلاستيكي. أما قارورة المشروب الغازي، فأفرغها في قارورة ماء بلاستيكية قديمة التقطها من سلة القمامة أمامه. عدت إلى مكاني دون أن نتبادل أنا وخالي أي حديث.

لاحقًا عرفت أن الأقلام، وكل الأدوات الحادّة أو الزجاجية، ممنوعة من الدخول. وقدّمت إفطاري إلى الدائرة التي كانت لا تزال تلتف حول طعام

بيت الجدري.

كنت أشعر أن وراء كل سجين حكاية تختلف عن كل ما سمعته من قبل، وعن أي قصة لسجين آخر. أدركت أن شغفي بالحكايات لم يكن طارئًا، في وجود هذا العدد من البشر، كلّ يحمل حكايته كما أحمل أنا حكايتي. شعرت أننا نستمتع بقراءة القصص وسماعها، وننسى أن في داخل كل واحد منا قصة، لو رُويت، لكشفت عن شخصيات إنسانية حقيقية، لا علاقة لها بعوالم الجن والعفاريت، ولا بمغامرات خيالية تُختلق للمتعة.

كانت الأسماء ما تزال تُنادى. بعضهم لم يناده أحد، وبعضهم دخل يخفي ما جاءه من طعام أو أغراض، بينما وزّع آخرون ما لديهم على الآخرين. هناك من افترش مكانه في وسط السجن ودعا الجميع لمشاركته، وهناك من ابتعد عنه الجميع، فاتخذ لنفسه مكانًا بجوار الحمّامات. ذلك الرجل يأتيه الطعام إلى حيث هو، من ابنَي الجدري أو من غيرهما، لكنه لا يشارك أحدًا طعامه، ولا يصله شيء من خارج السجن. حتى القات يُقدَّم له من ابنَي الجدري أو من الحاج هادى من صعدة. وهو مشغول معظم الوقت بتنظيف فراشه من البراغيث؛ وهذا ما جعل الآخرين يبتعدون عنه فاختار اللجوء إلى جانب الحمامات بعيدًا عن بقية السجناء.

اسمه حسين. منذ يومه الأول، وهو في حرب دائمة مع البراغيث التي استوطنت فراشه، وتكاثرت حتى صارت تهاجر إليه من الفرش الأخرى. فلسطيني الجنسية. قصته، كما يرويها، أن جواز سفره انتهى، ولم يكن يملك

رسوم التجديد من السفارة المصرية، إذ كان قد نزح إلى مصر قديمًا، واستخرج جوازه منها، ولم يتمكن لاحقًا من استخراج جواز فلسطيني في صنعاء. قبضت عليه الجوازات بسبب انتهاء جوازه، وأُودع هنا إلى أن يُجدد، لكنه لا يملك المال... أو هكذا يقول. بل إن بعضهم يروي أنه، حتى حين جمع له السجناء مبلغ التجديد، أنفقه على القات، ورفض الخروج.

غير أن قصصًا أخرى كانت تتداول داخل السجن، تقول إن روايته كاذبة، وأنه ليس هنا بسبب الجواز أصلًا، فمثل هذه القضايا لها أماكن احتجاز خاصة. وتشير الإشاعات إلى أنه كان يعمل وسيطًا في علاقات مشبوهة، مستغلًا جمال الفتيات ووسامة الشباب، وأنه كان يؤمّن شققًا للقاءات سرية في شقة بجانب مستشفى الكويت.

وقيل أيضًا إن القبض عليه لم يكن ليحدث بسبب علاقاته مع علية القوم، لكنه تورّط مع شخصية نافذة، كانت سببًا في القبض عليه وجعلت خروجه من السجن مستحيلًا. أُشيع عنه أنه وفّر شابًا فلسطينيًا مصابًا بالإيدز لامرأة يمنية متزوجة من شيخ كبير وقائد لواء عسكري في الوقت نفسه، فنقلت المرض إلى زوجها. وعلى إثر ذلك، أُلقي القبض على الشاب الفلسطيني، وقُتل في معسكر زوج المرأة، كما تم القبض على عم حسين، ولم يعد هناك أي مجال لإخراجه.

قيل الكثير، وتضاربت الحكايات، لكن الحقيقة بقيت غامضة. ما عرفته يقينًا أن عم حسين قضى أكثر من سنة ونصف في السجن، رغم أن القانون لا يجيز

بقاءه كل هذه المدة دون إحالة رسمية إلى النيابة العامة التي يمكنها إطالة أمد السجن إلى حدود خمسة وأربعين يومًا، ومن ثم لا بد من إحالة المتهم إلى القضاء، لكن يبدو أن اليد التي أدخلته هنا لم ترغب بإخراجه. حتى وكيل النيابة لا ينادي باسمه؛ وكأن بعض الأسماء تُمحى عمدًا من السجلات.

سألت نفسي: أيّ القصص حقيقية؟ قصته هو؟ أم ما يتداوله السجناء؟

لم أجد جوابًا.

الشيء الوحيد المؤكد كان صمته... والبراغيث التي لا تفارقه.

بدت لي القصص ذات الطابع الجنسي الأكثر انتشارًا داخل السجن؛ كأنها تُختلق لتعويض حرمانٍ ما. لكل سجين قصة من هذا النوع في خيال الآخرين، تُفصّل بحسب شكله، وعمره، وأصله. أما عم حسين، فربما كانت قصته الحقيقية أنه بلا قصة.

في أول خميس لي، حين جاء وكيل النيابة، قال له بوضوح:

"الناس تنازلوا عن حقهم يا عم حسين... ادفع للسجّان ألفين ريال، ويخرجك."

لكن عم حسين لم يبدِ أي رد فعل؛ لم يهز رأسه، ولم يتكلم. كأن الأمر لا يعنيه. وهكذا، وبصرف النظر عن كل الروايات، صار واحدًا من سكان السجن الدائمين.

في الركن الذي يتوسطه الكرسي الوحيد في السجن، كان يجلس رجل ضخم

الجثة إلى حد لافت. يرتدي قميصًا رماديًا مفتوح الأزرار حتى آخرها، تكشف فتحته عن بطنه، وتحتها "مِعْوَز" متّسخ مرفوع إلى ما فوق الركبة. كانت ساقه اليسرى مكسوّة بجبيرة تمتد من الكاحل إلى أعلى الركبة بقليل. له شعر كثيف، ولحية أكثف، وصدره مغطى بشعر أكثر كثافة. يمسك سيجارة بيده اليمنى، بينما تحكّ يده اليسرى حواف الجبيرة في شبه استمتاع.

اسمه ناصر. لكنني، بعد وقت قصير، سأبدأ بمناداته: عمي ناصر.

هو من همدان. وهو- كما سأكتشف لاحقًا- ملك السجن.

رُتبته كبيرة في الجيش، وتحديدًا في الحرس الخاص، ويتبع نجل الرئيس مباشرة، بل يُقال إنه كان من المقربين إليه. وكان من الذين شاركوا بقوة وجسارة في حرب الانفصال، وله وزنه ونفوذه. ومع ذلك، يبقى الجندي جنديًا، مهما خاض من معارك؛ في نهاية الشهر يتقاضى راتبه، وفي جميع أيامه لا يفارقه "الكُدمة والفول". أما عمي ناصر، فيقال إنه كوّن عصابة، ونفّذ عملية سطو على سيارة أموال تابعة لبعض الصرافين اليمنيين، كانت في طريقها إلى البحرين. كانت القضية قد شغلت الرأي العام قبل أشهر، خاصة مع الارتفاع المستمر لسعر الدولار مقابل الريال اليمني، حتى بلغ حينها نحو مئتين وخمسين ريالًا للدولار، قبل أن يستقر لاحقًا عند حدود مئتين وأربعة عشر ريالًا.

بحسب ما سمعته، كان الصرافون يشترون الدولار بأسعار منخفضة، ثم يحولونه في البحرين، ويحتكرون العملة في السوق لرفع سعرها وتحقيق

أرباح كبيرة، رغم أن البلاد لم تكن تمر بأزمة حقيقية تبرر هذا الاضطراب في سعر العملة. في تلك الفترة، استولى عمي ناصر ورفاقه على سيارة الأموال أثناء توجهها إلى المطار. ورغم بشاعة العملية وسقوط عدد من الجنود المرافقين، فإنها كشفت جانبًا من التلاعب في سوق الصرف، وربما أسهمت- بشكل غير مباشر- في استقرار الأسعار لاحقًا، بعد أن تدخلت البنوك وضخّت العملة في السوق، فانكسر احتكار الصرافين، وعاد التوازن نسبيًا وهدأت أوضاع اليمنيين الذين كانوا يعانون من الارتفاع المتزايد لأسعار الصرف عند ذهابهم للعلاج في مصر والأردن والهند وغيرها من الدول.

تقاسمت العصابة الأموال، لكن بعض أفرادها لم يحسنوا إخفاء آثار الثراء المفاجئ. أحدهم اشترى سيارات، وتصرف كأنه شيخ، وعيّن حراسًا مسلحين يرافقونه، وأنفق ببذخ لافت، خصوصًا في عدن، حيث أقام حفلات صاخبة وصرف مبالغ طائلة في وقت قصير. كان ذلك كفيلًا بإثارة الشبهات، فقُبض عليه، ولم يلبث أن دلّ على بقية أفراد العصابة، الذين كانوا يخفون الأموال انتظارًا لنسيان القضية.

بعيدًا قليلًا عن موضع نومي، كان ينام الحاج ناصر، رجلٌ لا يكاد ينقطع عن تلاوة القرآن ليلًا ونهارًا. تهمته أن ابنه كان أحد أفراد العصابة، وقد أنفق نصيبه من المال بسرعة لتهريب نفسه خارج البلاد؛ استخرج جواز سفر، وسافر إلى مصر خلال يوم واحد، ومنها حصل على تأشيرة إلى لندن، ثم

انقطعت أخباره تمامًا. كان الأذكى بينهم، لكن والده يدفع الثمن الآن، فهو محتجز كرهينة حتى يظهر الابن أو يُعرف مصيره. ورغم ملامح الوقار والصلاح التي تبدو على الحاج ناصر، لم يسلم هو الآخر من الحكايات الجنسية الملفقة؛ ففي السجن، لا تكاد قصة تخلو من ظلال الشبهات، وغالبًا ما تُصبغ بطابع واحد.

***

وبينما كنت أملأ يومي الأول في السجن بهذه القصص حان وقت الغداء. ورغم أن الغداء الذي وصلني لا يقارن بغداء بيت الجدري، لكنني أصريت أن أشاركه مع صديقي صاحب الحكايات. ومع مرور الوقت بدأت أشعر أن هذا السجن أقل قسوة مما توقعت؛ الطعام يأتي، وهو أفضل حتى من غداء ورشة النجارة مع العمال، والرفقة أفضل، وحتى القات متوفر. خطر لي أن البقاء هنا قد يكون أهون مما كنت أظن؛ فما المانع أن أظل هنا إلى الأبد!

كان الغداء الذي وصلني من خالي؛ قليلًا من الخضار المطبوخة، وبعض الأرز، وقليلًا من الخبز. ومع ذلك، اقتسمته مع أحد الأخوين بائعي العنب. أخبرني باسمه أخيرًا ونحن نأكل؛ علي. كنت قد أمضيت يومًا كاملًا أناديه "يا أخ"، رغم أنه كان قد عرف قصتي كاملة في الصباح. بدا أنه يفضّل الاستماع وجمع الحكايات أكثر من أي شيء آخر.

ورغم أنني لم أشبع، حاولتُ أن أستدرجه إلى قصّةٍ جديدة، لكنّه كان مشغولًا بالنظر إلى ابنَيِ الجدريّ وهما يجهّزان غداءَهما. كان أمامهم إناء

فخاري كبير ممتلئ بـــ "الفَتُوت"؛ خبز مطبوخ بالسـمن والمرق والبيض، وإلى جانبه خبز آخر شبيه بخبز الصباح، لكن بلا سمن هذه المرة، إضافة إلى إناء آخر يحوي "سَلْتة" تفوح منها رائحة لاذعة وشهية.

كانت رائحة الطعام أكثر إغراءً من الحكايات. فاندسسنا بين الجموع لنأكل مرة ثانية. وبعد قليل، وصـل طعام جديد: أرز مضـغوط مع قطع من لحم الغنم، في زنبيل أسود كبير، كأنه خروف كامل. سكبه صاحبه- عمي هادي- في الإناء الفخاري بعد أن أفرغه السـجناء، فتسـابقت الأيدي نحو اللحم. هكذا بدت الحياة تتحسـن، مقارنة بالسـجن السـابق، حيث قطعة الخبز اليابسة هناك ذات قيمة.

***

عمي هادي من صعدة، وقد تعرّفت إليه منذ الصباح. يدور في ساحة السجن باستمرار، من التاسعة حتى العاشرة، لا يهدأ. ثيابه بيضاء نظيفة، وصلعته لامعة، وملامحه تحمل وسامة واضحة، مع سُمرة الصحراء التي تضفي عليه هيبة، وهدوءً يشبه صبر الجمال.

بعد أن غسـلنا أيدينا من آثار الطعام، جذبت عليًّا نحوي مرة أخرى، إلى مكاني وقلت له:

- **يوجد غني آخر في السجن.**
- **كلهم هنا أغنياء، هذا الذي جاء له الغداء، اللحوم والأرز، هادي، ليس غنيًا، هو من صـعدة، قيادي في جماعة هناك قالوا إنها تحارب الحكومة ويسمون أنفسهم "أنصار الله".**

- ليش ما يأخذوه إلى الأمن السياسي؟
- مدري! يمكن ما عنده معلومات أو معه ناس أقوياء أو بسبب ثروته بيوفروا له كل هذا الأكل الفخم. عمي هادي كريم قوي، لا يأكل وجاره جائع؛ فهو يتقاسم كل شيء يأتيه للسجن مع الآخرين، ودائما يقول: إننا لو حضرنا إليه في بيته لذبح لنا كل يوم حتى يقضى على كل ثروته.
- أكله لذيذ.
- بيجى له كل يوم مثل هذا، وفي بعض الأحيان أكثر، قال: إنه أخبر سيده بالمجاعة في السجن وسيده يحب فعل الخير وأصحاب صعدة عموما كرماء!
- ما شاء الله.
- "حماتك بتحبك"، لأنك أتيت هذا السجن، لكن عمي هادي مسكين؛ أحيانًا تأتيه نوبة صرع وكل من في السجن ما يقدروا يمسكوه، علشان لا يوجع نفسه؛ فهو قوي.
- كلهم أعمامك؟
- عتعتبرهم هكذا مع الأيام صدقني!
- وذلك الشاب؟

من؟ أها، الجمرة. شخص رائع، عقل يا أخي، معه عقل! معه عقل يوزن بلد، هو هكذا دائما؛ يده تحكك لحيته. هو مش متعود على

اللحية. قصته- على لسانه- أنه معتقل سياسي... مش عارف كيف هذا يسبر، إذا كان معتقل سياسي ليش ما يودوه الأمن السياسي! هو يقول إنه يكتب في الصحف الحزبية، وقبل مدة كتب مقالات عن عثرات حرب الانفصال وما فعلته حكومة الشمال من نهب للجنوب أيام الحرب... نهب الأراضي، وقضايا ثانية مثل قضية المتقاعدين والمبعدين وقضية صعدة وغيرها... غضبت الحكومة عليه وأرسلته إلى هنا، كما يقول، لكن الناس مش مصدقة. أما القصة المنتشرة عنه في السجن أنهم قبضوا عليه في الشارع وهو سكران، لأنه كان متعود في عدن يشرب الخمر، وهو نفسه لا ينكر أنه يحب الخمر، وإذا تحدثت معه عيحكي لك عن مغامراته مع الخمور الأجنبية والبلدية ويشكو لك، كما يشكو للجميع ارتفاع أسعارها! عن نفسي أعتقد قصة الخمر هي الأصح، هو طيب ومن عائلة عريقة.

- هل كل حكايات السجن جنسية؟
- هههه أنت وسيم جدا وعضلات، خلينا نشوف ما سينسج حولك من حكايات!
- قد معي حكاية داخل السجن؟!
- أنت وسيم، وجسمك رياضي، وأي حكاية عنك ستكون من هذا النوع.

- **الله يقلعك، وبقية السجناء؟**
- **هناك المراهقون، يسكنون الغرفة الخاصة بهم ولا يدخل أحد عليهم، فقط يشاركوننا الغداء. وقصتهم الخمسة جميعا واحدة، وليس هناك قصة حقيقية وأخرى كاذبة. أمسكوا بكل واحد منهم وهو تحت شاب أو رجل. هذه هي عائلتك الجديدة، ما رأيك؟**
- **عائلتي، هذه ليست عائلتي!**
- **ليش خفت؟ أنا أعتبرهم عائلتي، وعيجي يوم تعتبرهم عائلتك. وصدقني عندما تخرج عتكون أكثر حزنا منك عندما دخلت.**
- **سأخرج اليوم أو غدا، أنا رهينة وسيحضر شقيقي من المعسكر قريبًا. لن يتركني هنا.**
- **تحلم! أحلف لك على المصحف أنك ما بتخرج قبل شهرين على الأقل!**
- **لا تحلف.**

وابتعدتُ عنه؛ فقد كان في حديثه من الثقة ما أربكني وشتّتني. لم أكن أعرف حينها أن هؤلاء السجناء سيغدون عائلتي فعلًا، وأنني سأحبهم أكثر من عائلتي. لم أكن أعرف سوى بعض قصصهم التي رواها لي علي، بائع العنب؛ وربما كانوا الأقرب إلى نفسه، أو لأنهم أبرز الشخصيات وأهمها في السجن الجديد الذي دخلته. أما الباقون، فكانوا- في العموم- على شاكلة سجناء السجن الآخر: لصوصًا، وسكارى، وأفراد عصابات. ومع ذلك،

أحسستُ أن القصص التي يروونها عن أنفسهم أقرب إلى الحقيقة؛ فقد كانت حكايات السجن ذات طابع جنسي صادم، إلى حدّ يصعب معه تصديق حدوثها في بلد محافظ كاليمن.

ربما كنتُ مخطئًا، وربما توجد حقًّا مثل هذه التصرفات. لكنني لم أستطع تقبّل فكرة أن يصبح السجين كاذبًا في كل ما يقوله. هل نمارس حكمًا جائرًا على أنفسنا وعلى بعضنا، حتى قبل أن يقول القضاء كلمته؟ تذكّرت حينها عبارة كنت أسمعها في المسلسلات: "المتهم بريء حتى تثبت إدانته"، وها نحن ندين أنفسنا، حتى ونحن نعلن براءتنا. بل إننا، حتى لو أقسم السجين على صدق حديثه، ننسج له حكايات نريدها أن تلتصق به؛ فتلك هي الحكاية التي نرغب في تصديقها.

***

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس قد اشتدّت وتمدّدت على أرض السجن. أسعد ذلك هادي، ابن صعدة، فراح يطوف الساحة بسرعة كبيرة، في دائرة تُشعر بالدُّوار. وكما اعتدتُ منذ دخولي السجن، تناولتُ إفطاري الذي أحضره لي خالي باكرًا، ثم شاركتُ بيت الجدري إفطارهما. كان لوصول طعامهم دورٌ في إيقاظ اللصوص و"الشواذ" والفقراء الذين لم ينهضوا على صوت الجرس المزعج. أمّا صديقي علي وشقيقه البدين، أحمد، فلم يستيقظا إلا قبيل الظهر بقليل.

بدأ علي يُظهر الطاعة والولاء لشقيقه الأكبر؛ فأحضر له الشاي من مطعم

السجن، مع خمسة ساندويتشات كبيرة من البيض والجبن. لم يأكل هو سوى اثنين، بينما التهم ذلك "الحوت" الباقي. كان شقيقه بدينًا بحق، أفطس الأنف، يضع نظارة بعدستين سميكتين، وشعره أشعث لم يعرف المشط طوال مدة السجن. أكل الاثنان إفطارهما دون أن يغسلا وجهيهما أو أيديهما، وما إن انتهى البدين تجشّأ بصوتٍ سُمِع في السجن المجاور، وصاح:

- **ياه، الغرفة حقنا جيفة، الهواء فيها فاسد، طاط، طاط، طوال الليل!**

صاح عمي ناصر وهو يحك حافة الجبس:

- **اخرج منها يا ملعون وهي تصبح جنة! عمري ما شفت واحد يشخر من فوق ومن تحت إلا أنت، طول الليل، خخخ، طيييط، ولا واحد في الغرفة قدر ينام أمس منك. ما كذب المثل الذي يقول: "لا تبلي القحبة حتى لا تبليك، وترد ما فيها فيك".**

وانكمش البدين حتى كاد يختفي. لم يكن يستطيع الرد على عمي ناصر؛ فهو، وإن بدا مكسورًا، ما يزال محتفظًا بهيبته وقوته. كان يتعامل معنا وكأننا في معسكر، حتى نكاد نكرهه في بعض الأحيان، لكن هيبته تلك كانت- في كثير من الأحيان- كفيلة بحلّ معظم مشكلات سجننا قبل أن تصل إلى الإدارة.

تعرّفتُ إلى فريد، الذي كان يعمل مديرًا عامًا لأحد أفراد العصابة، محدث النعمة. استيقظ بهدوء، وذهب إلى الحمام بهدوء، وخرج منه بهدوء، ثم

تناول مربّى الجزر من علبة بلاستيكية صغيرة بهدوء؛ وكان ذلك كل إفطاره. ولم يبقَ في السجن أحد نائمًا سوى جمال القباطي، الذي يسهر حتى الفجر. لم يخرج أحد من سجننا، الذي أصبحت أسميه "سجننا الأرستقراطي"، لكن دخل إليه عدد قليل من السجناء الجدد. كانت إدارة السجن تختار أن تودع فيه من لا نزاع شديد لهم مع القانون، أو من هم كبار في السن أو المقام، وكذلك المراهقين.

كان أول الداخلين نحو الرابعة فجرًا: شاب في أواخر العشرينات، وجهه أملس بلا شعرة واحدة، متين البنية، وسيم الملامح، يرتدي زيًا موحدًا؛ وربما كان حارسًا في مبنى ما خارج السجن. أما الثاني فكان في مطلع العشرينات، يرتدي ملابس سوداء، ألقى السلام، ودخل الحمام، ثم خرج إلى الساحة. كان يرتدي بنطالًا وقميصًا أسودين شفافين، تبدو من تحتهما فانيلة سوداء. والثالث نحيفٌ طويل القامة، في عينيه مكر، ويزيد أنفه المعقوف من ملامحه الثعلبية. منذ لحظة دخوله، تمدّد تحت الشمس، مباعدًا بين ذراعيه وساقيه، كقطٍّ ضخم يستحم بأشعتها. لم يبدُ عليه الخوف؛ بل أخذ يسلّم بصوت عالٍ، ويتنقّل بين السجناء ضاحكًا، يتحدث مع هذا وذاك.

تفرّق السجناء الثلاثة الجدد في أماكن متباعدة، ينتظرون ما سيجلبه لهم أهاليهم من فراش وطعام ونقود. بدا الخوف واضحًا على وجه الشاب الوسيم منذ دخوله؛ فانزوى في زاوية فارغة. وكان هو أول من خرج

ليستجوبه "الأبرص"، وتأخر هناك حتى نمنا. وحين عاد ليلًا، لم تكن أسرته قد أحضرت له طعامًا أو فراشًا- وربما لم تكن تعلم بوجوده في السجن- فأعطاه ابنَا الجدري بطانية زائدة، فتدثّر بها ونام.

أما الشاب الآخر، ذو الملابس السوداء الشفافة، فدخل التحقيق سريعًا وخرج سريعًا، يمشي بخفة. كان يحمل بطانية مهترئة، ويبدو أنه لم يتعرض لتعذيب. وما إن رآه عمي مسعد حتى صرخ مبتسمًا:

- **يهنأ، شبعت يا روحي!**

ابتسم الشاب ابتسامة خجولة، ولم يهتم بأحد، ولم يهتم به أحد.

نمتُ، ولم أستيقظ إلا في الصباح على صوت الجرس المزعج. لعنتُ نفسي مجددًا لاختياري تلك البقعة الواقعة تحته مباشرة. انتظرتُ أن يُنادى باسمي، أو على الأقل باسم ابنَي الجدري؛ فقد كنت جائعًا. بدأ السجّان بالنداء اليومي المتكرر لأسماء السجناء، يخرج كل واحد إلى الممر ثم يعود إلى الساحة. وكما في الأمس، أكلت أربع مرات إفطارًا بنكهات مختلفة؛ بعضها من بيوت السجناء، وبعضها من المطاعم المجاورة للمباحث.

شجَّع ابنَا الجدري الشاب الجديد على التقدّم للإفطار. تقدّم بحذر، ودخل الدائرة المتحلقة حول الإفطار الريفي الشهي. كانت آثار التعذيب واضحة على معصميه وكاحليه. لم يسأله أحد، لكنه هو من بدأ بالكلام:

- **أنا حارس مبنى مستشفى، وقوانين المستشفى تمنع إدخال الأسلحة النارية أو "الجنابي" أو الخناجر. هناك كشكٌ مخصّص لحفظ**

الأمانات عند بوابة المستشفى، لكنه كان مغلقًا أمس. أعطاني أحد الزوّار جنبيته- وكانت غالية الثمن جدًا- لأحتفظ بها حتى يخرج من زيارة قريبه. دسستُها في خصري وعدتُ إلى عملي، لكنه تأخر. في تلك الأثناء وقع شجار عند بوابة المستشفى بين شابين على دراجتين ناريتين مع أحد الزبائن، فتدخلتُ لفضّ العراك. هرب الاثنان، ولمّا تحسّست خصري لم أجد الجنبية. خرج الزائر، فاكتشف ضياعها واتهمني بسرقتها، فأحضرتني إدارة المستشفى إلى هنا.

همس صديقي علي، بائع العنب:

- هذه القصة التي يرويها لن يصدّقها أحد. سيتهمونه بأنه يقدّم خدماتٍ جنسية لممرضات المستشفى. هو شاب قوي، سيتحمّل التعذيب حتى يخرج من السجن.
- الله يقلعك، والله إنك واحد وسخ، هههه، يعذبون قوي في الداخل؟
- "الأبرص" حُجّة في التعذيب، ومرجع في العنف. يعرف تضاريس كل مؤخرة سجين مرّت على هذا السجن أو السجن المجاور. لا يعذّب إلا وهو سكران، حتى لا تأخذه بالمساجين شفقة. والخمور يأخذها من المضبوطات التي تصادرها المباحث من المورّدين. يقول أغلب من عذّبهم إنهم يستنشقون الخمر التي يشربها وهم ما يزالون خارج الغرفة.

- والتعذيب؟
- أنواع. حتى الآن لم أتعرض لتعذيب، لكن المعروف: حرق بالسجائر، لطم، ضرب، سبّ للأم والأخت، تعليق على الحديد... التعذيب الذي يعرفه الناس جميعًا؛ لا يحتاج إلى عبقرية يا سهيل. أمّا المراهقون في الغرفة المجاورة، فعذابهم معروف؛ فالعساكر محرومون أكثر من السجناء، ولا بدّ من تعذيب مراهق أو اثنين كل ليلة في ممر أو حمّام!
- لكن مدير السجن متدين، وقال لي أن أُصلي وأنه سيراقبني.
- معروف أنه متدين. قالوا إنه من حزب الإصلاح، وجاء بـ "إصلاحاته" منذ اليوم الأول! لكن ليس كل ما يدور في السجن يصل إليه. يا حبيبي، حتى صاحب البيت لا يعرف ما يفعله أبناؤه إلا بعد سنوات- وربما لن يعرف أبدًا- فكيف بسجنٍ فيه كل هؤلاء؟ ثم أين ذهب الشاب صاحب القميص الشفّاف أمس؟ يتعذّب؟! هل يرجع أحد من التعذيب وهو يطير على البلاط؟ لا بد أن عسكريًا خفيف دم "خفّف دمه" حتى صار خفيفًا!
- ربما هذه إشاعة جنسية عنه غير صحيحة.
- أبدًا، كل الإشاعات قد تكون خاطئة إلا هذه. انظر إلى عينيه؛ تكادان تأكلان صدر عمي ناصر... أو رياض، حارس المستشفى. لو كان بيد صاحب القميص الشفّاف، لقفز عليه ولحسه من أصابع قدميه إلى قمة رأسه من شدّة الشبق!

نظرتُ إليه؛ كان رياض أبيض البشرة، متناسق الجسد، يرتدي فانيلة داخلية تكشف جزءًا كبيرًا من صدره وأعلى كتفيه، وسروالًا أبيض قصيرًا جدًا يُبرز فخذيه. وربما لم يكن يدري أنه بهذه الهيئة جعل الجميع ينظرون إليه؛ بعضهم برغبة، وآخرون بشفقة.

***

بعد الإفطار، جلس كلٌّ في مكانه يتحدّث مع جاره. وحده عمي مسعد كان على فراشه ثلاثة من المراهقين، يبدأون يومهم بمشاكسته، يغمزون له ويصيحون باسمه بدلال:

- **هيا يا عم مسعد ندخل الغرفة؟**
- **تأخرتوا قوي، لو جيتم قبل عشرين سنة كنت عملت لكم الثلاثة جلسة واحدة.**

ينفجرون ضاحكين، يمازحونه ويمازحهم، ثم ينصرفون إلى غرفتهم المنعزلة بعد أن أخذوا نصيبهم من الشمس.

من بين العيون التي كانت ترصد تلك المداعبات البريئة، عينا الشاب الثالث الذي دخل أمس، اسمه "عريف". بعينيه المملوءتين دهاءً، كان يدقّق في كل شخص داخل السجن، لكنه ركّز أكثر على المراهقين والعجوز. لم أكن قد عرفت قصته، ولم أسأل عنها صديقي علي، بائع العنب. وهو أيضًا لم يروِ حكايته، رغم أن السجناء غالبًا ما يفعلون ذلك في اليوم الأول أو الثاني من دخولهم؛ يروون ما حدث، أو ما يريدون للآخرين أن يصدّقوه.

لم يهتمّ بي، ولم أهتمّ به. ومرّ اليوم كما مرّ الأمس: غداء أول، فثانٍ، فثالث، فرابع... ثم القات، ثم دخول الجندي في آخر النهار لعدّ السجناء، ثم طعام العشاء الأول فالثاني، وبعد ذلك النداء بالأسماء للتحقيق والتعذيب.

كان أول الخارجين عريف، وعاد بعد نصف ساعة. ثم جاء النداء باسم عمي مسعد. اندهش؛ فهو- كما يقول- مسجون في قضية نفقة رفعتها عليه زوجته، ولم يُنادَ عليه للتحقيق منذ دخوله! لا يُنادى عليه حتى للطعام. ومع ذلك لبّى النداء.

لم يعد إلا في صباح اليوم التالي. كنا قد استعرنا أوراق اللعب من تحت وسادته، ولعبنا بها أنا وعلي طوال الليل. وما إن دخل، حتى اتجه مباشرة نحو عريف، فقد صار المتهم الأول في نظره؛ لأنه كان آخر من خرج قبله للتحقيق، وهذا- برأيه- يعني أنه قدّم معلومات لإدارة المباحث عن "أنشطته" مع المراهقين.

صفعه، فردّ الشاب الصفعة، واشتَبكا سريعًا. تدخّل السجناء لفضّ العراك، وكنتُ بينهم.

صرخ عمي مسعد:

- **جاسوس، ما أدرى الإدارة انني أضحك مع العيال، هم مثل عيالي، يا كلب، مثل عيالي يا بن القحبة، أنا عمري ما فكرت بهم تفكير غلط، عذبوني أمس وهم يقولوا، بطل يا مسعد وخلي الأطفال لحالهم، أنت الذي قلت لهم، من قال لهم!**

كان الجميع يشـكون في ذلك الشـاب، وقد تأكّدت شـكوكهم الآن. حتى جيرانه في المنام ابتعدوا بفرشهم عنه بعد العراك. وبدأ الكل يتساءلون: كيف اندمج خلال يومين فقط مع معظم السـجناء! وتحدّث معهم عن قضـاياهم، وعرف قصصهم الحقيقية أحيانًا؟ هو الوحيد الذي ظلّ يراقبهم بعينيه طوال الوقت، والوحيد الذي خرج خلال يومين متتاليين أكثر من سـبع مرات. بدأ السـجناء يتجاهلونه، وربما كان ذلك سـببًا في أنه لم يبقَ حتى نهاية النهار، فخرج... وربما نُقل إلى السجن المجاور.

عند خروجه، توكّأ عمي ناصر على عكّازه، وشيّعه بفراشه إلى بوابة حوش السجن. وما إن غاب، حتى بصق خلفه بصقةً خضراء كثيفة، من أثر القات في فمه، ثم عاد إلى مقيله بهدوء، دون أن ينطق بكلمة. وكذلك فعل بقية السجناء؛ كانت تلك البصقة كافية لوداعه.

***

بدأ يومي السـادس في السـجن. كوَّنت علاقات طيبة مع عدد من السـجناء، وبدأت أنادي بعضهم بـ "عمي"، وخصوصًا عمي فريد؛ مدير أعمال أحد محدثي النعمة في العصابة المتهمة بقطع الطريق على سيارة الأموال المتجهة إلى البحرين. كان قد أعطاني بالأمس علبة مربّى الجزر، وأهداني اليوم واحدة أخرى، وهي مما ترسله له زوجته مع طعامه.

تعرّفت أيضًا على معظم سـجناء الغرفة الكبيرة، من كبار القوم. أما نحن، سكان حوش السجن، فقد صرنا كالعائلة الواحدة؛ نأكل معًا، ونلعب الورق

ليلًا. كما تعرّفت على المراهقين في الغرفة الصغيرة، وعلى رأسهم يوسف، الذي يظل يحوم في الحوش، لا تغفل عيناه عني، فإذا التقت نظراتنا طأطأ رأسه خجلًا. كانت نظرته صامتة، مزيجًا من إعجاب وحياء. ومنهم أيضًا فادي، وناصر، وأكرم، وخالد؛ جميعهم في سن متقاربة، أكبرهم لا يتجاوز السادسة عشرة.

انتبه صديقي، بائع العنب، إلى تلك النظرات، وهمس لي صباح اليوم السادس، وهو يتشمّس:

- **لو لقاك لوحدك عيفترسك. عمي ناصر، يقول إنه تفوق على والدته في النوم مع الرجال!**
- **أنا مش من هذا النوع. عشت داخل منجرة ثلاث سنين ما لمست أحد ولم يلمسني أحد، الحمد لله.**
- **وحتى لو أنت تحب هذه الحاجات، أنت في المباحث والمراهقين هنا للجنود فقط، شفت كيف عملوا بعمي مسعد أمس وكيف دخل علينا وهو مجنون من التحقيق والتعذيب!**

فجأة، خرج جمال القباطي من الغرفة الكبيرة، يحمل عددًا من مجلات "سيدتي" و"زهرة الخليج". كان يمزّقها بعصبية، ويرمي صفحاتها على أرض السجن، ويوزّع بعضها على السجناء. كان يرتدي فانيلة رمادية وسروالًا قصيرًا ضيقًا، يضغط على مؤخرته. أهداني صورة لإليسا، صدرها البارز أشعل في داخلي شيئًا. وما إن انتهى من توزيع القصاصات، حتى عاد

إلى فراشه، وغرق في نوم عميق.

همستُ في أذن علي:

- **ماله! سكران؟**

أجاب بثقة العارف:

- **هو يرقد جنبي في الغرفة، لو أدخل خمر إلى السجن كنت عرفت. يقدر يفعل ذلك، ولكن لا أحد يقدر أن يقدم له الخدمة من الخارج، خصوصا أن والده تجاهله وطلب من كل من يعرفه تجاهله ليتأدب. ممكن يكون مشتاق للنساء والخمور كما تعود منذ شبابه فهو هنا منذ وقت طويل. هو فقط يأخذ بعض الحبوب المخدرة والرخيصة، تدخل له مع ثيابه فينام طوال اليوم والليل.**
- **والمباحث ما بتعرف؟**
- **عارفين وساكتين وقد أعطاهم فلوس، والدته هي الوحيدة التي تجاهلت كلام والده وتغرق ابنها بالنقود وكل شيء.**

أومأت موافقًا، وعدت إلى فراشي لأعد أيامي التي قضيتها هنا. أمضيت ستة أيام هنا دون أن يزورني أبي أو أمي. وحده خالي يأتي بالأخبار والطعام من بيته في صنعاء، وأحيانًا يرسل أحد أبنائه.

فكرت أن أبي ربما خاف أن يزورني، فيُحتجز معي. تذكرت أمي، وورشة النجارة، وأصدقاء الدراسة... ربما لا يعرفون أنني هنا، وربما لن أستطيع دخول الامتحانات بعد ثلاثة أشهر. حينها فقط، أدركت أنني لم أحظَ يومًا

بصداقة حقيقية. حتى الآن، لم يطرق باب السجن أحد من أصدقائي الكُثر!

***

كانت حادثة جمال القباطي هي الأبرز في ذلك اليوم. مرّ النهار هادئًا كعادته، حتى التاسعة مساءً. ورغم أنني لم أعد جديدًا، وأوشك على إتمام أسبوع دون تحقيق، إلا أن بعض الأمور كانت لا تزال غريبة عليّ، لولا وجود صديقي بائع العنب الذي يفسّر لي كل شيء.

بدأنا لعب الورق: أنا، وعلي، وعمي مسعد، ورياض، حارس المستشفى، كل اثنين في فريق. فجأة، دخل الحاج ناصر، الرهينة، وهو يصرخ ممسكًا بالمصحف:

- **هادي أصابته النوبة!**

كان علي أول من ترك الورق، وصفعني على كتفي لألحق به. دخلنا على عمي هادي، وهو يرتجف بعنف، واللعاب يسيل من فمه. كان القباطي ممددًا بجانبه، يراقب بهدوء، مسندًا رأسه إلى كفّه، وأشار إلينا أن نُمسكه. أمسك علي وآخرون بيديه، بينما أمسكنا أنا ورياض برجليه. ووضع الشاب ذو قميص الشيفون كفّيه على صدره، كأنه يحاول تهدئته. مرّ وقت طويل، شعرت فيه بالإرهاق وأنا أُحكم قبضتي عليه. كانت النوبة عنيفة، يتقوّس جسده بقسوة، بينما الحاج ناصر يمسك بصدغيه ويقرأ عليه سورة "يس".

انتبهت فجأة أنني أناديه "عمي هادي". وكنا، نحن شباب السجن، نحاول ردّ الجميل له؛ مقابل ما كان يقدّمه لنا من طعام كل يوم.

انتهت النوبة أخيرًا، لكن يدي ظلّت ترتعش... لا أدري أكان من شدّة الإمساك، أم من الخوف، أم من الحماسة. وبعد دقائق، عادت النوبة من جديد. عندها أشار عمي ناصر بعكازه نحو البوابة وقال:

- **لا أحد يمسكه، ما عنجلس طول الليل نمسك صاحب صعدة، استدعوا المباحث يسعفوه.**

ذهب عمي فريد إلى البوابة، وتحدث مع السجّان. حملنا عمي هادي إلى الخارج، ليتسلّمه الجنود. ولم يكن غريبًا أن يكتفي القباطي بالمشاهدة؛ فقد اعتاد الجميع على لامبالاته إزاء كل ما يحدث. وحين خرجنا من الغرفة الكبيرة، دفع عمي ناصر بعكازه في مؤخرة الشاب صاحب قميص الشيفون، وهو يصيح:

- **طيبت نفسك! يهنأ!**

صباحًا، صحوتُ- كما هي العادة- على صوت الجرس اللعين. مارستُ روتيني اليومي: غسلتُ وجهي، ثم تناولتُ الإفطار... أو بالأحرى "الإفطارات". وفي منتصف الصباح، دخل علينا جنديان، يمسكان بامرأتين منقّبتين؛ ترتديان عباءتين سوداوين، مع طلاء أظافرٍ أحمر فاقع، وكحل كثيف يحيط بالعينين، وقرقعة كعوبٍ تُصدر إيقاعًا أشبه بالموسيقى.

سارع رياض إلى ارتداء فانيلته الداخلية، فقد كان الوحيد الذي يكتفي بسرواله الداخلي، منشغلًا بالبحث عن القمل في ثيابه. أمّا عمي ناصر، فكان يحكّ حواف الجبس في فخذه، ثم امتدّت يده ليحكّ موضعًا آخر وهو يصيح

في العسكر:

- **هذه هدية الليلة يا عصفر!**

ظننتُ أن المرأتين جاءتا لزيارة هادي أو القباطي، فالتفتُّ إلى عمي مسعد وسألته:

- **من تزور هذه النسوان؟**
- **أنا مش شايف أي نسوان!**
- **شفتهم يا عم مسعد، حرام عليك.**
- **يا أهبل، يا ابن الأهبل! هؤلاء رجال. كثير من الرجال يلبسون ثيابًا نسائية، يذهبون إلى الأعراس ليسرقوا الأحذية، أو شواذّ يغرون الرجال على أنهم نساء. أنا أعرف المرأة من بعيد يا سهيل؛ أشمّ رائحتها فأعرف لونها وشكلها وصوتها... وهل هي بكر أم لا!**

كان الموقف مضحكًا، ورسم ابتسامة صادقة على وجهي، للمرة الأولى منذ دخولي السجن. صحيح أنني ضحكتُ كثيرًا في الأيام الماضية، لكن ابتسامة ذلك اليوم كانت مختلفة؛ كانت ابتسامة التكيّف، وبداية الاندماج مع هذا العالم، ومع السجناء. أدركتُ صدق ما قاله علي، بائع العنب: أنني سأبقى هنا طويلًا، وأن هذه "العائلة" ستصير عائلتي بدلًا من تلك التي تركتني رهينةً إنقاذًا لأخي وأبي.

***

في سـري، شـكرتُ كثيرًا مدير المباحث الذي دفعني إلى هذا القسـم من السـجن، بين هؤلاء. ولم أكن قد اسـتدعيت بعد إلى ذلك الركن البعيد المظلم، حيث يجلس "الأبرص" المخمور منتظرًا ضحاياه ليعذبهم.

ليلًا، سُـمِع فجأة نداء باسـمي. كان أول نداءٍ يأتي في هذا الوقت. تسـلّل الخوف إلى صدري: هل حان دوري؟ هل سيبدأ "الأبرص" ليلته بي؟

نظرتُ بخوف إلى رفاق اللعب، طرحتُ أوراقي على الأرض، واتجهتُ مسرعًا، والخوف يملؤني. لم أكن مهيّأً لتحقيقٍ أو تعذيب؛ فأنا لا أعرف شيئًا عمّا حدث. لكن ما إن رأيتُ خالي خلف الشـبّاك الحديدي، حتى تنفّسـتُ الصعداء. لم ينتبه لارتياحي، وأشار إلى رجلٍ بجانبه، تبدو عليه رتبة لا بأس بها:

- **هذا الأخ عاصم، كان زميلي في المعسكر، ويعمل هنا. وقد أوصيتُه عليك.**

كانت لكنة عاصم عميقة، كأنها تخرج من بئر، وهو يشدّ زيه العسكري على بطنه:

- **كيف أمورك؟ عذبوك، اسـتجوبوك، ينادوك في أوقات متأخرة؟ إذا احتجت لشـيء قل للحارس يناديني أو يتصـل بي لو مش موجود وأنا أشـوف أمورك. خالك حيروح القرية وأنا قد أوصيت العسكر ينفعوك، ويشتروا صبوحك وغداك هذه اليومين.**

اكتفيـتُ بهزّ رأسـي، مؤمِّنًا على كلامـه. وحين ابتعـد قليلًا ليتحـدث مع

السجّان، اقتنصتُ الفرصة وسألتُ خالي بسرعة:

- **كيف أمي؟ كيف أبى؟ ماله أخي ما يسلم نفسه علشان أخرج؟ لو تروح للمدرسة توقف دراستي علشان ما يحسبوا عليا غياب، وكيف أخرج للامتحانات؟**
- **المباحث أرسلت طلب لأخيك، لكن قائد اللواء رفض. قال إنه استجار به وأنه لن يسلمه ولو بحرب، لكن قائد اللواء قرر على ما سمعت أنه يقتطع مبلغ من كل فرد في لوائه ليجمع لأخوك دية المقتول، وقد جمعوا مئات الآلاف. وبالنسبة لنا أول أمس ذبحنا ثور على باب أسرة المقتول، وسلمنا لهم أسلحة ودخلنا عليهم بجاه الشيخ، وأرسلنا للأنساب والأصهار كل واحد يجمع (غرمه) ويأتى به، أو يرسله علشان تجتمع عندنا الدية بالكامل من المعسكر والأنساب، والوالد معه مبلغ من الموسم الماضي... يعني ممكن تتجمع الدية ونخرج من هذه الأزمة لو وافق أهل القتيل؟**
- **وممكن يرفضوا؟**
- **هم الآن رافضين أساسا. قالوا: رأس مقابل رأس، بس الأمور هدأت بعد ما دخلت أنت السجن، ومعنا وساطات متداخلة في القضية من شيوخ، وناس داخلة وخارجة، والقضية في طريقها للحل، أنت اصبر، كُل، وارقد، وأيام قليلة وتخرج.**

لم أشعر بصدقٍ كامل في كلامه، لكنه كان الأمل الوحيد. ودب اليأس في

قلبي وأنا أفكر أنه ما تزال هناك الكثير من الأحداث قبل أن تُحل المشكلة وأنه ما يزال أمامي الكثير.

- **سجنك هنا أمان لك، أنت بعيد عن الصياح والهرج والمرج، الكل مجنون من كثر الضغط علينا، الدولة من جانب، وأهل القتيل من جانب، والشيوخ من جانب، والأنساب والأصهار من جانب، ولا واحد من أخوتك رجع من معسكره؛ خايفين يسجنوهم جنبك بمن فيهم القاتل، والناس جماعات تجئ وجماعات تروح كل يوم أبوك يذبح خروف، للضيوف من شيوخ وأنساب. أنت هنا مرتاح، كل شيء لعندك. وسجنك خفف الضغط قوي، كلما تحركت أسرة القتيل صاح الشيوخ: قد معاكم رهن في السجن لحد ما نخرج لطريق. خليك عندك، احسب أنك صدمتك سيارة وجالس في المستشفى.**
- **وصاحبك هذا؟**
- **حماية لك، لا يهينوك، لا يضربوك، يعطيك الأكل، وأنا سأرجع القرية أعرف ما قد حصل هذا الأسبوع واشوف أختي، ثلاثة أربعة أيام وأرجع بيتي وأزورك يوميًا.**

بعد أن انتهى اللقاء، عدتُ إلى الساحة، لكنني لم أعد إلى اللعب. ذهبتُ مباشرة إلى عمي ناصر، أحكي له ما حدث. كان كبير السجن؛ ضاحكًا، قويًا، وحكيمًا في آنٍ واحد. قال لي:

- **أنت لا تعرف حياة المعسكرات. خدمتُ في الحرس الجمهوري وأنا أصغر منك في العمر. هناك جنود لا يعودون إلى بيوتهم سنوات، وبعضهم هارب من ثأر أو مشاكل. المعسكر عائلتهم: يأكلون وينامون هناك، ورواتبهم تكفيهم، ولديهم القات والسجائر. وإذا كان على أحدهم دية أو مشكلة، يساعدونه. تخيّل خمسة آلاف جندي، كل واحد يدفع مئة ريال... مبلغ بسيط، لكنه يجمع الكثير. الجندية في اليمن جيدة، لولا فساد القادة. الجنود متكاتفون. ادعُ الله أن يقبل أهل القتيل بالدية؛ إن وافقوا، فأنت وأخوك في أمان. لا أسهل من جمع المال في هذه الحالات.**
- **لكن إلى متى؟**
- **قال لك خالك: اصبر. أنت ولد طيب وأنا حبيتك أول ما دخلت، حسيت أنك رجال يعتمد عليك، أيام، أو أسابيع. ولو حتى شهور وتخرج. يا ليت كنت مكانك كان زماني خرجت بسرعة، لكن من أنا ومن أنت يا ابني، كلنا عائلة واحدة. ارجع العب مع الجن في الحوش.**

فكّرتُ طويلًا: ما الذي يمكن أن أفعله داخل هذا السجن، الذي يبدو أنني سأمكث فيه شهرًا كاملًا على أقل تقدير؟ عدت إلى لعب الورق مع المجموعة، وأنا أحدّث نفسي: ربما هذه هي عائلتي الجديدة، وعليّ أن أندمج معها أكثر مما سبق. لعلّ الاندماج يمنحني قدرة على احتمال حياة

السجن، وسيمرّ الزمن أسرع دون أن أشعر به. لم يكن هناك خيار سوى الانتظار... الانتظار فقط.

انقضت الليلة كسابقاتها، باستثناء زيارة خالي وصديقه. وكذلك الصباح: إفطار وغداء، ثم نهارٌ يمضي في مضغ بعض أوراق قات أعطاني إياها ابنَا الجدري، في محاولةٍ مني للاندماج في الجو العام للسجن. لم يكن هناك ما هو أفضل من "المقيل"؛ حيث نتبادل الأحاديث، وتتقارب الأرواح والأفكار والعلاقات.

في الليلة التالية، وبعد صلاة العشاء، لعبتُ الورق مع عمي مسعد، وعليّ الجمرة الذي انضمّ إلينا، وعلي بائع العنب. بينما ظلّ رياض بعيدًا، مستلقيًا على فراشه، يحدّق في السماء ويفكّر.

كان القباطي ما يزال نائمًا كما هو منذ دخولي، وعمي هادي يقرأ إحدى مجلاته، وعمي ناصر يحكّ حواف الجبس في فخذه، أمّا عمي ناصر "الرهينة"، فكان منزويًا في إحدى الزوايا يقرأ القرآن. وكان عمي فريد مشغولًا بتنظيف أواني الغداء ليسلمها لابنه صباح الغد، بينما لا يزال عمي حسين الفلسطيني يحارب البراغيث التي هاجرت من فُرش السجناء واستقرّت في فراشه.

***

لم يكن حديث عليّ الجمرة ينتهي. تحدّث عن السياسة، وسرد حكاياتٍ طويلة عن حرب الخليج وتأثيراتها على اليمن، ثم حرب الخليج الثانية.

تحدّث عن الوحدة اليمنية وسلبياتها، وعن حرب صيف ٩٤، ومرّ سريعًا على الخلافات بين الرئيسين والحكومتين في الشمال والجنوب، ثم تحدّث عن نهب الأراضي في عدن والجنوب من قبل شيوخ القبائل والمتنفذين في الشمال، وتحدث عن قضايا المبعدين من وظائفهم، وعن الحراك الجنوبي، وكيف يمكن أن يكون سببًا لحرب قادمة أكثر ضراوة.

من الثامنة مساءً حتى الحادية عشرة، وهو يتحدّث ويلعب. لم أفهم الكثير مما يقول؛ لصغر سني حينها وقلة اطلاعي، ولأن عملي في المنجرة أبقاني بعيدًا عن تفاصيل السياسة. صباحي نوم، ونهاري مدرسة، وليلي بين الأخشاب.

كان بعض المراهقين يخرجون من الغرفة الصغيرة بين حين وآخر، يغمزون لعمي مسعد ويدعونه إليها. فيجيبهم ببرود:

- **تأخرتم. لو جئتم قبل عشرين عامًا، لحولت مؤخراتكم إلى كهوف.**

يضحك المراهقون ويعودون إلى غرفتهم.

في تلك الليلة، كان الأخ البدين لعلي، بائع العنب، ودودًا على غير العادة؛ مرّ على السجناء واحدًا واحدًا، يسأل عن قضاياهم، وعن مصيرها، وعن نظرتهم للحياة داخل السجن. بدا أن القات الذي مضغه في المقيل جعله أكثر صفاءً وتفهّمًا. تحدثوا معه بحرية فلم يوحِ شكله، ولا بدانته، ولا سنوات سجنه الطويلة، بأي ريبة من أن يكون جاسوسًا.

فاز عمي مسعد بأولى جولات الورق، ثم الثانية، فالثالثة، فالرابعة. كان

الوحيد الذي يمنح اللعبة كل تركيزه، بينما كنا نحن نستمع إلى حكايات الجمرة السياسية. كنا نلعب "السارقة": نخفي ورقة، ثم نوزّع البقية، ومن تنتهي بيده الورقة المشابهة في النهاية، يكون هو "السارق".

داعب عمي مسعد الجمرة قائلًا:

- **صورتك دخلت في قضية سرقة، وليس كما تقول بسبب مقالات سياسية؟**

ضحك الجمرة، وطلب جولة جديدة... فإذا به "السارق" مرة أخرى!

انفجر عمي مسعد ضاحكًا، وللمرة الأولى منذ ليلة التعذيب يضحك بهذه الطريقة. سرّ ذلك الجمرة، وتلقّى المزاح بصدرٍ رحب.

لاحقًا، أخبرتهم بزيارة خالي، وبحديث عمي ناصر، وبما قاله قائد اللواء. فاشتعل الجمرة غضبًا وصاح:

- **يعني كيف يكون قائد لواء وشيخ قبيلة في الوقت نفسه؟ هذا يطبّق القانون، وذاك يتجاوزه! كيف يكون خصمًا وحكمًا؟!**
- **ما فهمتُه من خالي، أن الأمر يسير لصالحنا.**
- **هذا رجل في غير مكانه. الشيوخ غالبًا لا يقرأون ولا يكتبون، وقادة الألوية يفترض أنهم متعلّمون. كيف يدير جاهلٌ معسكرًا؟! لا يصح هذا لا قانونًا، ولا عسكريًا، ولا مدنيًا! هكذا تغلبت المشيخة على الدولة. في الدول الأخرى، حتى الرئيس يُحاسَب... ونحن عاجزون عن محاسبة عسكري بسيط! لا تزعل مني، لكنك ستبقى هنا**

طويلًا... أنت سـجين هنا، وأخوك سـجين في معسـكره. الكل في سجن. على الأقل... سنقضي وقتًا طويلًا معًا. لقد ارتحتُ لك!

ابتسـمتُ له، وأنا أعلم أنه يقول الحقيقة، وعدنا إلى اللعب، ولم تمضِ لحظات حتى اكتشـفنا أن "السـارقة" ما تزال بيده! فنظر إليه عمي مسـعد بدهشة وقال:

- **بعد أربع مرات، أحلف يمين مغلظة أنك ما دخلت السجن في قضية سياسية.**

ضـحكنا جميعًا... لكن ضـحكنا انقطع مع أول نداءٍ للتعذيب. لم يكن باسمي، بل باسم رياض. ظهر الرعب في عينيه؛ فجراحه منذ الأمس لم تلتئم بعد. خلال اليومين لم يتحدّث عمّا تعرّض له، لكن قصـته انتشـرت في السجن. خرج ببطء، ليقضي ليلة أخرى بين يدي "الأبرص".

بعده، نودي باسـم عمي فريد، فسـارع بجسـده الضـخم، وثوبه البني اللامع، وملامح الخوف ترتجف على وجهـه. ثم جـاء الـدور على عليّ الجمرة، فرمى الأوراق وهرع خارجًا. وبعد نصف ساعة، نودي عمي هادي، فمشى مترنّحًا، مثقلًا من آثار نوباته. وبعدها بقليل، رمى عمي مسـعد الأوراق وهو يصيح في وجهي:

- **"بَصْـرَة"، الأبرص شـغال اليوم، يمكن القارورة من النوع الجيد، أمريكي، فرنسي، بلدي، الله أعلم.**

كنتُ مطمئنًا نسـبيًا؛ فأنا- كما قال صـديق خالي- مجرّد رهينة. لكن فجأة، سمعتُ اسمي يتردّد في فم السجّان:

- **سهيل!**

تجمّدت من الخوف. لم أكن معتادًا على هذه النداءات، رغم كل التطمينات. ولم أكن معتادًا على الضرب أصلًا؛ آخر مرة ضربني فيها أبي كانت صفعة في طفولتي بسبب الدراجات.

خرجتُ مسرعًا. شيّعتني عيون السجناء بنظراتٍ مشفقة. رفعتُ يدي أمام وجهي، إشارةً إلى أنني لا أفهم شيئًا. استقبلني جندي عند البوابة، واقتادني عبر ممرات المباحث ذات الإضاءة الرمادية. كانت يدي ترتعش في يده، وتتعرّق. نظر إليّ وقال:

- **ما تخافش يا روحي، ما بروحش بك لعند الأبرص؟**

لم يفلح كلامه في تهدئتي، بل زاد من خوفي وارتعاش يديّ؛ فربما كان لديهم أبرصًا آخر للتعذيب! شعر الجندي بخوفي فشد يدي إلى قضيبه المنتصب وقال لي وهو يبتسم:

- **أمسكه بقوة وأنت ترتاح، فكر أنه حبل النجاة.**
- **كلكم نفس العينة هنا أو أيش!**
- **علشان تهدا بس.**
- **طيزك يهديني أكثر!**

وضحك الجندي ضحكة ترددت في الممر الطويل وهو يصرخ بي ويصفع كتفي استحسانًا:

- **"بَصْرَة"، والله إنك رجال!**

كان امتحانًا جديدًا، كما في كل مرة، ليتحقق الجندي من هويتي الجنسية: من أكون؟ وهل يُدرج اسمي ضمن قائمة "المراهقين" أم لا؟

صعدنا إلى ممرات أعرفها جيدًا... ممرات مدير المباحث. تسللت إلى رأسي أسئلة ثقيلة: هل يعلم أنني لا أصلي؟ هل وصله الخبر؟ وهل سيعيدني إلى السجن الآخر بسبب ذلك؟

عاتبت نفسي كثيرًا: ماذا كان سيضيرني لو صليت بضع صلوات، حتى ولو تمثيلًا، ولو بلا وضوء؟ المهم أن يصل إليه الخبر... لكن، هل كان سيصدقني؟

دخلت مكتبه وقد تلاشى الخوف من عيني. فوجئت بصديق خالي جالسًا إلى جانبه على الكنبة قرب النافذة، وأمامهما كأسَا شاي بالحليب يُشرب عادة بعد الانتهاء من مضغ القات. وفي اللحظة نفسها داهمني إحساس خافت بأن خروجي قد يكون قريبًا، وأن حديثًا قد دار بينهما؛ ربما أخبره أنني لا ناقة لي ولا جمل في الأمر، أو أن وجودي ضروري لتهدئة الوضع في القرية ومنع تفاقم الجرائم.

أجلسني صديق خالي إلى جواره، أحاطني بذراعه، وألصقني به وهو يهزني بحنوّ أخ أكبر، ثم خاطب رئيس المباحث:

- **هذا ابننا يا فندم، وهو ابن ناس وبعد حاله، وبعد دراسته!**
- **نعم، أحضرته لعندي قبل فترة، وعرفت أنه ابن ناس فأخرجته من السجن الكبير للسجن الصغير، سيماهم في وجوههم. هيا يا سهيل، بتصلي؟**

أومأت برأسي: نعم، ولم أنطق، خشية أن يفضحني صوتي. ربما أخبره أحد "جواسيس" السجن بحقيقتي. لكنه لم يبدُ أنه يعرف شيئًا، واكتفى بابتسامة خفيفة وقال:

- **ممتاز يا ابني، الآن ارجع مكانك.**

عودتي السريعة إلى السجن كانت مدعاة دهشة للكثيرين. رأيت الفرح في عيونهم، وكان عمي مسعد أكثرهم ارتياحًا. همس لي:

- **عدم تعرّضك للتعذيب لا يعني خروجك قريبًا... ستبقى طويلًا تلعب الورق معي حتى نخرج سويًا.**

قالها وهو يلعب الورق مع صديقي، بائع العنب. تلك الليلة لم يعد أحد من الذين خرجوا إلا مع الفجر؛ متعبين، منهكين، تتبدّى آثار التعذيب على أجسادهم. مع ذلك شعرت بفرح خفي لأنني لم أكن معهم... عند "الأبرص".

***

لم أستيقظ ذلك الصباح على رنين الجرس فوق رأسي، بل صحوت باكرًا بسبب حركة الدخول والخروج المتكررة من البوابة. كان المعذَّبون يدخلون وهم يتأوّهون، فتقابل تأوهاتهم بعبارات المواساة ممن حولهم. لم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد، ومنذ أذان الفجر والبوابة لا تهدأ. كان ذلك أول صباح أستيقظ فيه في هذا الوقت.

كان عمي فريد الأكثر تأوهًا؛ ما إن جلس حتى أخذ يلعن الأبرص وكل من

يمتّ له بصلة، يتفقد مواضع الألم في جسده ويصبّ اللعنات مع كل وخزة. أما رياض، فدخل الحمام ليفرغ مثانته بعد ليلة كاملة من الحصـــار، ثم عاد لينام؛ بدا وكأنه اعتاد التعذيب. أما الجهمي، فما إن وطئت قدماه ســـاحة الســجن حتى بدأ يلعن أعضـاء "الحكومة" واحدًا واحدًا: اسـمًا بعد اسـم، ومنصـبًا بعد منصـب، من رأس الدولة نزولًا إلى الوزراء وأعضـاء مجلس النواب... حتى الشخصيات المعروفة. كان يتحسس جسده، يكتشف سحجة هنا، وصفعة هناك، ويعود إلى سيل الشتائم، حتى تجاوز العشرين اسمًا. ثم أخذ يهدد بأنه "سيضـاجع نسـاءهم جميعًا"، إلى أن خرج له عمي ناصر من الغرفة وهو يصيح:

- **هلال! لو معك زبّ حمار ما كفاك من كثر النيك! اسكت ونام!**

وكأنه كان ينتظر أمرًا... فسكت ونام فورًا، ثم تبعه الجميع.

في الصباح، رنّ الجرس، وبدأ يوم جديد في السجن مع إفطار بيت الجدري. لم يستطع المعذَّبون النهوض. وبعد الإفطار، بدأت وفود نزلاء جدد تتقاطر: ثلاثة شبان بدا أنهم أصدقاء؛ أحدهم في العشرين، ضخم الجثة، بشعر أسود مجعّد ونظرات خائفة، وبشـرة بيضـاء مملوءة ببثور حَب الشـباب. الثاني في مثل سـنه ويشـبهه في الملامح، أما الثالث فأسـمر، بعينين بنيتين، ويبدو من لهجته أنه من تعز.

دخل بعدهم شـاب لم يبلغ العشـرين بعد، وسـيم، ببشـرة بيضـاء وشـعر بني، ونظرات شديدة الخوف والقلق. أما آخر الداخلين فكان رجلًا أسود البشرة،

يبدو من هيئته وحديثه أنه من الحُدَيْدة أو سواحلها. "عَسِيبُه" مكسور، وثوبه الأبيض متّسخ. توجه مباشرة إلى زاوية فارغة، فرش شاله، ونام فورًا؛ كأن المكان مألوف له.

بعد قليل وصلت البطانيات للشبان الثلاثة، لكن الرجل القادم من الحديدة لم ينل شيئًا، ولم يهتم... كان غارقًا في النوم. وحده الشاب ذو البشرة المليئة بالبثور بقي جالسًا، لا يناديه أحد، ولا يحدّثه أحد.

لم أتحرك لمعرفة قصصهم؛ كنت أعلم أن صديقي، بائع العنب، سيأتيني بها... المتداوَلة والحقيقية، ومعها الحكايات "الجنسية" التي تُفصَّل على مقاس كل سجين. لم يطل الانتظار. بعد صلاة الظهر، ونحن في المقيل نمضغ القات، بدأ صديقي يتعرف عليهم، ثم عاد إليّ وقال:

- **بمن تريد أن نبدأ؟**
- **بالشبان الثلاثة.**
- **هؤلاء من عصابة في الصافية. يقولون إنهم اكتشفوا رجلًا صوماليًا قوادًا بزوجته وابنته في الحارة، فلم يحتملوا المنكر، فتقطعوا له وضربوه... وهو الآن في العناية بمستشفى الثورة. يقولون إن رائحة العائلة فاحت في الحارة، وإنهم خافوا على سمعتها. أُمسك بهؤلاء الثلاثة فقط، أما البقية فهربوا.**
- **والقصة المتداولة عنهم؟**
- **عمي ناصر يقول إنهم لم ينكروا المنكر، بل أرادوا نصيبهم من الزوجة والبنت، ولما رفض الرجل مجانًا ضربوه.**

- والآخر؟
- من الآخر؟
- تقصـــد الأســـود؟ هـذا بـائع في حراج بـاب اليمن. يبيع تلفونـات مسروقة. يدخل السجن دائمًا. قبل شهرين ظل هنا لأسبوع وخرج. يشـتري المسـروقات بثمن زهيد ويبيعها بسـعر السـوق. هذه المرة، صـاحب الهاتف تعرف عليه وبلّغ عنه. يحصـل معه هذا كثيرًا، لكنه لا يهتم... لقـد تعوّد على السـجن والعراك اليومي في حراج بـاب اليمن.
- والأخير؟
- هذا إما ذكي جدًا أو غبي جدًا. يقول إنه يسـكن مع شـباب في دكان، وكانوا يذهبون للمقيل عند قاضٍ في الحارة نفســها ... قاضٍ لوطي، يعشـق الشـباب. بدأ دعاباته معهم بنكات، ثم لمسـات، ثم علاقات مع بعضـهم. صـار الباب مفتوحًا لهم. قال إن القاضـي كان يقول له يوميًا: "تعال، عندي لك علاج لحب الشباب!"
- أمانة قال كذا؟
- والله! المهم، أحد عشـاق القاضـي سـرق جنبيته ومسـدسـه ومبلغًا كبيرًا، وهرب مع اثنين آخرين. بقي هذا وواحد آخر لا علاقة لهما بشيء، فأُمسك بهما دون أن يعرفا ما الذي حصل. الآخر في السجن الثاني، وهذا فُصل عنه للتحقيق.

- **تظنه سارقًا؟**
- **لا أظن. لو كان، لهرب معهم. كان بينهم ثلاثة عشـــاق واثنان لا يعرفان شـيئًا. سـنعرف الحقيقة عندما يقع في يد الأبرص. سـيجعله يُخرج حليب أمه.**

بـدأ الســجن يزدحم، وظهرت النزاعـات- لأول مرة- على أمـاكن النوم، خاصة مع شبان الصافية الذين استولوا على مساحة أكبر من حاجتهم. دخلنا في مشـــادات معهم: أنا، وعمي مســعد، ورياض، حارس المســتشــفى، والجمرة. صاح أحدهم، ملوّحًا بيديه في وجوهنا:

- **عنتزاحم؟ هى رقدة ســاع الناس، أو مخناثة، كل واحد في طيز الثانى؟ اجمعوا سمطاااان.**

استثار الكلام عمي مسعد بشدة، فأمسك بقميص الشاب، وسرعان ما أحاط به رفاقه من العصـابة، لكننا بدورنا أحطنا بهم؛ حصـار داخل حصـار. وفجأة وصلت إلينا عصا عمي ناصر، تهوي على الجميع، تفصل بيننا:

- **إخوة... كلكم إخوة. كلنا هنا لأيام. تفاسـحوا لبعضـكم... الوسـع في القلوب.**

ردّ أحد الشبان، وهو يدفع بعصاه نحوه:

- **أيوة، قدك ضامن لنفسك مكان في الغرفة يا بطل!**

لم يمهله عمي ناصــر. جذبه نحوه وهو على كرســيه المتحرك، وأمســك بتفاحة رقبته، حتى أصدر الشاب صوتًا كمواء قطة تُخنق:

- **يا بطل... اهدأ، وإلا أبغرك من حلقك بدل الدم عظام!**

انصـاع الجميع. وخمدت عصـابة الصـافية بعد التهديد، وتنازلوا عن جزء كبير من المسـاحة التي اسـتولوا عليها، واكتفوا بما يكفيهم. أما بائع المسروقات فحافظ على مكانه إلى جوار عمي حسين الفلسطيني، كأنه لا يعنيه شيء؛ تدثّر بالشال الذي على رأسه، وافترش شال كتفيه، وغرق في النوم... وظل كذلك طوال النهار. أما الشاب الأخير، المتهم بسرقة جنبية القاضي، فظل منذ الصباح جالسًا القرفصاء. لم يأكل مع أحد، ورفض الدعوات المتكررة. قال إنه يدرس ويعمل في صنعاء، ويعيش في الدكان مع زملائه، بينما أسرته في قرية بعيدة من آنس. بدا واضحًا أنه لو لم يمنحه أحد فراشًا، لبقي مقرفصًا أيامًا وربما أسابيع.

دعوتُه ليشاركني فراشي؛ كان الإسفنج واسعًا نسبيًا، يتسع لاثنين مع بعض الضيق، والبطانية التي أحضرها لي خالي كبيرة تكفي لشخصين. كان اسمه عبد الصمد.

نظرت إلى أرض السجن وقد امتلأت، وشعرت أن المزيد قادم في الغد. الدخول متسارع، والخروج بطيء... فالقضايا، رغم بساطتها أحيانًا، تمتد طويلًا حتى تُحل. عرفت لاحقًا أسماء شبان الصافية: كريم، وعادل، وحسن... أسماء عادية لحيّ عادي في صنعاء. أما بائع المسروقات فاسمه سلطان، من المراوعة، كما قال.

كان إحساسي أن السجن- ونزلاءه الذين صاروا أشبه بعائلتي- يتكاثرون

فجأة، وأن النزاعات على المساحة ستزداد. لكنني كنت من "القدامى"، ولا أحد يستطيع إجباري على ترك مكاني. وكذلك عبد الصمد، الذي صار آمنًا منذ اقتسمت معه فراشي. وحتى إن وقع نزاع، فعمي ناصر يحدّ منه كثيرًا؛ رجل، رغم ماضيه كقاطع طريق، يحمل انضباط جندي متمرّس، وقسوة مقاتل، وحنان أبٍ ترك أبناءه في القرية، فصار يرى فينا أبناءه.

***

في اليوم التالي، لم يأتِ صديق خالي بالغداء إلا عند الرابعة عصرًا. حينها شعرت بقيمة خالي؛ كان يحرص على كل شيء في وقته، ويختار لي الأفضل، ولم يتركني يومًا منذ دخولي السجن.

كان أذان العصر قد انتهى حينما سمعت اسمي يتردد في السجن. ارتعبت. هذا اليوم العاشر لي، ولم يُنَادَ باسمي إلا مرتين من قبل. هل نسيَني صديق خالي؟ أم أن تدخله بالأمس جعل الأنظار تتركز عليّ؟ لم يكن خوفي من غياب الطعام؛ فطعام بيت الجدري يكفي الجميع. كان خوفي من النسيان... من أن أُترك هنا بلا أخبار عن قضيتي في القرية، فأصير مجرد رقم منسي.

حين وصل الطعام، كان لحمًا بقريًا كثيرًا مع أرز أبيض. لكنني لم آكل منه؛ كنت قد بلغت منتصف المقيل، بعد أن أعطاني ابنا الجدري كمية لا بأس بها من القات، وكان معظم السجناء يمضغونه. وحده عمي حسين الفلسطيني، ما إن رأى الطعام حتى اقترب وقال إنه جائع.

عمي حسين الفلسطيني أبيض البشرة، ضخم الجثة، بلحية بيضاء كثة وشعر

أشعث. لم أرفض طلبه، بل فرحت به، وأخذته إلى مكاني وأعطيته طعامي. لم يكن صديقي، بائع العنب، قد أخبرني أن عمي حسين يعشق السياسة إلى حد الهوس، ولا حدثني عن ثرثرته التي لا تنتهي، ولا عن البراغيث التي تعمر فراشه وثيابه... وجسده. جلس يأكل، وبدأ يتحدث، وفمه ممتلئ:

- **كنت في فلسطين أيام مذبحة دير ياسين. الصهاينة قتلوا ما لا يقل عن خمسين ألف فلسطيني... هه!**

رفع كتفيه إلى الأعلى، كأنه يقذف الرقم في وجهي، أو يتلذذ بثقله. ثم تابع:

- **بعدها، يا ابني سهيل، قلت لنفسي: اهرب من هذه الكارثة. لن أبقى لأُذبح. فررت إلى مصر، ومنها إلى اليمن. عشت هنا عمري كله... عملت في الكثير من المهن: اشتغلت في المطاعم والكافتيريات، إلى أن قبضوا عليّ. الصهاينة يعرفون ضعفنا. حكامنا طغاة... لا همّ لهم إلا الكرسي. سمعت وأنا هنا في اليمن أن الرئيس السوري، أيام الانقلابات، قتل أكثر من ربع مليون في حلب أو حمص... هه!**

ورفع كفّيه، كما لو أنه يلقي بالرقم المرعب نحوي. تابع:

- **حتى صدام حسين... لم يثبت حكمه إلا بعد أن قتل مئات الآلاف، بل أكثر من مليون عراقي... هه!**

كرر الحركة نفسها، يقذف بالأرقام في وجهي. كنت صامتًا، أستمع، وأستحلب عصارة القات في فمي. تابَع:

- **حين احتل الكويت... قتل نصف شعبها في يوم وليلة... هه!**

لم أتمالك نفسي فقلت:

- **أنت تبالغ يا عم حسين.**

لم أكن أعلم أن هذه الجملة وحدها كفيلة بإشعاله. لم يخبرني أحد أنه لا يحتمل أن يُعارَض أو أن يشكك أحد في صحة معلوماته وأرقامه. رَمى ما تبقى من الأرز في يده إلى الصحن، وهمّ بالقيام غاضبًا. أسرعت أهدّئه حتى عاد إلى مكانه، واستأنف الأكل... والكلام:

- **كلهم هكذا يا سهيل... كل الحكام العرب. لا تستقيم لهم السلطة إلا بالدم والنار. ملايين لم يقتلهم الصهاينة... قتلهم الحكام العرب. ملايين... ملايين... هه!**

ورفع كفّه مجددًا، يقذف بالرقم الجديد في وجهي. سايرته هذه المرة، بنبرة حاولت أن أبدو فيها مقتنعًا:

- **ربما يا عم حسين!**

لم يعجبه ردي فصاح والأرز يتطاير من فمه إلى وجهي:

- **مؤكد، يا ابني يا سهيل، مؤكد.**

بعد أن أنهى ما في الإناء، وانتهى مما أراد قوله، نهض شاكرًا. لم أكن مهتمًا كثيرًا؛ فقد وعدني صديق خالي بطعام جديد في المساء، هذا عدا "العشاء الكبير" الذي يأتي من بيت الجدري، وأطباق العشاء التي تصل إلى عمي فريد- وكان يخصّني منها كل ليلة بعلبة مربى الجزر- إضافة إلى عشاء عمي ناصر، وعمي هادي، الذي أعجبني منه طبق "المعصوبة"، الغارق في زيت

السمسم، طعمه لا يُنسى... ما زال أثره في فمي حتى الآن، وسيبقى.

عمومًا، لم يكن هناك إلا القليل ممن لا يصلهم طعام، وكانوا يقتاتون من الموائد المنتشرة في السجن.

بعدها، بدأت أشعر بهجوم غريب على جسدي. ظننت في البداية أن حرارة القات جعلت جلدي أكثر حساسية، لكن الأمر تجاوز ذلك؛ لم أعد أحتمل. كانت القرصات في كل مكان، بلا استثناء. صاح بي صديقي علي، بائع العنب:

- **جلس عمي حسين عندك؟**
- **جلس وأكل.**
- **هههه إذًا فقد أعطاك مقابل ما أعطيته، هكذا الدنيا دائما، أخذ وعطاء.**

وغادر سريعًا، رغم عشقه للجلوس معي ساعات طويلة، هربًا من الغرفة المغلقة الخانقة، برطوبتها وزحامها وروائح الطعام... والضراط.

لأول مرة، خلعت ثوبي أمام الجميع، وبقيت بثيابي الداخلية، أفتّش ملابسي قطعةً قطعة. كان عليّ يثير ضحك السجناء، ويشير إليّ:

- **هذه هي التنمية، كان معنا مصنع قمل ولدينا الآن مصنعين، الاستثمار ما فيش أحلى منه!**

زاد القات من إحساسي بالألم؛ كل قرصة كأنها رصاصة. أخذت أقتل القمل واحدًا تلو الآخر. عندها قررت ألا يقترب مني الفلسطيني بعد اليوم؛ إن

احتاج شـيئًا أو مسـاعدة سـأحملها إليه، لكن لن أسـمح له بالاقتراب من فراشي.

سـاعدني عبد الصـمد في تنظيف الفراش. كان شـديد الحسـاسـية؛ أي قرصـة تترك دائرة حمراء على بشرته البيضاء. انهمكنا في التنظيف حتى وقت متأخر من الليل. ولأول مرة منذ دخولي السجن، لم ألعب الورق، ولم يقترب مني أحد. شـعرت بشـيء يشـبه عزلة عمي حسـين، الجالس قرب الحمامات، يحيط به فراغ لا يجرؤ أحد على اختراقه.

في الصـباح، قررت أن أغسـل ملابسـي وفراشـي. ذهبت إلى بقالة السـجن واشتريت صابونًا. كنت قد استيقظت مبكرًا، قبل شروق الشمس، لأستثمر النهار كله حتى تجف ملابسـي قبل الليل، وأغتسـل بعيدًا عن الزحام. كان الجو باردًا، والماء أبرد، لكنني تحمّلت.

بقيت مرتديًا الشـال فقط؛ طويته مرتين ليسـتر جسـدي حتى الركبتين، وغسـلت حتى ملابسـي الداخلية. علّقت الملابس والبطانية على الرف الإسمنتي فوق باب الحمام، فصرت هدفًا لسخرية البعض، وضيق البعض الآخر ممن كانت الملابس المبللة تعيق دخولهم وخروجهم. حتى عمي ناصـر لم يعجبه الوضـع، فقرر أن السـجن بحاجة إلى تنظيف شـامل، وأن الغرف- بما فيها غرفة "المراهقين"- تحتاج إلى تهوية وتعريض الفرش للشمس.

بعد الإفطار، أجبرنا على رفع الفُرش فوق رؤوسـنا، بينما تولّى بعضـنا رش

الماء والصابون على أرضية السجن. كان سلطان، بائع المسروقات، يحمل أوانيه بيد، وقواريره بيد أخرى، ويعضّ ثوبه بأسنانه... كان منظرنا مضحكًا رغم كل شيء.

لم تكن هناك أدوات نظافة حقيقية، لكننا استعرنا مسَّاحة البلاط. وبحلول الظهر، انتهينا. لم يشارك كبار السن، وبقيت عصابة الصافية متفرجة. وحدنا عملنا بجد: أنا، وعبد الصمد، وعلي بائع العنب، ورياض حارس المستشفى. كان اندماجنا في السجن قد بلغ حدًّا جعلنا نشعر بالانتماء.

حينها أدركت قيمة الطاعة، وأهمية وجود شخص لا يطلب... بل يأمر، مثل عمي ناصر. بعد الظهر، جفّت ملابسي، واستحممت، وشعرت بنقاء وطهر بعد أسبوع من الابتعاد عن الماء. ولأول مرة... صليت الظهر. كانت أول صلاة أصليها منذ أن غادرت قريتي قبل ثلاث سنوات. لم أصلِّها في زاوية، كما يفعل الآخرون، بل في وسط الساحة؛ ليراني الجميع، وربما كان بيننا من ينقل الخبر إلى مدير السجن.

لم أكن أصلي طوال فترة دراستي وعملي في صنعاء، ولا حتى في رمضان. ثم بدأت، بعد ذلك، أصلي بشكل متقطع، حتى صرت أواظب في آخر أيامي في السجن... لكنني لم أكن متأكدًا: هل كانت صلاة تقرّب؟ أم خوف؟ أم مجرد فراغ؟

***

في المساء، لم ينسَ صديق خالي وعده. أحضر العشاء، وأعطاني نقودًا

لأشتري ما أحتاجه ليلًا مثل البسكويت أو الشاي. وهذا ما لم يفعله خالي، لكن يكفيني أنه لم ينسني، فهو يزورني بانتظام، ثلاث أو أربع مرات يوميًا.

في تلك الليلة، نمت براحة لم أعرفها من قبل؛ فقد كان السجن نظيفًا، وتفوح منه رائحة الصابون. وفي اليوم الحادي عشر، كانت الحركة غير طبيعية. ابتلع القباطي بعض الحبوب التي تُهرَّب إليه مع الطعام والكتب، وخرج علينا عاريًا. دخل الحمام، ثم خرج مبللًا، وبدأ يدور في الساحة ليجف. لم يكلّمه أحد؛ الجميع يعلم أنه ليس في وعيه. رمى ثيابه أرضًا، ووقف يحدّق في الشمس بعينين مرهقتين.

استثار المشهد يوسف- المراهق- فاندفع نحو الثياب، وأخفاها تحته. ثم خرج بقية المراهقين، وقد استُدعوا لمشاهدة العرض. كان عاصي، صاحب القميص الشفاف، يحدّق فيه بنظرات لافتة جذبت انتباه الجميع. عندها ظهر عمي ناصر، على كرسيه المتحرك. تقدّم، ودسّ عصاه بين فخذي القباطي... فقفز الأخير من الألم عدة قفزات، ونظر إليه بعينين تائهتين. صاح عمي ناصر فينا جميعًا:

- **استروا هذا المسطول بدل ما يقع للمخانيث أزمة!**

سارع مروان الجدري، فخلع شاله ولفّه حول القباطي، ثم أخذه إلى الغرفة، حيث نام حتى صباح اليوم التالي. كان معروفًا أن الحبوب التي يتناولها تفصله تمامًا عن الواقع.

كسر عمي مسعد الصمت، وهو يداعب المراهقين لأول مرة منذ ليلة

التعذيب التي تعرض لها:

- **ارتحتم يا جن، قد أنتم في مرحلة تقشف.**

تضاحك المراهقون، وتطايروا كعصافير إلى غرفتهم. أعاد يوسف ملابس القباطي إلى عمي ناصر، ثم انصرف مع البقية. أخذ عمي ناصر الثياب، وأخفاها تحت كرسيه المتحرك، وقال:

- **ملابسه لي، ألبسهن لما أخرج من هنا، الثوب حقه تفصيل وغالي.**

في صباح اليوم التالي، لم يتذكر جمال شيئًا عمّا حدث له. التهم بعض الطعام الذي اشتراه من مندوب السجن، ثم عاد إلى نومه، غارقًا في سبات ليوم آخر.

في مساء اليوم نفسه، داهمت عمي هادي نوبة صرع. كنت ألعب الورق مع عمي مسعد، وعلي بائع العنب، وأحد أفراد عصابة الصافية. كان وجودهم مفيدًا؛ إذ اندفعوا معنا- أنا وعبد الصمد ورياض، حارس المستشفى- لنثبّت عمي هادي. كنا جميعًا شبابًا أقوياء، وتمكّنا من السيطرة عليه حتى كاد لا يحرك رمشًا.

شعرت حينها أن الشاب اليمني، مهما بدا شرسًا، يحتفظ في داخله بشيء من الشهامة والرغبة في المساعدة، حتى لو كان ضمن عصابة معروفة بالعنف. ورغم أن عمي ناصر كان قد فرض نظامًا لتقسيم المساحة بعد الشجار السابق، إلا أن المشكلة عادت تلك الليلة؛ حاولت عصابة الصافية التوسع مجددًا. فاضطر عمي ناصر أن يأمر الشاب صاحب القميص الشفاف

بالانتقال للنوم مع المراهقين في غرفتهم. اعترض عمي مسـعد، لكن عمي ناصر قاطعه:

- **لا تخف عليهم منه، كلهم أخوات.**

مع الزحام، اقترب الحشـد من عمي حسـين الفلسـطيني. بادر سـلطان، بائع الهواتف المسـروقة، إلى النوم بجانبه قرب باب الحمامات. ربما لم يكن يدرك أن المشكلة ليست في الرائحة وحدها، بل في "مستوطني" فراش عمي حسـين أيضًـا... أو ربما كان سـلطان من طينته، كما قال عمي ناصـر. أمّا ابنَا الجدريِّ، فقد حملا فُرُشَـهُما من الزاويةِ الغربية، وانتقلا إلى الغرفةِ الكبيرة، حيث يسكن كبار السن أو "حكام السجن"، كما كنا نسميهم. كانوا يحظون بمكانة خاصة، لما عُرف عنهم من كرم وهدوء، رغم بساطتهم. وهكذا، عاد السجن، بعد تدخل عمي ناصر، إلى شيء من الاتساع.

استلقى عبد الصـمد إلى جواري كعادته. لم يصـله فراش من أهله بعد؛ ربما لم يعلموا أصـلًا بوجوده هنا. أخبرني أنه لا يملك أقارب في صـنعاء، ولا وسيلة لإبلاغ أهله، وقد صودر هاتفه عند دخوله السجن.

قبل أن ننام، طرحت عليه السـؤال الذي كنت أؤجله. أمسـكت بأذنه وهمست:

- **القاضي... فعلاً كما يقولون؟**
- **أيوة... أصـحابي حكوا لي كل شـيء... ماذا كانوا يفعلون به! وماذا كان يفعل بهم! كان يأكلهم.**

- يع!
- والله العظيم، ما فعلت معه شـيئًا. كان يقول لي: "تعال، أعالج لك حب الشباب". لكني كنت أخاف...
- ماذا كانوا يفعلون معه؟
- سـتُثار! وبعدها وين تروح وأنت في سـجن؟ لا تعتمد عليّ وأنا ما رضيت بقاضي علشان أرضى بشاقي.
- لا لا لا، عادي، نقضي وقت فقط.
- كانوا يقولون إنه يحب التقبيل أكثر من أي شـيء. يجلس سـاعات يقبّل الشـاب في كل جسـده قبل أن يدخل في الجد... وأحيانًا يكتفي بالتقبيل. وكان له أشياء غريبة... يلعق الإبط، ويشد الشعر بأسنانه... حتى يتألم الشاب. هذا عنده يساوي الدنيا.
- قال عمى مسعد مثل شعبي: "تحكم على قضاة".
- عليك نور. تحكم على قضاة.

هنا سمعنا صوت عمي مسعد، وكنا نظن أنه نائم وهو يضحك:

- اسـكتوا يا جن! الزوجة وطلقناها، والمراهقين ممنوع اللمس... أيش أفعل بنفسي الآن؟
- ارقد يا عم مسعد، لك جن، أنت قاعد تتسمع من أول!
- السجن كله يسمعكم وأنتم تتخيلوا أنكم تتهامسوا! أنتم في سجن، قل كلمة "طيز" في قلبك، يسمعها المساجين في السجن الثاني.

كان صوته مرتفعا نسبيًا، فصاح عمي ناصر من داخل الغرفة الكبيرة:

- **يا سهيل أصه!**

- **أنا ما دخلي، ما تكلمت يا عم ناصر، هو عمى مسعد وعبد الصمد!**

جاء صوته حاسمًا:

- **سهيييييل، اسكت وبس!**

سكتنا جميعًا. ربما اختارني لأنه يراني قريبًا منه، مثلما أنا قريب من علي بائع العنب. شعرت بشيء من الرضا... وشيء من الضيق في الوقت نفسه؛ لأنه لم يخترني إلا لكي يوبخني.

كان عبد الصمد قد بدأ نومه فغطيت رأسه وتغطيت معه. ومع حرارة الفراش وأنفاسنا دخلت في نوم عميق ومريح.

***

مرت أيام بعدها في رتابة متكررة. لم يأتِ خالي، لكن صديقه استمر في زيارتي. حسبت الأيام... كنت قد بلغت اليوم العشرين.

في صباح ذلك اليوم، حدث شيء غير معتاد: في السابعة، نُودي باسمي أولًا، وهذا أمر غريب؛ فالنداء الأول دائمًا يكون لولدَي الجدري، لأن والدهما يأتي مبكرا دومًا. خرجت، فوجدت خالي. كان قد عاد من القرية، وبدا أنه يحمل خبرًا. كنت غاضبًا منه قليلًا؛ لم أعتد أن أمد يدي لغيره. لكن فضولي غلبني. ناولني ورقة من خلف الشبّاك الحديدي. نظرت فيها... كان الرقم الخاص بامتحانات الصف الثالث الثانوي.

لم يبقَ على الامتحانات سوى شهر ونصف، لكنني، في تلك اللحظة، لم أكن أفكر إلا في الأكل، والنوم، وحماية نفسي... وفي هذه "العائلة" التي صرت جزءًا منها.

قلت وأنا أستعد لسماع ما لن يكون سهلًا:

- **أيوة، والآن ما العمل؟**
- **والدك هنا في المباحث، جاء إلى العاصمة من القرية علشان يدخل رهينة بدلًا منك وأنت تخرج تذاكر وتمتحن.**
- **لا، مش الآن، باقي شهر ونصف. أعتقد الموضوع سيُحل خلال هذه الفترة.**
- **صعب جدا. قائد المعسكر رافض تسليم أخوك. اتصلت به فقال لي بالحرف: "ابنكم في وجهي، لن أسلمه لأحد ولو إلى رئيس الجمهورية! يا عيباه وأنا شيخ مشايخ قبيلتي!"**
- **أيش العمل؟**
- **أتركك الآن واروح لوالدك... بشوف هل يدخلونه بدلا منك أم لا؟**

ناولني الإفطار، واتجه مبتعدًا في الممر المظلم المقابل للشباك. وبعد حديث خالي، لم أستطع تناول الإفطار فالتهمه عبد الصمد. كان لا يفارقني في أي وقت من اليوم. شاركه الطعام سلطان، بائع المسروقات، الذي بدا أنه بلا زوّار منذ وصوله؛ وما يزال يفترش شالًا ويتدثّر بآخر.

قلت في نفسي آنذاك:

"الله عليك يا سهيل، طعامك أصبح للصوص!"

لم أعد أهتم بعد ذلك بطعام بيت الجدري. كانت الأفكار تأخذني بعيدًا؛ بعضها إلى الامتحانات التي اقترب موعدها، وبعضها إلى القرية: هل بدأ الحلّ القبلي يتحقق أم لا؟ وأبي الذي جاء من القرية ليقدّم نفسه رهينة ليُخرجني... ماذا لو أبقونا نحن الاثنين رهينتين؟ فكرت أيضًا في أخي الذي ارتكب فعلته، ومضى إلى أقاصي اليمن، متدثرًا بجناح قائد لواء عسكري رفيع وشيخ قبلي كبير.

كان ذلك يوم الخميس. حضر وكيل النيابة، الذي يتابع القضايا ويُخرج من حُبسوا ظلمًا أو تجاوزوا مدة احتجازهم. كنت قد سمعت من الجهمي، يومًا، أن قسم الشرطة لا يحق له احتجاز أي شخص أكثر من أربعة أيام، وكذلك المباحث. أما النيابة، فلها أربعة أيام يمكن لوكيلها تمديدها إلى خمسة وأربعين يومًا، وبعدها يُفرج عن الشخص إذا لم تُقدَّم أدلة، قبل إحالته إلى القضاء. وبذلك، فإن مكوث معظمنا في مقر المباحث باطل في مجمله؛ وقد مضى على الجديد فينا نصف شهر على الأقل.

نادى وكيل النيابة الأسماء، وهو يشير إلى مربعات في دفتره. لم ينادِ عمي حسين الفلسطيني؛ ربما سقط من كشوفات الحكومة، وصار كأكواب الشاي البلاستيكية... لا وجود له. وبينما كان ينادي، شطب بقلمه على أسماء عصابة الصافية، واثنين من المراهقين سمعنا أن والدتيهما قدّمتا تنازلات كبيرة لخروجهما.

تحوّل الأمر إلى احتفالية كبيرة بخروج خمسة من أبناء السجن. كان عميدها عمي ناصر، الذي وقف مستندًا إلى عكازيه في منتصف الساحة. لم أسأل صديقي علي بائع العنب، ولا عمي ناصر، عن المناسبة؛ فقد كانت واضحة. رفع عمي ناصر صوته وقال:

"أيها المساجين الكرام، يحتفل سجننا الحبيب بتخرّج دفعة جديدة من أبنائنا. منهم أفراد عصابة الصافية المحترمون، الذين سيخرجون إلى الشارع ليواصلوا بطولاتهم الجنسية، واثنان من ألذّ أبنائنا جسدًا وأطراهم طيزًا، ممّن تفوّقوا على أمهاتهم في النوم تحت الرجال! أيها المساجين الكرام، ونحن نحتفل بهذه الدفعة، ندعو لهم بالتوفيق في قطع طريق الآمنين وإمتاع المحرومين، ونقول لهم: نحن حزانى لفراقكم، فرحون بحريتكم. وقد تضاربت مشاعرنا... فلا نقول وداعًا، بل إلى لقاء قريب."

صفَّقنا، أنا وعبد الصمد وعلي، بائع العنب، وأخوه البدين، بينما اكتفى ولدا الجدري بابتسامة ساخرة. ثم بدأ عمي ناصر بالغناء، والمساجين من خلفه يشيّعون الخارجين:

- **يَمَنِي السعيدة... يا حمار يا ابن الحمار... يَمَنِي السعيدة!**

وأشار غاضبًا إلى الكورس، فردّدوا وراءه:

- **يا حمار يا ابن الحمار...**
- **يَمَنِي السعيدة!**

- **يا حمار يا ابن الحمار...**
- **يَمَنِي السعيدة!**
- **يا حمار ابن الحمار...**

الأغنية في الأصل عنوانها "نحن الشباب"، للفنان اليمني علي الآنسي، ومن كلماتها: "يا بن السعيدة لا تقل فات القطار.. أنت القطار بلا محطات انتظار"، لكن عمي ناصر حرّف كلماتها لتناسب بهجة السجن وسخريته في ذلك اليوم وفي ما سيلي من أيام مشابهة.

لم أعرف من كان يقصد بالحمار. كنت مهمومًا، ومع ذلك حاولت أن أستمتع بالمشهد، وأن أؤجل التفكير في الامتحانات أو في أي تطور في القضية. ظلّ وجهي شاخصًا نحو الباب، قلقًا من أن يدخل أبي إلى السجن. وكان خوفي الأكبر أن يُلقى به في السجن الآخر؛ حيث اللصوص والمنحرفون، والازدحام، والقذارة.

❊ ❊ ❊

الرهينة

ذهبتُ إلى بوابة السجن مرات عدة، أنظر من فتحة الشباك المربعة الصغيرة إلى الممر الطويل؛ حتى إذا ما رأيتُ والدي، سأشير إليه أن يحاول الدخول إلى هنا، لا إلى السجن الآخر. وقفتُ طويلًا عند النافذة، وعيناي معلّقتان بالممر بلا جدوى. لم أدرِ هل دخل والدي مبنى المباحث أصلًا، أم أنه اكتفى بإرسال خالي ليتتبّع الأوضاع.

كنتُ قد حسمتُ أمري: إن حالفني الحظ وخرجتُ لأداء الامتحانات، فذلك حسن؛ وإن بقيتُ هنا، فسأؤديها في العام القادم. تعبتُ من الانتظار حتى الحادية عشرة والنصف، وعدتُ إلى مكاني، لكن عيناي ظلّتا معلّقتين بالباب.

عند أذان الظهر، رأيتُ والدي يدخل من بوابة السجن. كان خالي قد أرشده أن يدخل من الباب الأيمن، كي لا يُلقى به في السجن المزدحم؛ سجن الفقراء واللصوص وسائر الأصناف. وما إن اجتاز والدي ممرّ السجن، بإذن النقيب في مكتب المباحث، حتى توجّه مباشرة إلى باب السجن الذي أنا فيه.

ظننتُ، بعد طول انتظار، أنه عدل عن الدخول، وأن وجوده خارج السجن أنفع من وجوده داخله. لكنه خيّب ظنّي حين رأيته أمامي، واقفًا، يحمل فراشًا وبطانية، وفي يده الأخرى طعامه. كانت تلك أول مرة ألقاه فيها منذ

دخولي السجن. بدا وجهه مكفهرًا ومتعبًا، كان السهر طوال الأيام الماضية قد أنهكه في القرية.

اتجهتُ إليه مباشرة، وانحنيتُ إلى ركبتيه أقبّلهما، كما تقتضي العادة. لم يكن أحد من السجناء يعلم أنه والدي، فاستغرب بعضهم هذا التصرف. لكن حين أخبرتهم، زالت دهشتهم. كان وجهه المكفهر وعيناه المجهدتان يشيان بما مرّ به في الأيام الماضية، وبما تعرّض له في الداخل عند المحققين، رغم أنه- قانونًا- رهينة لا متهم. لم يفكّ رباط فراشه، بل استلقى على فراشي مُنهكًا.

غضبتُ حين رأيته سجينًا، وهاجمته بحدّة:

- **أيش جابك؟!**

نظر إليّ مندهشًا من نبرتي:

- **جيتُ أخرجك عشان تروح تمتحن. كله إلا مستقبلك يا ابني. أنت مظلوم.**
- **مش مهم الامتحانات، باقي عليها شهر ونص، ولو ما خرجت هذه السنة بمتحن السنة الجاية، مش قصة. من مع أمي في البيت؟**
- **خالك، وعمك وزوجته، الكل في القرية.**
- **بس وجودك جنبها ثاني، أنت ستحل المسائل كلها.**
- **هههه يا سعم أننى الرئيس! كل حاجة على الشيخ، هو من سيحل هذه المواضيع كلها، خليني أرقد، أنا بلا نوم من أسابيع.**

ضربتُ على فخذي حانقًا، وأنا أراه يتمدّد، والراحة تبدأ تسري في وجهه:

- **بيخرجوني، والا بيجمعوننا واحد بعد واحد مثل الدجاج.**

بدت على وجهه أمارات القلق وبدا غير فاهم:

- **والله مدري! أنا دخلت السجن على أساس يخرجوك، هكذا قال خالك، علشان الامتحانات، وانا قلت والله ما تروح سنة كاملة من عمر ابنى بغير فائدة!**
- **وخالي بيعامل خروجي الآن؟**
- **بيعامل، بيعامل، شوية ونشوف الخبر.**

وفجأة جاء النداء من البوابة باسم والدي. خرجتُ مسرعًا، وما إن رآني السجّان حتى صاح:

- **مش أنت يا فصيح! هات أبوك!**

لمحتُ وجه خالي من خلف الأسوار. من تكشيرة وجهه، خمنتُ أنه لن يستطيع إخراجي. النقيب في المباحث صار موقفه أقوى؛ لا هو ولا دولته يقدرون على مواجهة قبيلتنا، لكنه الآن يملك ورقتين للتفاوض: أنا وأبي، في مقابل الجاني الحقيقي الذي تحميه قبيلتان، ومعسكره، وقائده- وهو من كبار مشايخ اليمن- المعروف بأنه يقدّم المشيخة على القانون، ولا يردّ من استجار به، حتى لو انهدمت العدالة كلها.

اتضح لي أننا لم نربح شيئًا من خطوة أبي، تلك التي بدت بطولية وغبية في آن. لم يبقَ في القرية إلا النساء والأطفال. لم أعرف ماذا قال خالي لأبي،

لكني كنت حانقًا وأنا أراه يخرج ثم يعود إلى أرض السجن مهمومًا. وما إن جلس على فراشي حتى قال ما كنت أعرفه سلفًا:

- **رفضوا خروجك من السجن!**

نظرت اليه دون اهتمام، نظرة الفاهم، العارف بكل شيء. قلت له:

- **قم من فوق فراشي وبعدين نتفاهم.**
- **وين أروح؟**
- **معك فراشك، روح ابحث لك عن بقعة، مش فاضي أنا للزحمة.**
- **أنا أبوك يا عاصي والديك.**
- **شفت نتيجة فعلتك! هل في واحد في حضن قبيلة طويلة عريضة يسلم نفسه للدولة! أنت في اليمن، في اليمن، في اليمن، أصبحنا إحنا الاثنين رهائن، بسببك.**

لم يعلّق على غضبي. تقبّل الوضع بسرعة على غير ما توقعت. وربما لم يكن الدافع بطولة خالصة؛ ربما كان يبحث عن مكان آمن للنوم والراحة، والمقيل، وخدمة لا تنقطع. هذا ما كنت أخشاه: أن يزاحمني في هذا "المنتجع" المريح. كنت أعرف والدي؛ يعشق حراسة القات في القرية، يسهر أيامًا لحراسة الأشجار من اللصوص. فكيف إذا تعلّق الأمر بأسرته؟ لا بد أنه لم ينم طوال الفترة الماضية.

ظلت الأفكار تدور في رأسي. لأول مرة منذ دخولي السجن، بدوتُ كالمجنون: أحدث نفسي بصوت خافت، وشفتاي تتحركان بكلمات غير مفهومة. لم يكن بيدي شيء أفعله. حتى فكرة أن أضرب رأسي في الحائط

بدت بعيدة؛ كيف لإنسان تربّى على الصبر والتعب أن يجرؤ على هذا الانفجار؟

ذهبتُ إلى بوابة السجن، نظرتُ طويلًا في الممر، كأنني أنتظر أيّ شيء- حتى قطة- تمنحني تفسيرًا لما حدث. ثم التفتُّ إلى أرض السجن، فرأيتُ والدي غارقًا في نوم عميق على فراشي.

مع الأيام، توطدت علاقة أبي بكبار السن في السجن. اكتشفوا فيه رجلًا طيبًا، محبًا للمزاح والنكات. حتى عمي هادي، صاحب صعدة، تعلّق به كثيرًا، ولم يكن يفارقه إلا للنوم. كانا يتحدثان طويلًا عن صعدة، وجماعة أنصار الله، وأفكارها، حتى بدا أن والدي معجب بالجماعة الشابة.

كنت أنام وعبدُه- سارق جنبية القاضي- عن يساري، ووالدي عن يميني، وإلى جواره ينام عمي مسعد. كنت أراهم ممددين، ينظرون إلى السماء عبر شبك السقف، ويتحدثون لساعات عن الإمام، وعن زمن ما قبل الثورة، ثم عن أيام السمن البلدي والعسل، والنساء البسيطات الخاليات من التصنّع وأدوات التجميل. أما عمي ناصر، فانسجم مع والدي، ووقّره لكِبر سنه. كانا يتحدثان عن التعب في تربية الأبناء، وعن مشاكلهم، وكيف قد يُؤخذ الأب بجريرة ابنه.

استمرت الحياة في السجن على رتابتها اليومية المملّة، باستثناء هذا التغيير الوحيد: وجود والدي معي خلف القضبان.

***

ومرّت الأيام، ربما بلغت أسبوعًا، ولم ينادِنا أحد، باستثناء خالي الذي كان يحضر لنا الطعام اليومي في مواعيده كما هو معتاد. كان ذلك رغم أن والدي كرّر أكثر من مرة أن شيخ القرية أعطاه ضمانة شخصية، في إحدى جلسات المقيل التي كانوا يقيمونها لحل المشكلة، بأنه إن سُجن فسيسعى إلى إخراجه، ولو بدخوله هو بدلًا عنه، متذرعًا بكِبر سنّ والدي، وأنه لا يرضى لكبار السن في القرية أن يُهانوا في آخر العمر. لكن يبدو أن الشيخ تراجع عن كلامه في النهاية.

انقطع الماء في اليوم الأول من الشهر الثاني لي في السجن. كنت أظن أن مجيء والدي نذير شؤم، ثم بدأت أقتنع بذلك؛ فمنذ أن جاء، وأنا مقيّد الحركة، مراقب على مدار الساعة. كان يعتقد أنني أتعرض لمضايقات، وأنني ما زلت طفلًا في محيط سجناء لا يرحمون. هو لا يعرف أنني أشعر بالأمان معهم أكثر مما أشعر به بجانبه وتحت جناحه.

كانت تلك أيضًا أول مرة يدخل فيها السجن. ربما كان يظن أن السجن عالمٌ من الأخطار والمضايقات. ورغم صداقاتي مع ابنَي الجدري، ومع علي بائع العنب، وعبده سارق جنبية القاضي، الذين كانوا يأتون إليّ أو أذهب إليهم، فإن والدي أوقف ذلك، زاعمًا أنهم يؤثرون عليّ بأفكارهم الإجرامية. لقد نسي ابنه المجرم الحقيقي الهارب في أقصى أطراف اليمن!

بعد صلاة المغرب، وعقب دخول الجندي الذي يعدّنا كالأغنام، واحدًا تلو الآخر، ليتأكد من كشوفاته، فتحتُ حنفية الحمام، فلم تنزل منها قطرة ماء.

أخذني الغضب بعيدًا. فمنذ دخول والدي، أصبحت عصبيًا، غير قادر على كبح نفسي. ذهبت إليه وأنا أصيح:

- **انقطع الماء وأنا عطشان، هذا كله بسببك؟**
- **أنا من قطعت عليكم الماء!**

هاجمته بشكل أعنف:

- **من يوم جئت وكل شيء تغير، لم يعد السجن كما كان، ما جاء بك! مالك ما تجلس في قريتك وبيتك؟**

لم يردّ والدي، طمعًا في تهدئتي، لكن عمي هادي دافع عنه:

- **استحي على نفسك، لا تكلم أبوك هكذا، هذا جزاؤه؟ جاء يخرجك من السجن!**

وجدت في عمي هادي هدفًا سهلًا أفرغ فيه غضبي، فصحت به:

- **وهل خرجت! أنا أمامك، ما خرجت، لم يتغير شيء، أنا أعرفه، يحب يظهر بمظهر البطل الذي جاء ليحمي ابنه لا ينيكوه المساجين! جاء على أساس إنه يحرسني! ممن؟ ممن؟ هو لا يثق بي، طول عمره لا يثق بي!**

ذهبت إلى علي بائع العنب، وجلست عنده ما تبقى من الليل. مرّت الليلة كاملة دون أن ألعب الورق مع عمي مسعد، ودون أن أكلم والدي كلمة واحدة. وحين أبدى اعتراضه على نوم عبده بجانبي ومشاركتي الفراش، قلت له بهدوء مشحون بالغضب:

- **ما دخلك، هو ينام معي من يوم ما دخل، لا تتدخل، تمام؟**

لم يكلمني والدي في اليوم التالي، ولم أكلمه. لم يبقَ على الامتحانات سوى شهر تقريبًا، ورقم الجلوس ما يزال في جيبي. لكن الكتب ممنوعة من الدخول إلى السجن، وكذلك الأقلام، حتى لا يرسل أحد رسالة إلى شركائه أو ما شابه. لذلك، لم يكن هناك أي مجال للمذاكرة. مرّت لحظات فكّرت فيها أن أحرق رقم الجلوس، لأحسم أمري بأنني لن أدخل الامتحانات هذا العام، وأن هناك فرصة في العام القادم... إن خرجت. فحبال الدولة طويلة؛ قد تمتد أعمارًا، وعقودًا، وربما قرونًا.

أبدى عمي هادي تعاونًا كبيرًا مع والدي في مسألة الماء. كان يشتري، من ماله الخاص، مياه "الكوثر" للشرب والوضوء، بينما بدا والدي كمن يستسيغ هذه المكرمة، صامتًا، مستمتعًا بها. وقد تعاطف معه بشدة في إحدى نوبات الصرع التي أصابت عمي هادي، فهرع إلينا صارخًا:

- **هادي بيموت!**

اندفع الشباب للإمساك به، بينما نظرتُ أنا إلى والدي بعينين نصف مغمضتين، وقلت بهدوء بارد:

- **مالك أنت! أول مرة تشوف واحد فيه صرع! على خوفك هذا، أنت من تحتاج حراسة لينيكوك، صورتك مش رجاال.**

كانت ضربة قاسية له تلك الليلة، وشعرتُ بعدها بنوع من الانتصار، كأنني طعنته بكلمة جارحة. من دخل مرتديًا رداء "سوبرمان"، اكتشف أنه مجرد

إنسان، عاجز، لا يستطيع أن يحمي حتى قطة.

***

بدأ الجميع يتبرّم من انقطاع الماء، وزاد الأمر سوءًا انقطاع الكهرباء المتكرر. كان المراهقون في الغرفة المنفصلة يصرخون فرحًا، ويعبثون فيما بينهم بصخبٍ يحمل إيحاءات جنسية، رغم براءته. أما شراء الماء من الخارج، فكان مكلفًا؛ إذ تضاعف سعر العبوة، التي لا تتجاوز لترين. كانت بالكاد تكفي للشرب، لكن ماذا عن الوضوء؟ وماذا عن الحمام، الذي فاحت رائحته وملأت المكان؟ حتى والدي، الذي يملك أراضي واسعة في القرية، صار يعتمد على قات بيت الجدري، رغم قدرته على طلبه يوميًا من مزارعه!

بعد أسبوع، عادت المياه. بادر عمي ناصر إلى شراء الصابون، وأمر بتنظيف السجن بعدما صارت رائحته تصل إلى الخارج. وكالعادة، كنت أنا، وعلي بائع العنب، وعبده، ورياض، أول من بدأ العمل.

اعترض والدي على قيامي بالتنظيف، وحاول انتزاع المكنسة من يدي، فانتزعتها منه وعدت إلى العمل، وأنا أقول:

- **نحن هنا أسرة واحدة، مافيش حرج في تنظيفي منزلي الجديد.**
- **أنت ما مسكت مكنسة طول عمرك في البيت يا ابني.**
- **الذي ما ربوه أهله يربوه الناس، خليني أتعلم كيف أمسك بالمكنسة.**

كان دخوله السجن صدمة جعلتني أرفض وجوده تمامًا. أخذه عمي هادي وعمي حسين بعيدًا، بينما صاح عمي ناصر بوالدي:

- **ما دام ما حيخرج يمتحن، خليه يتعلم الكنس ويخرج يشتغل مُكَنِّس في البلدية.**

ضحك الجميع. وضحكتُ ضحكة قصيرة، ثم عدت إلى العمل. لم ينجح أحد في تغيير موقفي تجاه والدي. ظللتُ متجهمًا، وقررت ألا أبتسم له حتى يخرج.

مرّ اليوم بطيئًا، حتى جاء خالي بالعشاء مبكرًا، قبل عشاء بيت الجدري أو أي عشاء آخر. كان والدي معتادًا على تناول عشاء وفير بعد القات، مع الحليب، فقدّمت له الطعام وجلست بجواره، وجوار عبده الذي لم يكن يتحدث مع والدي تضامنًا معي. جذب والدي الإناء نحوه وقال له:

- **انتظر عشاء بيت الجدري، هذا العشاء بالكاد يكفيني.**

نظرت إليه بذهول، كأنني أمام رجل فقد صوابه. قام عبد الصمد مخذولًا، فأعدته إلى مكانه بعنف. لم يحتج والدي أكثر من هذه الحركة فأمسك بإناء الفاصوليا، وقذفه أرضًا، فتناثرت في كل اتجاه، ثم خلع حزامه وانهال عليّ ضربًا، وهو يصيح:

- **"إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم". رجعت لي عدو داخل السجن يا ابن القحبة!**

أبرحني ضربًا وأنا أصيح:

- **وأنت أيش الذي جاء بك لعندي؟ اخرج من هنا خرجت روحك!**
- **وأنت مالك تتحضن صاحب ذمار، أيره كبير! أو مه؟**

وضحك عمي ناصر وهو يصيح:

- **أكيد، ذماري! والذماري بصنعانيَين!**
- **شعللها يا عم ناصر، شعللها.**

قمتُ من الأرض أحاول دفع أبي إلى الخلف، ونجحت في ذلك حتى كاد يسقط على ظهره. عندها ضربني عمي ناصر بعصاه وهو يصيح:

- **أبوك يا عاصي والديك، يضربك لوما يشبع. لا أسمع لك نخس، وأتحدى واحد يجي يفكك منه، خليه يضربك لما تطيب نفسه!**
- **يخرج من السجن يا عم ناصر ما جاء به لعندنا؟**

فعاد عمي ناصر يضربني بعصاه:

- **هذا أبوك يا تافه، وبعدين مش حق أبوك السجن تطرد منه الذي تشتي.**

رضختُ لكلامه. بالفعل، السجن ليس لي، ولا أستطيع إخراج أحد منه بالقوة. أمسكتُ بيد عبدالصمد، وخرجت به إلى غرفة المراهقين، ثم إلى النافذة المطلة على مطعم السجن. اشتريت له سندويشات وشايًا، وقلت له:

- **كلها أنت. أنا معي!**

نظر إليّ مندهشًا، ثم أكل ما أعطيته. لم أشرب أنا إلا كوبًا واحدًا من الشاي؛ كنت أحاول أن أهدأ. فيما بعد، أبعدتُ فراشي عن فراش والدي، ولم أكلمه

حتى خرج من السجن. بعد ثلاثة أيام من حادثة ضربي، نفّذ شيخ القرية وعده. جاء إلى صنعاء، والتقى بمدير المباحث، وقدّم له ضمانات قبلية، وكميات كبيرة من القات والنقود، فخرج والدي.

كان ذلك في الخميس الثاني من شهري الثاني في السجن، وبداية الأسبوع الثالث لوالدي فيه. عند خروجه، ناولني كل ما كان في جيبه من نقود، لكنني رفضت أخذها، فدسّها في جيب عبدالصمد.

كانت حياتي معه داخل السجن محنة ثقيلة. لم أعرف كيف احتملت وجوده طوال تلك الفترة. سألت نفسي مرارًا: عندما أخرج، هل سيقبلني في بيته؟ وهل سأذهب إليه أصلًا؟

لا أعرف!

***

لم يخرج والدي وحده في ذلك اليوم. كانت سعادتي بخروج والدي تضاهي غضبي من دخوله. كان يوم خميس، وهو اليوم الذي يأتي فيه وكيل النيابة ليراجع الكشوفات، وينظر في الأسماء التي حان وقت خروجها. خرج معه اثنان من المراهقين، و"الجمرة"، المناضل السياسي، كما كان يلقّب نفسه. كان قد استعد للخروج قبل وصول وكيل النيابة، بعد أن أخبره أهله بتحركاتهم.

لم يفوّت عمي ناصر الفرصة. وقف في مكانه المعتاد، كما يفعل في "حفلات التخرج"، وألقى خطبته:

"أيها المســاجين الكرام، للمرة الثانية نودّع أبناءنا الخارجين إلى المجهول... منهم اللوطيون، ومنهم والد ابننا الحبيب سهيل- عسى أن تعود البســمة إلى وجهه بعد خروج والده- ومنهم معارضــنا السياسي، السكران، العريان، الذي سيخرج ليناطح الحكومة رأسًا برأس، ويشـرب الخمر ويضـاجع المومسـات... نودعهم كما ودعنا من قبلهم وكما سيودعنا من بعدنا."

وصدح بأغنيته المشهورة:

- **يمني السعيدة.. يا حمار يا بن الحمااااار**

توقّف، والتفت إلى الخلف بنظرة غاضبة نحو الكورس:

- **يمنى السعيدة، هيا يا جن!**
- **يا حمار يا بن الحمار**
- **يمنى السعيدة.**
- **يا حمار يا بن الحمااااااار**

عدنا بعدها كلٌّ إلى مكانه. لم نكن سـعداء تمامًا بخروج من ألفناهم وأحببناهم، لكن ميزة عمي ناصــر أنه يصــنع الفرح، حتى في أكثر اللحظات قسوة.

عدتُ للعب الورق مع عمي مســعد، بالحماس نفســه الذي كنت عليه قبل دخول والدي. لم يدخل أحد السجن في ذلك اليوم؛ فغالبًا ما يكون الخميس يومًا للإفراج عن المساجين.

في تلك الليلة، بدأت أفكر: ماذا سـأفعل؟ الامتحانات اقتربت كثيرًا، والأيام المتبقية لا تكفي للمذاكرة، خاصـة مع منعي من إدخال الكتب والأقلام. وحتى لو خرجت غدًا، فلن يكون الوقت كافيًا. شـعرتُ أنني لن أدخل قاعة الامتحان. عندها، فكرت بجدية في تمزيق رقم الجلوس الذي ما يزال في جيبي.

كان عمي فريد، العضـو الثالث في عصـابة الأموال، قد بدأ ينتظم في الجلوس على فراشي كل ليلة، هربًا من حرارة الغرفة التي يسكنها. صارحني ذات مرة بأنه يسـتطيع- إن أردت- أن يشـتري لي شـهادة، أو يدبّر شـخصًـا يدخل الامتحان بدلًا عني. كل ما يحتاجه هو رقم الجلوس، وسيتكفّل بالباقي؛ فله علاقات واسـعة خارج السـجن، بحكم سـنوات عمله الطويلة في قطاع التعليم.

- **ثلاثون ألف ريال يا سـهيل وسـيكون لديك شـهادة ثانوية عامة في يدك!**

لم آخذ كلامه على محمل الجد، ثم إن المبلغ كبير. لم يكن بذلك القدر المخيف، لكنه بالنسبة لي كان كذلك. ظللت صامتًا كأنني أفكر، وربما كان صمتي هذا رفضًا بالنسبة له، لا أعرف. نهض من مجلسي وهو يقول:

- **كما تريد يا ابني!**

ظننتُ في تلك الليلة أنه سـيهجرني. لكنه في الليلة التالية جاء يحمل إليّ علبة بلاستيكية مليئة بمربّى الجزر، رائع المذاق كالعادة، وهو يقول:

- **علشان يدفئك يا سهيل، ما نفعل، أحدنا يبحث عن البرودة والآخر يبحث عن الدفء.**

***

في صبيحة أول أيام الأسبوع التالي، بدأت الوفود تدخل إلى السجن. بعضهم ذهب إلى السجن الآخر، والبقية- ممن لم يُغضب عليهم- جاءوا إلى سجننا العائلي. لم أهتم بهم كثيرًا، إذ كنت مشغولًا بالأيام القليلة المتبقية على الامتحانات. لكن عبده، حاول تسليتي بكل الطرق؛ راح يسرد لي قصص السجناء الجدد؛ ما قالوه بأنفسهم، وما يُشاع عنهم، وما يُظن أنه الحقيقة.

كان السجناء الجدد ثلاثة فقط. الأول في الأربعينيات من عمره تقريبًا، يتكلم بلهجة شامية، يبدو أردنيًا أو فلسطينيًا. جلس بجانب عمي حسين، وكان أنيقًا للغاية، يرتدي بدلة بنية مع ربطة عنق بنية مزخرفة بدوائر ذهبية. أما الآخران، فكانا معًا؛ أكبرهما أسمر، يبدو من هيئته أنه جندي قادم من معسكرٍ بعيد في الصحراء. والآخر قمحيّ اللون، حليق اللحية والشارب، بعينين ناعستين وشفتين متورمتين. وقد عرفت من عبدالصمد أنه قُبض عليهما في أحد فنادق شارع تعز، حيث تُعرض قنوات أفلام إباحية، وكانا في وضعٍ مخلّ، يطبّقان ما يشاهدانه.

لم يتناول رجل الأعمال الأردني- كما عرفنا لاحقًا- طعامًا طوال اليوم. كان غاضبًا وحزينًا، استلقى في المكان نفسه الذي يستلقي فيه علي الجمرة. أما

الآخران فناما في مكانٍ فارغ في المنتصف، ولم يعترض أحد على نومهما بجانب بعضهما. كانت "الديمقراطية" هي الغالبة نسبيًا في السجن، خصوصًا أن المفعول به كان في منتصف العشرينات، وليس من المستحب أن ينام مع يوسف المراهق، وهو الوحيد المتبقي من الصغار. لم يكن في السجن طاغية سوى عمي ناصر، ومع ذلك كانت ديكتاتوريته محبوبة إلى حدٍّ بعيد.

في الليل، لم نستطع النوم. كان شخير الأردني مزعجًا إلى حد الجنون، كأن على فمه مكبر صوت. كان صدى شخيره يصل إلى الغرفة الكبيرة ويرتد منها، فيتجاوب مع شخيرٍ أخفّ من عمي فريد البدين، وأحمد، شقيق علي بائع العنب، البدين هو الآخر. كدت أجنّ وأنا أتقلب بجانب عبدالصمد. رفعتُ يده اليسرى فوق أذني ونمت على صدره، محاولًا سدّ أذني بها، لكن الصوت كان يخترق الجدران والأجساد معًا. عبدالصمد أيضًا لم يستطع النوم، لكنه رضخ بصمت على ما فعلت. أما عمي مسعد، فكان يقوم كل خمس دقائق من جلسته، يتربع وينفخ بغضبٍ مكبوت. وعمي حسن الفلسطيني لم ينم هو الآخر؛ إذ زاد الشخير من قرص براغيثه التي استعمرت فراشه.

صرختُ:

- **من أين جاؤوا لنا بهذا البلاء؟ كيف نحتمله؟ يا عم ناصر، واضح أنه من علية القوم، خذوه عندكم!**

جاءت ضحكة عالية من الغرفة الكبيرة، تلتها قهقهة مرِحة من عمي ناصر:

- **حبيبي يا سـهيل، قد كنا نحسـدكم على الهدوء عندكم. الآن عندنا اثنين من الدببة القطبية: "سواء سوا يا عباد الله متساوية، ما أحد ولد حر ولا الثاني ولد جارية".**
- **نتبادل يا عم ناصر، الله يطول لنا في عمرك.**
- **أبدًا، اعملوا به مثلما نفعل بالذي معنا، اقلبوه على الشـق الثاني، يمكن رقد وهو مسـدد، أو صـحُّوه من النوم يروح ينظف مناخيره، بيخف الشخير للنص على الأقل.**
- **ما نقدر، الأردني مئة كيلو على الاقل، كيف نقلبه؟**

لم يجبني إلا بضـحكة فرِحة، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة ليرانا نتعذب كما يتعذب كل ليلة.

كان عمي مسـعد جالسًـا، متدثّرًا ببطانيته، ينظر بحنق إلى أرض السـجن، يتفقد من نام ومن لم ينم. بدا أن كثيرين لم يستطيعوا النوم، لكنهم صابرون بصمت. وظللنا ننظر إلى الأردني بغضب مكبوت.

أخذتُ الورق من جانب عمي مسعد، فحدّق بي صامتًا، ثم لففت نفسي أنا وعبده في بطانية واحدة، واتجهنا إليه. فهمنا فورًا، فاستدار نحونا وبدأنا لعب الورق حتى الصباح، على أنغام شخير الأردني.

صـباحًـا، وكـالعـادة، رنّ الجرس المزعج ونحن مسـتيقظون: متعبون، منزعجون، جميعًا بلا اسـتثناء. اسـتيقظ الأردني أخيرًا، نشـيطًا إلى حدٍّ ما،

بينما كنا ننظر إليه بغضب، وهو يبادلنا نظرة بلهاء، كأنه لا يدري ما فعله بنا.

نام عمي مسعد وعبده، سارق الجنبية، أخيرًا، حتى مع إزعاج الصباح والنداء بأسماء المساجين لتسلّم الإفطار من عائلاتهم. أما أنا فلم أستطع النوم مطلقًا، خصوصًا مع ضوء الشمس الباهر الذي كان يضرب أرضية السجن بلا رحمة. كنت أرمق وجه عبدالصمد بغضب وهو نائم بجانبي تمامًا.

جيء للأردني بإفطار مميز للغاية من جهة لا نعرفها؛ سندويشات بيض وجبن ولحم، وبرغر صباحي. أضحكني عمي ناصر حين أسماها "الكُدمة الأمريكية". ومع ذلك، لم يتناول الأردني منها لقمة واحدة، فمنذ صباح الأمس لم يقرب فمه طعامًا ولا شرابًا.

ذهبتُ إليه لأطمئن على حاله، بسبب امتناعه عن الطعام والشراب منذ الأمس. وبرغم أنني كنت غاضبًا منه، إلا أنه من عائلتي، ويجب أن أحبه وأخاف عليه.

- **ليش ما تأكل؟ عتموت من الجوع.**
- **أنا مظلوم!**
- **كلنا مظلومين، ونأكل مثل البقر، حاول تأكل.**

بدا الأردني مقتنعًا بكلامي، وأظهر مودةً مفاجئة تجاهي، وأصبحت عيناه بريئتين للغاية. ربما كان يظننا وحوشًا داخل السجن، فتقوقع على نفسه. قدّم لي طعامه، فأكلته كله، ولم أترك له حتى لقمة صغيرة.

يا له من طعمٍ لا يُضـــاهى! بعد أســـابيع من فاصـــوليا خالي وفول بيت الجدري...

لاحظ عمي ناصـــر ما فعلت، ونظر إليّ نظرة فهمتُها جيدًا: كأنه يقول إنني انتقمت لنفســـي بأكل فطور الرجل المســـكين. رددت عليه بنظرة مماثلة: يستاهل!

ضـــحكنا معًا بصـــوت عالٍ، فالتفت إلينا الجميع بدهشـــة، فأشـــار إليهم بما يعني:

- **سهيل فاهم، لا تحشروا أنفسكم.**

عاد عمي ناصـــر إلى باب الحمّامات، وبدأ يخلع قميصـــه ومعوزه، ولم يبقَ عليه ســـوى ســـرواله الداخلي. تحركت عائلة بائعي العنب بخفة، يملأون القوارير ويســـكبون الماء عليه، بينما يرفع ســـاقه المجبّرة حتى لا يبللها فتتعفن. وبدوري أخذتُ قوارير فارغة، واتجهت نحوه، وصفعت كفه بكفي إشارةً إلى اتفاقنا السري. نظرت إليه وأنا أبتسم:

- **أنا من بيغرف لك الماء.**
- **يطوِّل لي في عمرك يا ابني، أخدمك في فرحك.**
- **لكن برجليك الثنتين يا عم ناصر، مش برجل واحدة.**
- **بيدي ورجلي وأسناني، مالك، أنت غالي!**

كان عاصي، صـاحب قميص الشيفون، يحدق في صـدر عمي ناصـر الكثيف الشـــعر، وكذلك الشـــاب الجديد، ترك صـــديقه العســـكري وبدأ يحدق هو

أيضًا، وعندما هممنا بتنشيف عمي ناصر نظر إلى الشابين وهو يحك صدره:

- **أولادي تعبوا في غسلي، تعالوا أنتم نشفوني، خضّروا قلوبكم شوية!**

انفجر السجن كله ضحكًا، حتى الأردني شاركنا الضحك. واستمر الضحك لوقت طويل.

لم يمكث الأردني في سجننا سوى ستٍ وثلاثين ساعة. خرج بعدها مكرّمًا، بعد أن اعتذر له السـجّان، وربما اعتذر له كل من له رتبة في المباحث. ولم يكد المؤذن يؤذن للعصر حتى نادوا عليه للخروج.

جاء إليه سلطان، بائع المسروقات، يساعده في حمل فراشه وبطانيته، لكن الأردني أخبره أنه لا يريدهما؛ لأنهما في نظره قد "اتّسخا" في السجن؛ رغم أنهما جديدان بغلافيهما البلاستيكية.

وهكذا، أصبح سلطان- الذي كان يفترش شاله- يمتلك فجأة أفضل فرشٍ وبطانية في السجن، وأنظف وأغلى ثمنًا. ربما كان ذلك تقديرًا إلهيًا!

لم نعرف قصة الأردني الحقيقية؛ فلم يتحدث مع أحد. ربما كنتُ أنا الوحيد الذي تحدث معه خلال فترة الصباح. وبعد رحيله، بدأ الحديث عنه يدور بحرية أكبر مما كان في حضوره.

صاح عمي مسعد فور خروجه:

- **دخل وخرج في يوم وليلة! أكيد يشتغل في السفارة الأردنية! صورته دبلوماسي، باين من شخيره أنه دبلوماسي.**

وصرخ عمي ناصر من الداخل:

- **الوساطة يا مسعد، المسكين هو حسين الذي عفن في السجن وأكلت البراغيث عظمه وجلده ولا أحد أخرجه حتى ولو زكاة أو صدقة تحتسب له عند الله!**

لم يجب عمي حسين الفلسطيني على كلام عمي ناصر، بل حرّك رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ثم إلى الأعلى والأسفل، وكأنه يقول: "نعم" و"لا"، في آنٍ واحد.

- **يا عم ناصر، عمى حسين يشير أنه يريد ولا يريد أن يخرج من السجن.**
- **قد أكلت الحشرات مخه يا سهيل.**

ولم يعلّق عمي حسين، وظل منشغلًا بتفلية فراشه من البراغيث، وكأن هذا العمل أشبه بأشغال شاقة مؤبدة عليه داخل السجن.

كنت جالسًا، وبجانبي عبدالصمد، وبائعا العنب، وابنَا الجدري، وعمي مسعد، وعمي فريد. كنا جميعًا مستندين إلى الجدار، نواجه الشمس لنتدفأ، ونمضغ القات.

عرفتُ فيما بعد، أثناء تناول القات/ "التخزينة"، أن الشاب الجديد الذي جاء بالأمس اسمه هشام، وأن صاحبه الجندي اسمه محمد. كانا في الجهة الأخرى من السجن، بينما في الجزء المظلل كان عمي ناصر ممددًا رجله على الأرض، والحاج ناصر يعصر القات في عصَّارته ثم يلتهمه، وكل ربع ساعة يذكّرنا بالصلاة على النبي. وكان عمي هادي يجلس بجانبه، والقباطي

قربهم. كان مَقيلًا ممتعًا لا يُنسى، دارت فيه كل الأحاديث الممكنة: قصص، سياسة، جنس، وغير ذلك.

عمي ناصر: سيد الأحاديث الممتعة ذات الخلفية الإباحية.

الحاج ناصر: سيد الأحاديث الدينية والتذكير بالصلاة على النبي.

عمي هادي: سيد أحاديث القبيلة والبداوة وأنصار الله.

عمي مسعد: سيد الحكايات الزوجية وطرائقها، ويبدو أنه عاش حياة كوميدية مليئة بالذكريات المضحكة مع زوجته.

ابن القباطي فقط لم يندمج معنا، وظل يمضغ القات بتلذذ، ويصب قطرات من الكوكاكولا في فمه من قارورة بلاستيكية كعادته، وكأنه يعيش في عالم آخر.

حاول عمي ناصر أن يطمئن على الامتحانات، فأجبته:

- **باقي من الزمن أيام يا عم ناصر ومافيش إمكانية أنني أخرج خلال هذه الأيام.**
- **عتخرج إن شاء الله، وإلا كلِّم خالك يتكلم مع مدير المباحث يخصص لك عسكري يذهب بك ويرجع بك من قاعة الامتحانات وتعطوه قيمة تخزينته وغدائه، ألفين ريال مش كثير، أوفرها لك أنا يا ابني.**

ثم التفت إليّ علي الجدري وقال:

- **خلها على الله يا سهيل، وخصوصا أني شاهدتك تصلي، أنت عاد**

قلبك طاهر وصلاة واحدة منك في الشهر تساوى صلاة سنة ممن قلوبهم سوداء!

أشحتُ بعينيّ عن عينيّ علي الجدري؛ خوفًا من أن يكتشف أنني لا أصلي حبًا في الله، بل خوفًا من مدير المباحث، وعيونه المنتشرة، حتى لا يعيدني إلى السجن الآخر.

❊ ❊ ❊

الامتحان

لم تمضِ ساعات حتى تحققت نبوءة عليّ الجدري. فقد أحضر خالي طعام العشاء، وهو يحمل خبرًا سعيدًا عن خروجي لحضور الامتحانات، بعد أن تكفّل صديق له في المباحث، وتعهد بنفسه أن يذهب بي ويعيدني إلى السجن يوميًا، مجانًا وبسيارته.

سرد خالي ما قام به من مساعٍ خارج السجن ليضمن حضوري الامتحانات والمبالغ التي دُفعت لقاء ذلك. قال لي إن قائد المعسكر الذي ينتسب إليه أخي اتصل بمدير المباحث وأخبره أنه وعد بحماية شقيقي. وتحدث خالي أيضًا عن تحركات أهل القتيل، وعن والدته التي جاءت إلى السجن لتستدرّ بدموعها عطف مدير المباحث، وتطالبه بمنع إخراجي حتى لا أفر.

سألت، وأنا أقف أمام خالي في الجهة الأخرى من الشباك:

- **لماذا يريدون تحطيمي؟ ماذا فعلتُ بهم؟**

لكن خالي تجاهل سؤالي وقال:

- **أنت لن تخرج من السجن إلا للذهاب إلى الامتحانات والعودة مباشرة. لا ورق، ولا كتب، ولا أقلام ستدخل، حتى لا تُستغل في تمرير الرسائل بين السجناء وأهاليهم. لكننا في البيت مطمئنون إلى ذكائك، وأيًا كان المعدل الذي ستحصل عليه، فنحن راضون به.**
- **ومن دفع كل هذا؟**

- **أبوك. قال إنه مستعد لبيع كل ما يملك علشان تخرج تمتحن وتنجح.**

حينها ندمتُ على معاملتي الفظة لوالدي طوال فترة سجنه. لقد دخل السجن خصيصًا ليحرسني مما كان يظنه خطرًا عليّ، وليحاول إخراجي ولو بأن يسجن نفسه بدلاً عني. ومع ذلك، كنت أقابل عطفه بغلظة، وجعلت حياته داخل السجن أشبه بالجحيم. عاهدت نفسي ألا أغضبه أبدًا بعد خروجي.

- **سيرافقك صديقي إلى المدرسة، وينتظرك حتى تنتهي من الامتحان، ثم يعيدك إلى السجن إلى أن تنتهي الامتحانات.**

تناولتُ منه جدول الامتحانات، وعدتُ إلى الداخل. وكان أول من بادرني بالحديث عليّ الجدري، الذي بدا كأنه يعتقد أن كرمه في إطعام الجائعين فتح له الله بابًا للتنبؤ.

- **قلت لك: الله معك ما دمت مع الله.**

أخذني عمي فريد جانبًا، وتفحّص رقم الجلوس، ثم هزّ رأسه كأنه يخطط لشيء:

- **عرفتُ مركزك الامتحاني، ولا تشيل هم. كل التسهيلات ستكون متوفرة لك، مدراء المدارس كلهم أصحابي. معك زيّ مدرسي؟**
- **لا.**
- **ابني بيجيب لك واحد من حقه. معه أكثر من ثلاثة. هو في مثل**

حجمك، ولو احتجت لأي شيء، تعال لعمك فريد.

اقترب مني عبد الصمد وقال:

- **عتخرج وما عاد نشوفك؟**
- **لا، خروج ورجوع يومي إلى السجن.**
- **عتهرب؟**
- **أبدًا، أبدًا... أشعر بالأمان هنا أكثر من أي مكان آخر.**

بدا عليه الفرح، وربما كان يحبني، أو يشعر بالأمان بقربي، أو ربما كان يخشى فقدان من يحميه داخل السجن. لست أدري.

جاء بائع العنب وشقيقه، وقالا:

- **تقدر تتجول بعد الامتحان؟ نريدك أن تذهب لبعض الأماكن لخدمتنا!**

لكن خيبة الأمل بدت عليهما حين عرفا أن صديق خالي سينتظرني يوميًا عند باب المركز الامتحاني ويعيدني مباشرة إلى السجن.

كان يوسف آخر من تبقى من المراهقين. جاء إليّ، ونظر إليّ بنظرته المعتادة، المليئة بالمودة والشوق، واحتضنني بشدة:

- **كنت خائف جدا والآن فرحان، أنا متأكد إن هذه مرحلة وبعدها تخرج!**

احتضنتُ خده الصغير بكفي وأنا أشكره. كنت أحبه، لا كما يحبني، بل كأخٍ صغير لم تستطع والدته المسكينة أن تخرجه كما خرج أصدقاؤه قبله.

صرخ عمي ناصر:

- **اترك الصبي يذهب لغرفته يا سهيل، مافيش وقت، من الآن تبدأ تذاكر.**

جاء الحاج ناصر، هو أيضًا رهينة مثلي. هو بسبب ابنه الهارب إلى مكان مجهول، وأنا بسبب شقيقي الهارب إلى معسكره. ناولني مصحفه الصغير وسأل:

- **ما هو أول امتحان؟**
- **القرآن الكريم والتربية الإسلامية؟**
- **ما هي السورة المقررة عليكم؟**
- **النور.**
- **ممتاز، أنا حافظ لها، اقرأها من المصحف حقي وبكرة الليل أَسمِّعْها لك.**

في تلك الليلة، جلست أقرأ سورة النور مرارًا. كان السجن هادئًا على غير العادة؛ حتى عمي مسعد كان يلعب الورق بهدوء مع عبده، سارق الجنبية، وهشام، الذي كنت أراه يضغط على فخذ عبد الصمد فرحًا مع كل انتصار يحققانه في اللعب، إذ كانا فريقًا في مواجهة عمي مسعد ورياض، حارس المستشفى.

هذا الهدوء جعلني أقرأ السورة بمودة وتركيز. ربما كانوا يحترمون القرآن، وربما كانوا يساعدونني بصمتهم على الحفظ. كان ذلك في اليوم الخامس

والخمسين لي في السجن، عشية بدء الامتحانات.

فجأة، دخل ثلاثة سـجناء جدد، وبدا أن المكان يزداد اكتظاظًا. اثنان منهما كانا يبدوان صـديقين؛ بشـرتهما داكنة، يرتديان ثوبين طويلين داكنين، نحيفا الجسد، وشعرهما طويل غير مرتب. أما الثالث، فكان أبيض البشرة، يحمل شاربًا كثيفًا فوق شفتيه الحمراوين، كأنهما مطليتان بأحمر شفاه.

ومع ذلك لم أركز عليهم كثيرًا، وانهمكت في حفظ سـورة النور. كان أمامي الكثير لأحفظه إن أردت النجاح هذا العام. ومع ذلك، لم يتركني فضـولي؛ فأرسلت عبد الصمد ليستكشف قصصهم: ما يُقال عنهم، وما يروونه هم.

تأخر طويلًا؛ فلم يكن بمهارة علي بائع العنب في هذا الأمر. وعاد وقت العشاء، بينما كنت آكل وأقرأ القرآن بفم ممتلئ. ضحك عبد الصمد وقال:

- **منظرك مضحك وأنت تذاكر بهذا الشكل!**
- **مافيش وقت يا عبود، مافيش وقت.**
- **توقف عن المذاكرة دقائق لأحكي لك قصـص السـجناء الجدد، بشرط تأكل مثل الناس.**

وضعتُ المصحف جانبًا، وركّزت على الأكل، ثم حدّقت فيه ليبدأ.

- **الأول والثاني: رزق وهيثم. يسرقان قناني الغاز من البيوت. في واحدة من عملياتهما الفاشلة، دخلا بيتًا فأحسّت بهما صاحبة المنزل، فصرخت وجمعت عليهما الناس، فضربوهما وأحضروهما إلى هنا. أوجاعهما واضحة على جسديهما لو ركّزت.**

- **لا والله، ما ركّزت. طيب... والثالث؟**

ضحك وقال:

- **شـهيتك مفتوحة للأكل والحكايات! لو شـفتك مرة ما ترغب بالأكل، بحكي لك حكاية.**

مثل الأطفال (ضـحك)! الثالث اسـمه هارون. لا أحد يعرف بالضـبط ما الذي أتى به إلى هنا. المتداول أنه صـاحب محل حلويات عدنية في صـنعاء، وكان هناك أطفال يعبثون في محلّه. بالأمس، ضرب أحدهم لأنه أسقط صحن الهريسة أرضًا، فجاء والد الطفل وتعاركا، فقام هارون "ومسـح به البلاط". شـوف حجمه... عملاق! المهم، الأب اشـتكى به، وجاؤوا بالجاني إلى هنا.

- **هل هذه القصص الحقيقية؟**
- **هذا هو المشاع والمتوفر!**

أتممتُ الأكل، وأخذ عبد الصمد الصحون ليغسلها، وعدتُ إلى مذاكرتي. كان يخدمني كأخٍ حقيقي. بعدها أعطاني مروان الجدري ضعف كمية القات التي كان يعطيني إياها يوميًا، وقال:

- **علشان تقدر تذاكر.**

انغمسـتُ في المذاكرة حتى جاء الحاج ناصـر. اسـتمع إليّ وأنا أتلو سـورة النور عن ظهر قلب، ليتأكد أنني حفظتها بالكامل. عند النوم، اندلعت

مشـاجرات جديدة على أماكن النوم. كان الإزعاج كبيرًا، فشـعر عمي ناصـر بذلك، وخرج إليهم من الغرفة الكبيرة صارخًا:

- **وقفوا الضرب، سهيل يذاكر.**

نظر إليه السجناء الجدد بتحدٍّ؛ لم يكونوا يعرفون هيبته داخل السجن. فتقدم هارون وقال بلهجة ساخرة:

- **مو نعمل له، ندهن له ظهره!**

أشار لهم عمي ناصر إلى منتصف الحوش:

- **موجود أماكن في الوسط وإلا روحوا جنب حسين.**

ردّ أحدهم:

- **نحن مش شـحاتين علشـان ننام جنب الفلسـطيني. يفسـحوا لنا السجناء مكان.**

قال عمي ناصر بحدة:

- **صورتكم "لوطيين"، تعجبكم المزاحمة!**

وقعت الكلمة عليهم ثقيلة؛ فإن أصـرّوا على الزحام سـيثبتون التهمة على أنفسهم. صاح أحد اللصين:

- **الغرفة الصغيرة فارغة ما بينها الا ولد واحد.**

ردّ عمي ناصر:

- **ممنوع! ولّا قد أنتم تشـتوا "الدَّبة" حق الجاهل جنب الدِّبَب اللي سرقتوهن؟**

سرت همهمة بين السجناء، وقال عمي مسعد:

- **يا ناصر، خلّهم يناموا حتى في الجن... خلّينا ننام!**

لكن هارون لم يتراجع فقال:

- **شوف، أنا هنا بسبب ضرب، ولو احتجت أضربكم، أهلاً وسهلاً. والله أرفعكم من رجولكم! أنا ما أنام تحت الأقدام، والله أهرسكم سَع الهريسة!**

أثارت تهديداته غضب عمي ناصر بشدة، فرفع عكازه وكاد أن يهوي به على رأسه. والتفّ حوله بائعا العنب، ورياض وعبد الصمد، وعاصي، وزميلاه هشام ومحمد، فصار الجميع دائرة حول هارون، وبدأوا يتجاذبون ثوبه. ظننتُ أنني أنا سبب هذا الشجار، وأن عمي ناصر يريد الهدوء من أجلي. فتقدمتُ، وجذبتُ ثوب هارون من بينهم لينام بجانبي، وقلت:

- **لن أذاكر إذا كان هذا سيسبب مشاكل.**

لكن عمي ناصر دفعني بحزم إلى الخلف:

- **ولا أحد يزعجك من اليوم حتى تخلص امتحاناتك. ارجع مكانك. هارون يجي عندي، والباقي يناموا هنا.**

في النهاية، نام اللصّان بجانب بعضهما، ولم يأخذا حيزًا يُذكر لنحافتهما، بينما دخل هارون الغرفة الكبيرة. ولم يستطع بائعا العنب الاعتراض؛ فقد انتهى الأمر. وكما بدأ الشجار، انتهى فجأة، وعاد الهدوء إلى المكان.

عدتُ إلى حفظ سورة النور، ثم جاء عمي فريد يحمل علبة بلاستيكية

مملوءة بمربّى الجزر، ومعها زيًّا مدرسيًا. قال إنه تأخر حتى لا يشاركني في المربى أحد ثم سأل:

- **حفظت السورة؟**
- **تقريبًا يا عم فريد.**
- **الجو بارد، كل العلبة بالكامل. بجلس معك لما تنتهي منها.**

شعرتُ أنه يريد أن يفتح حديثه المعتاد، لكنه ظل صامتًا، يراقبني وأنا آكل المربّى بأصبعي حتى انتهيت، ثم عاد إلى الغرفة الكبيرة. بعد قليل، جاء عمي ناصر (الرهينة)، يحمل كأس شاي سفري كبير، وقال:

- **هذا بيساعدك على السهر والمذاكرة.**

كانوا جميعًا أقرب إلى آباء منهم إلى زملاء سجن. ربما لأنهم أكبر سنًا، وربما لأن وجودي أعاد إليهم شعور الأبوة، أو لأنهم وجدوا في قلقي صدى لأبنائهم خارج السجن. على أي حال، كانوا يمارسون هذا الدور بحب واضح.

ظللتُ ساهرًا حتى تأكدت من حفظ السورة، ثم ذهبتُ إلى فراشي بجانب عبد الصمد. همس بصوت نعسان:

- **أخيرًا عترقد.**
- **أخيرًا. وأنت سهران كل هذه الفترة! الساعة الثانية بعد منتصف الليل!**
- **ما قدرت أنام وأنت مش جنبي... تعودت على أنفاسك.**

لم أنم طويلًا؛ إذ أيقظني عمي ناصر لصلاة الفجر. صليتُ وعيناي نصف مغمضتين، المصلون مصطفّون في منتصف الحوش، وأقدام النائمين ورؤوسهم باتجاه القبلة. ومع أول ضوء للشمس، ناولني عمي ناصر كأس شاي كبيرة. وبعد أن أشرقت الشمس تمامًا، استمع إليّ أردد السورة شفهيًا، دون مصحف، حتى اطمأن.

كان الامتحان في الثامنة. كنت قد استيقظتُ مع الفجر في الرابعة، ومع اقتراب السابعة، سمعت صوت السجّان يناديني. خرجتُ لأجد خالي وصديقه ينتظرانني عند البوابة.

في أول يوم، كان من المهم أن يكون خالي معي. لم يعلّق على الزي المدرسي الذي أرتديه؛ بدا أنه فهم أنني تدبرت أمري داخل السجن.

غادرنا بالسيارة مبنى المباحث باتجاه المركز الامتحاني وظل الخوف يرافقني. لم يكن خوفي من الامتحان نفسه؛ فقد كان سهلًا، فالقرآن والتربية الإسلامية من أسهل المواد. لكن ما كان يقلقني هو ما سيأتي من اختبارات، خاصة أن الكتب والأوراق ممنوعة داخل السجن.

لم يمر نصف الوقت حتى أنهيت الامتحان. خرجتُ إلى ساحة المدرسة، وأمضيت الوقت المتبقي مع أصدقائي، شربنا الشاي، وتناولنا سندويشات البطاطا المسلوقة عند البوابة. تذكرت الماضي حين كنت ألتهم ثلاثة أو أربعة منها.

مع انتهاء الوقت الرسمي، خرجتُ إلى الشارع، فوجدت صديق خالي

ينتظرني بسيارته، ليعيدني إلى السجن. كان الجميع في انتظاري. وما إن دخلتُ مرتديًا الزي المدرسي، حتى استقبلوني بحفاوة واضحة، وكان أول من تحدث عمي فريد:

- **ها، ما اسم المدرسة والمدير؟!**
- **ما انتبهت.**

سألني عمي ناصر:

- **كتبت الآيات المطلوبة منك أو نسيت السورة في قاعة الامتحانات!**
- **الامتحان كان سهل، وحليت كل شيء.**

دس عمي حسين نفسه بين الجموع من حولي وقال:

- **الحمد لله الذي جعلهم يخرجوك تمتحن يا سهيل يا ابني. خصوصا أنك رهينة مش مجرم. سمعت أن عدد الطلاب الذين دخلوا الامتحان هذه العام مليونين، هه.**

قذف بالرقم في وجهي، فابتسمت. ولم يفت عمي فريد أن يستعرض عضلاته كمدير مدرسة فأضاف:

- **عدد الطلاب في المرحلة الثانوية اثنين مليون، هذا يعني أن الأمية ستنتهي في سنوات!**

كان عبدُ الصمد يجلس على فراشي طوال الوقت، كأنه يحرسه حتى أعود. وقيل لي إنه لم يتناول طعام الإفطار، ولم يذهب حتى إلى الحمّام، منتظرًا رجوعي. وقد أحببتُ أن أكون أول صديقٍ في حياته مثلما هو أول صديق

حقيقي في حياتي. ذهبتُ إليه بعد أن انتهى الجميع من سـؤالي عن أحوالي، فنكزني عمي ناصر بعكازه وهو يصيح:

- **الآن تذهب إلى فراشك وتنام، أنت ما نمت إلا ساعتين من أمس.**

وما إن وصـلتُ إلى عبد الصـمد حتى ابتعد قليلًا، ثم دثّرني وجلس بجانبي يسألني:

- **كان الامتحان سـهل؟ أفطرت في الخارج؟ لا تقلق عليّ، أنا أفطرت مع ابنَي الجدري. أيش الامتحان التالي؟ هل سيدخلون لك الكتب الخاصة بالمواد القادمة؟**

كنت أجيبه والنعاس يغزو جفنيّ، ولم أُتمّ إجابتي الأخيرة حتى غرقتُ في نومٍ عميق. بعدها دخلتُ معركة الامتحانات المنبقية وأنا أكثر قوة؛ فالجو الذي أحاطني به عمي ناصـر، من فضّ النزاعات بين السـجناء وإشـاعة الهدوء، جعلني قادرًا على المذاكرة جيدًا. ولم يتركني عمي فريد دون علبة مربّى الجزر يوميًا خلال الامتحانات. كنت قد أخبرته بالمعلومات التي يريدها، ومع ذلك لم ألحظ تحسـنًا في مسـألة الغش في المركز الامتحاني، لكنني لم أخبره كي لا ينزعج. لعله أخبر ابنه ليتوسط لي عند أصدقائه، لكن ابنه لم يفعل. وبدأتُ أفكر: حتى لو كنت في البيت وفي الجو الأسـري، لما حظيتُ بهذا الهدوء الذي وجدته هنا!

كانت الأخبار تصلني يوميًا من خالي في السيارة: عن المقايل وموائد الغداء التي تُنصـب في قريتنا، وعن شـيوخٍ كُثر دخلوا ونصّـبوا أنفسـهم حكّامًا في

القضـايا والمشـاكل التي تندلع بين عائلتي وعائلة القتيل. فحمدتُ الله أنني هنا في السـجن، آمنٌ نسـبيًا. ولم يعد خالي يأتي في الامتحانات اللاحقة، بعد أن اطمأن إلى أن الأمور تسير على ما يرام.

كان الأبرص ما يزال يطلب حارس المستشـفى كل يوم تقريبًا، وكذلك عبد الصـمد؛ يطلبه كل يومين أو ثلاثة، فيعود موجوعًا في الثانية أو الثالثة فجرًا، بعد تعذيبٍ مهين، لكنه لم يكن يزعجني بآلامه، بل ينام مباشرة بجانبي. ولم ينقطع الحاج ناصـر عن إمدادي بأكواب الشـاي، التي زاد عددها في الامتحانات الصـعبة إلى أربع كؤوس في الليلة الواحدة. ولم تحدث لعمي هادي سـوى نوبة صـرع واحدة خلال فترة الامتحانات، لم أعلم بها؛ إذ أمسـك به هارون القوي وحده حتى هدأت حالته. أما القباطي، فقد جعلته الحبوب التي يتناولها أشـبه بالأبله؛ يمشـي في أرض السـجن ليلًا ونهارًا، ويتهاوى على السـجناء، فيدفعونه بعيدًا، ثم يستعيد وعيه ويعود إلى فراشه لينام يومًا كاملًا.

ابنا الجدري أمسـيا يعطيانني ضـعف كمية القات التي كانا يعطيانها لي قبل الامتحانات، وكنت أمضـغه حتى سـاعات متأخرة ليسـاعدني على السـهر. وأحيانًا يظل بعضـه في فمي حتى الصـباح. وكنت أنام في اليوم الفاصـل بين كل امتحان وآخر.

سلطان، بائع المسروقات، أصبح ينظر إليّ نظرات حسدٍ حارقة، ويقول:

- **حقك يا سـهيل، حقك! أنت ملك السـجن، كلهم يعلفونك مثل خروف العيد!**

لم أكن أتحدث معه كثيرًا؛ كنت أعلم أنه يبحث عن شجار، فتجاهلته.
كان عمي مسعد يلعب الورق مع سلطان، وهارون، ورياض، وعلي، بائع العنب، وأحيانًا مع عبد الصمد إن توفر وقت. أما يوسف المراهق، فقد صارت نظراته أكثر تعلقًا بي؛ كان يأتي أحيانًا ليراني وأنا أذاكر دروسي، يتأملني صامتًا لدقيقة أو أكثر، ثم يعود إلى غرفة المراهقين.
أما عمي حسين فمنشغل بحربه مع البراغيث التي استعمرت فراشه، بينما لم يعرني عاصي ولا سارقا قناني الغاز، ولا هشام ورفيقه، أي اهتمام، فبادلتهم الشعور نفسه.
لم يخرج أحد من السجن طوال فترة الامتحانات، ولم يدخل سوى ثلاثة سجناء جدد. أخبرني عبد الصمد بقصصهم وأنا أستعد للنوم بعد الامتحان الخامس. الأول، اسمه عبد الرب، عجوز في الستين، تبدو على وجهه آثار الضرب، أصلع الرأس، على رأسه شال يلفه حول كوفية خيزران. قال لي عبد الصمد:

- **هذا العجوز... لوطي، مفعول به، لكن ليس لديه جمال يجعله مرغوبًا.**
- **لغز هذا؟!**
- **لا، حكايته أنه يذهب كل خميس إلى أحد حمّامات صنعاء القديمة، يحتك بالشباب. بعضهم يَقبل، وبعضهم يصمت خوفًا من الفضيحة. لكن بالأمس وقع في يد شاب عنيف، ضربه مع أصدقائه وفضحه وأحضروه إلى هنا.**

وبعد يومين، دخل رجل في الأربعين، بوجهٍ نحيف ولامع من كثرة الكريم، وشفاهٍ غليظة حمراء، وبطنٍ منتفخ كأنه في أواخر الحمل. جاء عبد الصمد بقصته لكن قبل أن يبدأ في سردها ظل صامتًا ينتظرني أن أفتح له مجالًا للحديث حتى لا يزعجني أثناء المذاكرة. نظرت إليه مبتسمًا في إشارة إلى استعدادي لسماعه فانهمرت كلماته، كأنه كان ينتظر منى ذلك:

- **اسمه عثمان، صاحب لوكاندة في شارع هائل. تهمته عرض قنوات إباحية للنزلاء مقابل رفع أسعار المقيل عنده. وهو يجاهر بهذا منذ دخوله السجن زاعمًا أنه ينشر الثقافة في محيط الشباب، ويؤكد أنه سيخرج سريعًا؛ فماله يكفي لإغراق المباحث.**
- **يكسب كثيرًا؟**
- **هكذا يقول!**
- **إن بقي فأهلًا به، وإن خرج فمع السلامة.**
- **صدقت، نحن لا ينقصنا الزحام. سألعب مع عمى مسعد، متى تنتهي امتحاناتك؟**
- **بقيت ثلاث مواد فقط. يعنى ستة أيام وأنتهي.**

***

ذهب للعب الورق. وكان هناك من يلعب الورق وآخرون يتحدثون همسًا، وبعضهم يتلمسون جروحهم وآخرون يتناولون عشاءهم.

قبل آخر امتحان، جاء السجين الثالث: شاب في العشرينات، نحيف، أسمر،

يداه قاسيتان، كيَدَيّ قبل دخولي إلى السجن. خمنتُ أنه نجار يعمل في البناء، وتأكدتُ حين رأيت بقايا نشارة الخشب في راحتيه.

لم أنتظر أن يأتي إليّ عبد الصمد بحكايته. ذهبت اليه مباشرة وسألته:

- **تعمل في منجرة؟**
- **كيف عرفت؟**
- **من يديك وأنت تخرج نشب الأخشاب من راحتيهما ... ومن النشارة في شعرك. لم تقصر شعرك منذ فترة طويلة.**
- **أحبه طويلا. ما تشتي؟**
- **ليش دخلت السجن؟**
- **وأنت ما دخل أمك!**

أثارتني حدته، وزاد فضولي لمعرفة حكايته، فتلطفت معه حتى عرفت منه أن اسمه إبراهيم. قال:

- **جاء رجل إلى صاحب المنجرة وطلب تأثيث بيته كاملًا، وكان يدفع على دفعات. في النهاية، بقيت خمسون ألف ريال، لكنها لا تكفي أجري وحدي. فرفض عمي إعطاءنا مستحقاتنا. أخذت المال وسافرت إلى عدن أسبوعًا... سبحت وتناولت كل ما في نفسي من طعام... ثم عدت، فأمسكني من رقبتي وأحضرني إلى هنا.**
- **لا تقلق، سيأتي والدك ويخرجك، قضيتك بسيطة.**
- **أبي مات، وأمي في القرية... وأنا أعيش في منجرة عمي.**

- **هو عمك حقًا؟**
- **لا... لكنه هو من رباني ويحبني أكثر من أبي لو أنه كان على قيد الحياة. حتى أنه لم يضربني؛ فقط أمسكني من رقبتي وقادني إلى هنا. نحن جيران المباحث، مسافة عشر دقائق مشي.**

ثم نظر إليّ وسأل:

- **وأنت؟**
- **أنا هنا رهينة... إلى حين يتم القبض على أخي الذي قتل رجلًا من قريتنا. كنت أعمل في منجرة. عشت تحت جناح صاحبها أكثر من عشر سنوات، لكني لم أنادِ صاحبها عمي...**

مطّ شفتيه بتفهم، وهمَّ بقول شيء لولا مقاطعة عبد الصمد. سألني:

- **عرفت حكايته؟**

قلتُ مبتسمًا:

- **أيوة، رجعت لطبيعتي الفضولية بعد أن وصلت لآخر امتحان، الحمد لله.**

كنتُ أعرف أنه منزعج؛ فبسبب الامتحانات لم نعد نتحدث كما اعتدنا، لكنه كان صبورًا. وقد قررتُ أن أعود إلى عائلتي غدًا، بعد نهاية آخر امتحان لي، إنسانًا مختلفًا؛ سأغرق أرض السجن بالنكات والعمل، تعبيرًا عن امتناني لكل واحدٍ منهم خلال هذه الأسابيع التي مضت.

***

انتبهتُ من شرودي على كأس شايٍ قدّمه لي الحاج ناصر "الرهينة".

وبحسابٍ دقيق، كنتُ قد أمضيتُ في السجن حتى تلك اللحظة ثلاثة أشهر وعشرين يومًا وخمس ساعات، منذ بداية شهر أغسطس من عام ٢٠١٠، في صنعاء، داخل مبنى مباحث أمانة العاصمة، في السجن المتوسط المخصص- كما يقول مدير المباحث- لـ "أولاد الناس"؛ حتى لا يتعرضوا لشرّ نزلاء السجن الكبير الدائري، الذي دخلته أول يوم.

سخرتُ من نفسي كثيرًا حين ظننتُ حينها أنني سأبقى هنا أيامًا فقط. وقد صدق توقّع عليّ، بائع العنب، حين قال إنني سأمكث شهورًا. خلعتُ الزيّ المدرسي وعدتُ إلى ثوبي الأبيض الذي كنت قد هجرته في فترة الامتحانات. عدتُ أيضًا إلى إفطار بيت الجدري وأصبحت أنظر إلى السجناء وإلى السجن نظرةً أدقّ. اكتشفتُ أن ساحة السجن ازدحمت أكثر من قبل؛ كان عمي حسين بجانب الحمّامات، ولا يفصل بينه وبين جاره سوى مترٍ واحد، ثم يبدأ التكدّس.

كان الترتيب كالتالي:

عمي حسين، ثم سلطان، وأنا بجانبه، وعن يساري عبد الصمد، يليه عمي مسعد، ثم راشد بائع القات، وبعده الحبيبان هشام ومحمد. أما في الجانب الآخر، فكانت نافذة المطعم، وتحتها مساحة خالية تقارب مترين. بعدها ينام عاصي بجانب عبد الرب. ربما يتناجيان عن الرجال من حولهما، وبجوارهما صاحب اللوكندة، وإبراهيم عامل المنجرة الجديد، ثم رزق وهيثم، لصّا قناني الغاز، ثم رياض.

وفي الداخل، "علية القوم": هارون، وعمي ناصر، والحاج ناصر "الرهينة"، وعلي، بائع العنب، مع شقيقه البدين، وعمي فريد، وهادي الصعدي، وابنا الجدري- مروان وعلي- وجمال القباطي. أما الغرفة الصغيرة، فلم يكن يسكنها سوى يوسف، المراهق الصغير.

***

كنتُ أقضي يومي في الحديث مع السجناء، ولعب الورق، والأكل، ومضغ القات. مضت الأيام بسرعةٍ لافتة. خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، لم يحضر عضو النيابة، حتى خُيّل إلينا أن جميع الموجودين قد سقطوا من سجلاته. ومع ذلك، سَرت في السجن إشاعةٌ عن خروج البعض إلى النيابة قريبًا، أو إلى القضاء، وربما إلى خارج السجن بعد انتهاء التحقيقات. كان مصدر الإشاعة عمي ناصر، الذي جاء بها بعد عودته من تغيير الجبس، بعد تعافي العظم قليلًا.

سأله عمي مسعد بفرح:

- **ما قالوا لك يا ناصر؟ من سيخرج؟ الرهائن أم اللويطة، أم اللصوص أم قطاع الطرق؟**
- **يقال- والعهدة على الراوي: الاختيار سيكون من كل الأصناف؛ سيخرج من كل صنف سجين أو اثنان... هذا ما سمعت، والله أعلم.**
- **متى؟ اليوم؟ غدًا؟ بعد أسبوع؟**
- **يوم السبت. يقال إن لجنة من حقوق الإنسان ستنزل، لذلك**

المباحث تنظّف "خراها" قبل وصولها.

صمت الاثنان، بينما كنا ننظر إليهما كأننا نشاهد مسرحية كوميدية. لم نأخذ كلام عمي ناصر على محمل الجد، لا أنا ولا بقية السجناء، خصوصًا عمي حسين، الذي لم يفهم ما معنى وفد "حقوق الإنسان"، ولا طبيعة عمل الوفد. وربما كان خائفًا من الخروج أصلًا؛ فقد وجد في السجن طعامًا وقاتًا مجانيين كل يوم.

جاء يوم الجمعة، السابق لوصول الوفد، وخرج عددٌ كبير من السجناء، لكن من السجن الآخر المجاور، بسبب ازدحامه الشديد وقضاياه التافهة. حتى قيل إنه أصبح واسعًا ونظيفًا. وقد نقل لنا صاحب البوفيه ذلك، وهو غاضب:

- **الله يقلعهم حق "عقوق الإنسان"، خربوا أم الشغل!**

أما في سجننا، فقد خرج: عمي هادي، ذلك الكريم الضحوك، سيد البدو وصديق الصحراء؛ قيل إنه نُقل إلى النيابة، وقال آخرون إلى الأمن السياسي، مع تصاعد التوتر بين نظام الرئيس صالح وجماعة عمي هادي. كما خرج هارون، صاحب محل الحلويات، بعد أن دفع أهله غرامة "الأرش" لأسرة الطفل الذي أصابه. وخرج أيضًا عثمان، صاحب اللوكاندة؛ كان آخر الداخلين وأول الخارجين، ويبدو أن للنقود دورًا في ذلك وربما بنسخةٍ من أحد أفلامه.. فمثل قضيته لم تعد نادرة أو خطيرة، فهناك الكثير من الأشخاص الذين يعرضون أفلامًا إباحية في لوكنداتهم أو فنادقهم، وبإمكانهم

تفادي العقوبات ببعض المال والقات.

أما بائعا العنب، فقد رُحِّلا إلى النيابة، لتبدأ سلسلة جديدة من التقاضي مع الضابط والمؤسسة العسكرية. وخرج كذلك مروان وعلي الجدري، بعد صلحٍ قبلي على خلفية قضية البئر؛ إذ جاءت وجاهات قبلية إلى المباحث، وأنهت القضية وفق الأعراف، فأُفرج عنهما.

❊ ❊ ❊

قيادات جديدة

كان خروج سبعة أشخاص دفعةً واحدةً من السجن صدمةً لي، خصوصًا أن أحدهم كان من أعزَّ أصدقائي: علي، بائع العنب، الذي صادقني منذ أول صباح لدخولي السجن، دون خوفٍ أو ترفّعٍ أو كبرياء.

كان خروج ابنَي الجدري سببًا في حزنٍ عميقٍ داخل السجن؛ فقد كان وجودهما أشبه بربّ عائلةٍ لا ينام إلا بعد أن يطمئنّ إلى أن جميع أبنائه قد ناموا شِباعًا مطمئنين. كنّا جميعًا في وداعهما، وعلى رأسنا عمّي ناصر، الذي لم يُلقِ خطبته العصماء ولا أغنيته المشهورة هذه المرة؛ فقد كان حزينًا لخروج بائعي العنب اللذين كانا مثل ابنيه؛ يحمّمانه ويخدمانه في كل شيء.

حين خرجوا من البوابة رفع عكازه وقال:

"ودعناهم الله الذي لا تضيع ودائعه."

ثم عاد إلى غرفته صامتًا.

***

تحقق ما قاله عمّي ناصر؛ ففي صباح يوم السبت، في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ٢٠١٠، حضر إلى سجننا رجل وامرأة. كان الرجل يرتدي بدلة كاملة، شعره أبيض كثيف يتماوج على رأسه بشكل مرتب، وبصحبته سيدة في منتصف العمر تحمل دفتر ملاحظات أزرق. كانت محجبة، بلا أي أثر للمكياج، وتبدو جادة للغاية. أشار الرجل إلى بعض الأسماء، ثم بدأ يمرّ

على السجناء في أماكنهم داخل السجن.

تحدث أولًا مع عمّي حسين:

- **من متى وأنت هنا يا حج؟**
- **مش ذاكر. يمكن أسبوع!**
- **أسبوع كثير جدًا، المفروض خلال أربع أيام يرحّلوك إلى النيابة، ولو ما عليك شيء تخرج! كيف صبرت كل هذه المدة؟**
- **الله ألهمني الصبر؟**

كنا نعرف أن عمّي حسين يكذب؛ فهو هنا قبلنا جميعًا، لكن الرجل لم يسأله مزيدًا من الأسئلة، واكتفت السيدة بتدوين ملاحظاتها في الدفتر.

ثم أخذ الرجل يوسف إلى جانب من السجن وتحدث معه طويلًا حول علاقاته مع السجناء، وسمعناه يقول إنه لم يُمسّ داخل السجن، وأنه يريد الخروج من أجل والدته. عندها صاح عمّ مسعد من مكانه، رغم أنهم لم يسألوه:

- **قولوا لهم: الكُدَم يابسة وفيها حموضة! اللي أعرفه أنها تصل من قصر السلاح دافئة. ليش يخزنوها لحين تبرد وتحمض ويرموها لنا مثل الكلاب؟**
- **ولا يهمك يا حاج، بنكلمهم.**

قال الرجل، وتحدث عمّي فريد معهما طويلًا، واكتشفنا أن رجل حقوق الإنسان صديق قديم له، إذ سبق أن قدّم ورش عمل حول برنامج التربية على

حقوق الإنسان في المدارس، عندما كان عمّي فريد مديرًا لمدرسة قبل دخوله السجن. أما جمال القباطي فكان ما يزال نائمًا كعادته، ولم يدخل الرجل ولا السيدة إلى الغرفة الكبيرة، واكتفيا بزيارة حوش السجن.

بعد خروج وفد حقوق الإنسان، دخل شاب في أواخر العشرينات، يرتدي إزارًا "معوزًا" بنيًا مخططًا بخيوط ذهبية، وقميصًا بنيًا فاتحًا، وعلى رأسه كوفية خيزران. ما إن دخل حتى انزوى في ركن فارغ، خائفًا وصامتًا. وكان الوحيد الذي دخل علينا خلال الأيام الخمسة الماضية، إذ بدا السجن فارغًا من كثير من نزلائه، رغم أننا سمعنا أن أعدادًا كبيرة قد أُدخلت ذلك اليوم، لكن السجن الكبير المجاور كان شبه فارغ، وكأنه ينتظر دفعات أخرى.

***

بعد زيارة رجل حقوق الإنسان وسيدته، أصبح الحديث يدور فقط حول من سيخرج، وما الرسائل التي ستُرسلها وزارة حقوق الإنسان إلى المباحث أو الجهات المعنية لإطلاق سراح بعض السجناء؟ رأى كثيرون أن الزيارة كانت سطحية، وأن الرجل ركّز فقط على "اللاجئ"؛ بحكم أن عمي حسين من فلسطين، وعلى الطفل يوسف. وتحدث البعض أن الوفد لم يأتِ لاكتشاف التعذيب أو المعاملة غير الآدمية، بل جاء لأشخاص محددين بأسمائهم.

ومضى الوقت طويلًا دون أن يخرج أحد ممّن علّقوا آمالهم على تلك الزيارة، حتى بدأ الأمل يتضاءل، إلى أن جاء جندي ليقوم بتعداد السجناء،

فاختفى آخر أمل في الخروج. صاح رزق، سارق قناني الغاز:

- **ما دام هذا العفريت دخل يعدنا ما أحد عيخرج اليوم.**
- **أنيك أمك، من تقصد بالعفريت؟**

سكت رزق. فقال صديقه هيثم:

- **حاشاك يا فندم، إحنا بنتكلم عن حقوق الإنسان، دخوله كان شؤم.**

لم يهتم الجندي وأكمل العد، ثم خرج. صاح عمّي ناصر:

- **اتركوا الغاز حق الناس وما عتدخلوا إلى هنا.**

ولم يرد أحد، فقد كان صادقًا. وبدا الضيق على وجه عمّي مسعد وهو يتمتم:

- **قضيت كل هذه المدة في السجن علشان كم ألف ريال ما دفعتها للمُدْبِرة بنت المُدْبِر! صح المثل الشعبي: "قوم القحبة أكثر من قوم الدولة!" صورتي باموت هنا!**

انتبه عمي ناصر إلى كلمة الموت فقال:

- **بمناسبة الموت، جمال القباطي ولا تحرك من مكانه من أمس الصباح، حتى ما قام للحمام! يا علي انظر له، لو مات أو شيء!**

ضحك السجناء، فقد رحل علي، وانتبه لخطئه فناداني:

- **قوم يا سهيل، تأكد إنه مش ميت!**
- **ولا يهمك يا عم ناصر، كلنا أولادك.**

بدت عليه ملامح امتنان، لكنه لم يكن معتادًا على قولها، حتى لعلي بائع

العنب. أما أنا فلم أكن أحتاجها أصلًا. حاولت إيقاظ القباطي، لكن جسده لم يكن يتنفس ولا يشخر، وكان جسده باردًا. وضعت أذني على صدره ثم رفعتها، وقلت لعمّي ناصر:

- **أيوة يا عم ناصر... هو ميت!**
- **آه... الله يرضى عليك يا ابني. روح دق باب السجن، يأخذوه قبل ما يجيف بنا.**

وخرجت إلى بوابة السجن، بينما توكأ عمّي ناصر على عكازيه، وتبعه الجميع لرؤية جمال القباطي، الذي بدا نائمًا بشكل مريح، بلا خوف ولا حزن ولا غضب، فقط وجه ساكن يشي بالراحة.

صاح عمّي مسعد:

- **أشتي أخرج من هنا، قبل ما أموت. أشتى أخرج من هنا.**

ردّ عمّي حسين الفلسطيني:

- **إلى أين بتخرج؟ إلى العدم؟ إلى اللاشيء؟ أنا لا أريد أن أخرج من هنا... سأموت في زاويتي. ما دخلكم!**

جذبني عبد الصمد من باب السجن إلى ناحية فراشنا. سألني:

- **هل أنت خائف؟**
- **ممن؟ ما خفت لما دخلت هنا أول مرة. لكن لما دخلتم كلكم غرفة القباطي، وفرغ حوش السجن منكم، خفت أفقدكم... بالموت ربما.**

- **لا، لن تفقدنا إلا لو خرجنا من السجن. ولن نخرج إلا لو ظهرت جنابي الناس اللي سرقناها، ويمكن نُسجن سنين قبل ما ينظر قاضي في قضيتنا.**

فيما بعد، أراد عبد الصمد أن يُنسيني الخوف الذي يعتقد أنه تملّكني، فجاءني بحكاية السجين الجديد، الذي دخل بدلًا من القباطي بعد أن نُقل الأخير إلى المستشفى على نقالة، حيث جاء أهله لاستلامه هناك.

كان السجين الجديد خائفًا للغاية مما حدث في ذلك اليوم؛ فبمجرد دخوله عمّ الهرج والمرج في السجن، ثم سمع خبر موت أحد السجناء، فتخيّل نفسه يتعفّن هنا معنا. شاهده عمي ناصر متقرفصًا في مكانه، فأراد أن يشيع جوًا من البهجة مجددًا، فقال:

- **هكذا الدنيا: طفل يولد، وعجوز يموت، سجين يموت، وسجين يدخل بدلًا عنه... ويموت بعده!**

صرخ السجين الجديد.

- **فال الله ولا فالك يا جنى!**
- **ما جنى ابن جنية إلا أنت، وحتموت يعنى حتموت.**

بكى السجين الجديد بحرقة، وسرت ضحكات صفراء في أرجاء السجن. كان يبدو لطيفًا وخائفًا إلى حدٍّ كبير. تركه السجناء يفرغ ما في صدره حتى هدأ، ثم استلقى على فراشه الذي دخل به، محاولًا النوم، في إشارة واضحة إلى أنه لا يريد الحديث مع أحد، ولا أن يحدّثه أحد. ومنذ يومه الأول، بنى

جدارًا عازلًا بينه وبين الجميع.

اقترب مني عبد الصمد وقال:

- **حكايته تشبه حكايات ألف ليلة وليلة!**
- **أمانة؟ هات، هات!**
- **هو باح لعمي مسعد بكل شيء فور وصوله. وأنت تعرف عمي مسعد... خلال ربع ساعة كان كل من في السجن، وحتى السجن المجاور، قد عرف الحكاية. الحكاية، يا حبيبي، أن هذا الشاب وجد فتاة في وقت متأخر من الليل قبل ثلاثة أشهر، وهو يعيش وحده في بيت مستأجر في "سواد حِزْيَز". غازلها على أمل أن يتمشّيا قليلًا ويحظى بقبلة منها وحضن، لكن تبيّن أن وراءها قصة؛ فقد كانت هاربة من بيت أهلها بعد أن سرقت مالًا من والدها الثري. أخبرته أنها هربت خوفًا من الفضيحة بسبب علاقة مع زميلها في الجامعة. أخذها إلى بيته، وادّعى أمام الناس أنها أخته؛ وقد جاءت من الريف لتخدمه. كانوا أخوين أمام الناس، وعشيقين في الخفاء. لم يتزوجها كما قال، وبعد فترة اشتاقت لأهلها، فاتصلت بهم. طمأنوها ووعدوها بالأمان. عادت الفتاة إلى أهلها، لكن الأمور لم تسر كما توقعت؛ بعد أن خضعت للتحقيق والضرب تبيّن أنها حامل، فكشفت عن مكان الشاب. ادعى أن الحمل ليس منه، لأنه كان يتخذ احتياطاته، ويؤكد أن الطفل من شخص آخر. لكن أهل**

الفتاة يريدونه أن يتزوجها وينسب الطفل إليه، وهو يرفض رفضًا قاطعًا. لذلك قبضوا عليه وأحضروه إلى هنا.

- **طيب، يتزوجها ثم يطلقها، وينتهي الأمر.**
- **المسألة مش بهذه السهولة... هناك طفل سيُنسب إليه وهو ليس ابنه، كما يقول.**

نظرتُ إلى الشاب، الذي بدا كأنه نائم، أو يتظاهر بالنوم. كان خائفًا بشدة، رغم بساطة الحل في نظري.

قال عبد الصمد:

- **دعك منه الآن، مكان القباطي فارغ، لنأخذ فراشه قبل أن يسبقنا أحد. الجو بدأ يبرد.**
- **طبعًا، طبعًا، لنا الأقدمية.**
- **تمام، تعجبني.**

***

كان الترتيب الجديد في الغرفة كالتالي: أنا ملتصق بالجدار من جهتي اليسرى، وبجواري عبد الصمد، ثم رياض، الذي انتقل معنا إلى الغرفة الكبيرة، ومعه إبراهيم عامل المنجرة الجديد، لنشكّل معًا الجانب الشاب من الغرفة. أما في الجانب الآخر، فكان عمي فريد، وعمي ناصر، والحاج ناصر المتدين، وعمي مسعد، ممثّلين الجانب الأكبر سنًا.

في الحوش كان هناك عاصي، والعجوز الذي أُمسك به في الحمامات، واثنان

آخران ضُبطا في أحد الفنادق، ورزق وهيثم، سارقا قناني الغاز، وراشد بائع القات، وسلطان المتهم ببيع الهواتف المسروقة، وعمي حسين الفلسطيني قرب الحمامات. أما في الغرفة الصغيرة بجانب البوابات، فكان يسكن يوسف الصغير.

بدا السجن أكثر راحة وفراغًا، بعد زيارة وفد حقوق الإنسان وخروج عدد كبير من السجناء، ما أتاح مساحات فارغة. في تلك الليلة، تذكّرت كلام عمي ناصر عن "ابن الجمرة"، وكيف كان يتخبّط عند دخوله السجن، فقد رأيت بعيني رجلًا آخر يدخل على الشاكلة نفسها.

كان في الثلاثين من عمره، دخل علينا في منتصف الليل، أسنانه الأمامية مفقودة، وصلعة رأسه تلمع تحت الضوء الخافت. ما إن دخل حتى ارتمى فوق عاصي النائم على بطنه، فاستيقظ الأخير مذعورًا. ثم نهض الرجل مترنّحًا، وخطوتين فقط كانتا كافيتين ليملأ الحوش بتقيؤ غزير كأن ماسورة ماء انفجرت.

تفاجأ الجميع، فسحب كلٌّ فراشه مبتعدًا. ظلّ الرجل يتقيأ على دفعات، ثم سقط فوق ما أفرغه فاقدًا الوعي.

صرخ عمي ناصر:

- **اتركوه حتى الصباح... هو من سينظف وساخته!**

بعدها بدأ النداء الليلي. قبل أن يخرج عمي فريد متثاقلًا بثوبه البني الحريري اللامع راح يتحرك من هنا إلى هناك عسى أن يجد من ينقذه من هذا النداء.

ولم يمر وقت طويل حتى نودي على عبد الصمد ورياض، ولأول مرة سمعت اسم يوسف. نظرت إلى عمي مسعد متعجبًا، فنظر إليّ وقال:

- **مالك متفاجئ؟ مش كل الليل تعذيب... شوية كذا وشوية كذا!**
- **لكن الولد صغير!**
- **أنت الصغير... يوسف فُعل به أكثر من أمه وجِدَّته! قد ضرب الرقم القياسي، عيونه الخضر عاملة شغل.**
- **وما حكاية السجين الجديد؟**
- **الجواب واضح من عنوانه... شرب خمر وخرج يتخبط في الشوارع، فقبضوا عليه. قصة تتكرر. المفروض كان يذهب إلى السجن الثاني، هذا السجن لا يستقبل هذه النوعيات. حقنا السجن طاهر.**

صاح عمي ناصر:

- **هيا، حننام أو حنقضي الليل في الكلام؟**
- **ما بك يا عم ناصر؟**
- **أقوم أخرجك من الغرفة وأرجعك الحوش يا سهيل.**
- **لا خلاص شرقد.**
- **ولا أسمع لك نخس للصباح.**

استلقيت على فراشي شاردًا، منتظرًا أن يعود رفاقي، فلم أعتد النوم وحدي. الزحام يمنح الدفء ويجلب النوم. حمدت الله أنني هنا مجرد رهينة، لا أفعل شيئًا سوى النوم والأكل ولعب الورق. كانت النجوم في الحوش

تساعدني على النوم، أما الآن فسقف الغرفة يثقل عليّ، وأصوات السجناء، وأنفاسهم، وروائحهم، تملأ المكان. ومع ذلك، انتشر دفء غريب في الغرفة، وسرعان ما غلبني نوم عميق.

لم أستيقظ عندما جاء جيراني في وقت متأخر من الليل، ولا حين اندسّ عبد الصمد في فراشي والتصق بي مرتجفًا من البرد، ولا حتى عندما رنّ الجرس صباحًا في الحوش. كانت الأصوات تتناثر هناك وتصل إلينا في الغرفة كأنها صدى بعيد. لم تكن هناك شمس لتوقظني بحرارتها، وحتى عندما جاء خالي، خرج إليه عبد الصمد ليأخذ الإفطار، ثم وضعه بجانبي منتظرًا أن أستيقظ، لكنني لم أفتح عيني إلا على صوت أذان الظهر، وعلى صوت عمي ناصر وهو يخرج إلى الحوش صارخًا في السجين الجديد. كان صوته قد بدأ يصل وهو لا يزال داخل الغرفة، فانتزعني صوته من نومي.

كان يخطو خطوة ويطلق صرخة، ينادي باسم كل سجين، حتى ينهض الجميع ويرفعوا فرشهم، ليبدأ السجين الجديد- وقد أفاق من سُكره- بتنظيف أرضية الحوش كاملة بالماء والصابون. اكتشفت حينها أن عمي فريد لم يعد مع الذين أُخذوا في الليلة السابقة، لكنني لم أسأل؛ فربما كان لا يزال يخضع لجولات متقطعة من التعذيب، كما يحدث أحيانًا.

***

بدأت أتعرف أكثر على الشاب الجديد. كان لا يزال خائفًا، ولا يبدو أن أحدًا يرسل له طعامًا أو فراشًا. أخذ الفراش الذي أعطاه له السجّان، وكان مهترئًا،

تتوسطه فتحة ممزقة، وقد بدا متسخًا إلى حدٍّ منفّر. كان واضحًا أن معظم فرش السجن مستهلكة، ومفضوضة البكارة، كما حدث معي في يومي الأول. لكن لأن الشاب جديد ولا سند له، اضطر إلى قبوله.

قدّمت له كوب شاي وسندويتش فاصوليا، وجلست بجانبه:

- **سمعت أنك دخلت هنا بسبب فتاة.**
- **الله يتولى عقوبتها، بهدلت بي في السجن وخارج السجن.**
- **بس قد طيبت نفسك منها، صح؟**
- **كذابين. من أين تجيء بهذه الإشاعات؟**
- **من المساجين!**
- **كذابين، تصدق بالله، كنا ننام مع بعض وإحنا بثيابنا، عمري ما مسكت نهودها مباشرة، كان كله من فوق السنتيان والقميص.**
- **صدق؟ مش معقول!**
- **والله العظيم، حتى أني ما قبلتها في فمها ولا مرة، قالت شنبي يقززها! وكمان صدري مليان بالشعر وكان هذا يخليها تتقزز. كانت تتأفف من كل شيء، وخلال ثلاثة أشهر يمكن ما نمت معها إلا خمس أوست مرات بعد تعب.**
- **المساجين يقولوا إنك كنت كل ليلة تستمتع.**
- **كذابين، ولا حصل حاجة، بنت قابلتها في الشارع، قالت معها "زلط" وذهب بثلاثمئة وخمسة وسبعين ألف ريال، هربت من**

أسرتها وقالت لي استرها، سترتها عندي، وما قربتها؛ لأني أعرف كم كانت تتقزز مني، على مستوى الأكل وعلى مستوى الحب، وعلى مستوى النوم، كل شيء، كل شيء.

- **هؤلاء المساجين بيعملوا من الحبة قبة، قد خلوك عراب درجه أولى.**
- **الصيت ولا الغنى.**

***

لم يعد عمي فريد إلا في صباح اليوم التالي، مرهقًا، كأنه لم ينم يومين كاملين. تدثّر بفراشه وغطّ في نوم عميق حتى المساء. لم يكن يبدو متألمًا بقدر ما كان خائفًا، ولم تظهر عليه آثار واضحة للتعذيب. أما الطعام الذي كانت ترسله زوجته، فقد استلمته أنا وأكلته حتى لا يفسد؛ فهو في النهاية نعمة لا تُترك.

مرّ صباح اليوم التالي مملًا؛ لا سجناء جدد، ولا نداءات ليلية. وبعد الإفطار الخفيف الذي أعطاني إياه خالي، جلست مع عبده ورياض، لكنني لم أشعر بالشبع، فخرجت أتجول في الحوش، محاولًا الاستمتاع بدفء الشمس.

رأيت يوسف ممددًا على الأرض، يتدفأ تحت الشمس، ويراقبني بصمت. كلما التفتُّ إليه وجدته ينظر إليّ دون أن يخفض عينيه. اقتربت منه، فبدا عليه الارتباك، لكنه ابتسم ابتسامة خجولة ومرحبة. جلست بجانبه متعمدًا التصاق فخذه الأيسر بفخذي الأيمن، فابتعد قليلًا.

قلت له:

- **أنت وسيم يا يوسف... وستزداد وسامة مع الوقت.**

ازداد ارتباكه، ثم قال:

- **شكرا. أنت الوحيد الذي ارتحت له في السجن.**
- **راحة في الحديث أو في جهات أخرى؟**
- **أنا أحبك يا سهيل.**

فاجأتني صراحته، كأن الكلمة كانت حبيسة داخله منذ زمن طويل.

- **وأنا أحبك يا يوسف، بس أنت تبتعد عني! حاول تتقرب علشان تشوف حبي كيف هو كبير وتلمسه بنفسك!**
- **أنت في أي تخصص تدرس؟**
- **تخصص أدبي، بس لا يغرك التخصص الأدبي، أنا بلا أدب وخصوصًا مع من أحبهم.**

قاطعنا عمي ناصر وهو يستمتع بحك حدود الجبيرة:

- **واااا سهيل ما قد معك؟**
- **ولا حاجة، نتحاكى كزملاء.**
- **روح وثق الزمالة معه في الغرفة الصغيرة ما فيش حد.**
- **قد عمَّدها العيش والملح يا عم ناصر، ركِّز، الله يرضى عليك، ركز.**

كانت جلسة صباحية امتدت حتى الثانية عشرة ظهرا. تحدثنا طويلًا؛ حكي لي كل ما كان يرغب أن يتحدث به معي خلال شهور طويلة: عن حياته،

وعن طفولته المضطربة، وعن تجاربه القاسية التي مرّ بها مبكرًا، وتركت أثرها العميق فيه. كان كلامه مزيجًا من الحنين والارتباك، ومن رغبة واضحة في أن يُفهم ويُحتوى.

أخبرني أن أول تجربة في حياته كانت وهو لا يزال طفلًا برفقة والدته. كانت أمه ترافق رجالًا في سياراتهم في بعض شوارع العاصمة، وكانت تصطحبه معها، وهو صغير لا يعي ما يحدث حوله. وفي إحدى المرات، ذهبت مع أحدهم إلى بيته، لتفاجأ برجل آخر هناك، لكنها التزمت الصمت. وريثما تنتهي مع من جاءت معه، تركت طفلها عند الرجل الآخر فاستدرجه هذا بالحلوى وبدأ يتجاوز حدوده معه. ومع تكرار الزيارات، تحوّل الأمر إلى اعتداء كامل ترك أثرًا عميقًا في نفسه.

تحدث إليّ أيضًا عن شوقه للحب، وعن تعلقه بتلك التجربة الأولى رغم قسوتها، وكيف أنه ما يزال يستعيد تفاصيلها الدقيقة حتى اليوم. حاولت أن أفتح معه بابًا لفكرة التغيير والابتعاد عن هذا الطريق، لكنه لم يُبدِ تفاعلًا يُذكر. في النهاية، تركته مستلقيًا تحت الشمس، يستمتع بدفئها.

كنت أعلم أنه يكنّ لي مشاعر خاصة، وقد قررت أنا أيضا أن أحيطه بالرعاية والحب الأخوي، فقد كنت أراه واحدًا من أبناء هذا السجن، ونحن- في نهاية الأمر- أشبه بعائلة كبيرة جمعتنا الظروف. أما أنا، فكنت أحلم بحياة مختلفة؛ حياة بسيطة أستقر فيها مع فتاة جميلة وطيبة، أشاركها ما تبقى من العمر.

كانت الفكرة التي تلاحقني آنذاك أنني لم أعد أشعر بنفسي كشاب، كما كنت قبل دخولي السجن. تساءلت: هل للسجن أثر في ذلك؟ أم أن نمط الحياة هنا غيّر شيئًا داخلي؟ قبل أن أدخل السجن كنت أستمني يوميًا. تساءلت: هل نوع الأطعمة لها تأثير فيما يحدث لي؟

كان عمي مسعد هو الاختيار الأمثل لأستشيره في هذا الجانب. وجدته جالسًا تحت الشمس، فاقتربت منه وسألته:

- **لماذا لم أعد أحس برجولتي يا عم مسعد؟**

ضحك وقال:

- **عادي... يمكن كبرت فجأة وصرت عجوز مثلي! أو أصبحت من غير ذوي الإربة من الرجال مثل المراهق الذي كنت معه طول الصبح.**

تقبلت مزحته بصدر رحب، فقد اعتدت طريقته في المداعبة الثقيلة.

واصل حديثه:

- **ما عليك شيء يا ابني. هذا بسبب السجن وجو المراقبة، ومافيش حاجة تثيرك في السجن. بترجع أحسن من الأول، لما تخرج.**

نهض عبد الرب من جانبنا وهو يتنهد وتوجه إلى الحمامات الخاصة بالسجن.

- **كله منك يا سهيل، خليت العجوز يروح يتحككك بالجدران. ذكَّرته بأيام الحمامات في صنعاء القديمة. المهم كيف الأمور بينك وبين يوسف؟**

- **كيف عرفت؟!**
- **لا تخف، لا يفهم سـر هذه النظرات إلا المتبحرين، وأنا وعمك فريد منتبهين ويمكن يكون ناصـر أيضـا منتبه، لكن الباقيين مجرد حمير، وأنت وسيم وتستحق. شوف الشعر الأسود الذي ساع التاج، والطول والعرض، والبطن والظهر.**
- **عم مسعد! شوية شوية!**
- **لا تفتجع، قد تأخرت، لو جيت قبل عشـرين سـنة كان لنا تعامل مختلف.**
- **هذا تقوله للمراهقين مش لي.**
- **لك ولغيرك، أنا عمك وأعمل معك كيف ما أشتي.**

في تلك اللحظات سـمعتُ صـوتًا يناديني من الغرفة. كان عمي فريد يُجهّز إفطارً أحضره له ابنه، وقد رفض أن يأكل ما لم أكن معه. كنتُ ما أزال جائعًا؛ فعملية "التبنّي" التي قمتُ بها لعبد الصـمد ورياض تسـتنزف مواردي الغذائية. تذكّرتُ ابنَي الجدري وعمّي هادي، ولعنتُ اليومَ الذي خرجوا فيه من السجن؛ فقد أصبحنا بحاجةٍ إلى شيخٍ أو رجلِ أعمالٍ يُسجن معنا، وإلّا فإنّ الحياةَ لن تمرّ بسهولة.

كان إفطارًا شـهيًا، كما هي عادة ما يصـل إلى عمي فريد من زوجته، التي تتفنن في إعداد أكلات غريبة، وقد ذاع صيتها داخل السجن في صناعة مربّى الجزر.

لم نكد ننتهي، أنا وعمي فريد، من الإفطار حتى سمعنا صراخًا يأتي من ساحة السجن المكشوف. شخصٌ ما يصرخ كما هي عادة الداخلون الجدد، وهم يتبرؤون مما نُسب إليهم، ويقسمون أنهم أبرياء. كان تكرارًا رديئًا لمشهدٍ شاهدناه كثيرًا، ومثل غيره غلبه اليأس، فاتجه إلى عمق السجن، يبحث عن مكانٍ فارغ ليجلس فيه. لم أهتم بالخروج من الغرفة؛ فقصته- أو قصصه- ستصل إلينا قريبًا.

كان شابًا ضخم الجسد، يبدو أكبر من عمره بكثير، رغم أن ملامحه لا توحي بأنه تجاوز العشرين. يرتدي بنطالًا كحليًا وقميصًا رماديًا مُربّعًا بدرجات اللون نفسه. وما إن جلس حتى بدأ يتحدث موجّهًا كلامه إلى الجميع:

- **ظلمة، فسقة، يرمون الناس في السجن وينسوهم بالأشهر، كله بالفلوس يمشي، الله يلعنهم.**

سرت في السجن همهمةٌ مؤيّدة، وبدأ بعضهم يسرد حكايات مشابهة عاشها من قبل.

- **أنا والله- وأشهد بالله بين يدي الله- أني ما فعلت شيء.**

ضحك عمي ناصر وهو يدور بكرسيه المتحرّك في أرض السجن:

- **كلنا ما عملنا شيء، كلنا مظلومين، ما رأيك يا فريد؟**
- **أي والله صدق.**

وضحك المساجين جميعًا، فتردّد صدى الضحكات في أرجاء السجن، الأمر الذي أزعج السجين الجديد، إذ ظنّ أننا نسخر منه.

- **لكن أنا مظلوم صدقوني، أنا جيت أزور مسجون في السجن الثاني، قاموا العسكر- الله يقلعهم- مسكوني من يدي وقالوا جنب صاحبك يا مدبر، أنا مدبر!**

قال عمي ناصر ضاحكًا:

- **بسيطة يا رجال ستخرج بسرعة، كلها سنة من اليوم وتخرج للحرية.**

صدمته الإجابة؛ فقد أخذها على محمل الجد، رغم أننا نعرف أنها مجرد مداعبة. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى جاءه فراش ووجد له مكانًا بجانب عبد الفتاح، المتهم بإيواء فتاة والعيش معها ثلاثة أشهر. كانت عيناه تجولان في السجن، تمرّان على النائمين، والسائرين، والمتحدثين، وعلى من يتناول طعامه.

منذ البداية، قطع الطريق على أي حكاية يمكن أن تُنسج حوله؛ إذ سرد قصته بصوتٍ عالٍ، ليُسمع من لم يسمع، فلا يترك مجالًا للإشاعات.

***

عدتُ أتبادل الحديث مع هذا وذاك: قضايا جنائية، وقصص، وذكريات. بدأت أشعر بالضجر؛ فبعد رحيلِ ابنَيِ الجدريّ، لم يَعُدْ هناك قاتٌ لمضغه نهارًا، ولم تعد لديّ امتحانات تشغلني. صرتُ أقضي وقتي في الدوران داخل السجن، ثم أعود إلى مكاني لأنام على فترات متقاربة.

أصبح النوم بعد الغداء عادةً عندي؛ فما إن أتناول الطعام حتى أغفو، ولا أستيقظ إلا على أذان العشاء، فآكل، ثم ألعب الورق حتى الثانية أو الثالثة

فجرًا، ثم أنام من جديد، في روتينٍ يبعث الملل.

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، نادى السجّان باسمي. أربكني الأمر؛ فقد جاء خالي وغادر، وكنت قد بدأت لعبة ورق مع عمي مسعد، ورياض، وعبد الصمد.

- **ليش ينادوا باسمي في هذه الساعة؟**
- **بركات الحكحكة مع يوسف من صباح الصبح.**
- **أمانة يا عم مسعد مش وقتك تتهابل!**
- **لا تخف، هو يمكن مدير السجن يشتي يعرف بتصلي في أي محراب، محراب يوسف والا زليخا!**
- **أستغفر الله العظيم، مالك يا عم مسعد، يوسف عن يوسف يختلف، قبل نص ساعة كنت عاقل!**
- **بطِّل كسل وقوم شوف ما يشتوا، الانتظار يزعلهم منك!**

خرجتُ وقلبي يرجف بشدة. حتى الآن لم أتلقَّ صفعةً أو ركلة. هل انتهت قضيتي؟ هل سأخرج؟ هل راقبوني وأنا مع يوسف؟ ماذا يريدون؟ وما أدراهم أنني تحدثت مع يوسف؟ هل هو السجين الجديد؟ لكن السجين الجديد أتى بعد انتهاء حديثي مع يوسف؟ يمكن عبد الفتاح هو الذي أخبرهم! بس عبد الفتاح صاحبي وبيننا عيش وملح! وماذا لو عذبوني كما عذبوا عمي مسعد، من أجل مداعبات بريئة مع المراهقين! ماذا سيفعلون بي؟ تدفقت الأسئلة في رأسي بلا توقف.

في الداخل، كان أول وجهٍ أراه هو النقيب وجه عبد الكريم. كنت خائفًا مما يخفيه، لكنني بادرت بالسؤال:

- **هل سلم شقيقي نفسه؟**
- **لا؟**
- **ومتى أخرج؟**
- **إلى أن يسلم نفسه.**

أخرج يده من جيبه، ومرّر أصابعه على خدي، ثم إلى عنقي:

- **كبرت... وذقنك طال.**

شعرتُ بنبض قلبي يتسارع، وتراجعتُ إلى الخلف.

قال مبتسمًا:

- **هيا مالك، بتتعفف الآن! والا ما أعجبتك مثل ياسر!**
- **من ياسر؟**
- **العسكري الذي طلبت منه إدخالك إلى السجن، قال إنك متعته قوى.**
- **لا تصدقه، هو غصبني.. وأنا أبعدت يدي.**
- **ويوسف!**

هنا فقط شعرتُ بالخوف الحقيقي. فالإشاعات يمكن نفيها، لكن عيون السجناء لا تُكذَّب.

- **والله ما عملنا شيء يا فندم، السجن شبه فارغ وهو من السجناء القديمين وجلسنا نتكلم في قصص وحكاوي.**

- **لا تتكلم معه، ولا تقترب منه.**
- **حاضر يا فندم!**

ثم عبث بأذني وهو يبتسم:

- **ممتاز. ممتاز، لاحظ ما قد قمنا بإهانة كرامتك ولو بصفعة. إحنا عارفين إنك ابن ناس من أول يوم دخلت هنا، عيال القحبة واضحين مثل الشمس.**

أخرج هاتفه وورقةً عليها رقم وضغط على أزرار الهاتف:

- **هذا رقم أخوك. اطلب منه يسلم نفسه. قل له إنك تتبهذل وتتعذب. لو سلم نفسه عتخرج وننهي هذي القضية، قد أخذت أكثر مما تستحق.**
- **ولا يهمك يا فندم!**

وأعطاني الهاتف ليبدأ أخي بالحديث!

- **خرجت؟ أنت بتكلمني من الشارع؟**
- **لا أنا في السجن وهذا تلفون الفندم عبد الكريم.**
- **قصدك الأهبل.**
- **أيووة، الله يحفظه أعطاني فرصة أتكلم معك علشان ترجع لأنهم يشتوا يغلقوا القضية.**
- **وأنا ما دخلني؟ أنت الذي رميت بنفسك في السجن! ما حد قالك تفتح صدرك وتقفز لداخل المعركة! قد كنت في المنجرة قاصد الله**

على روحك.

- **والآن أيش الحل؟**
- **الآن أنا في وجه الشيخ قائد المعسكر، ولو قال لي ارمي نفسك في البحر بنفذ أمره، أما أنني أدخل مكانك يبهذلوا بي فلا.**

شعرت بالغضب، لكني تمالكت نفسي:

- **لكنهم يعذبوني داخل السجن كل يوم!**
- **ما أقدر، إذا عملوا لك ملطام في الليلة أنا لو أدخل حيعملوا لى عشرين، ما أقدر أكسف وجه القائد وقد أعطاني وجهه.**

وأغلق الخط.

كان وجهي يشي بما أشعر به. بدت على عبد الكريم ملامح شفقة، كأنه يقول: لا أحد معك هنا... وأنت من اختار هذا المصير... وقصة أنك ستخرج في القريب مجرد خيال روج له من تغامزوا عليك وأنت في القرية...

قال لي النقيب بعد صمت:

- **المهم ابتعد عن يوسف، وقل للسجين الجديد يأخذ فراشه ويخرج.**

عدت إلى داخل السجن وتوجهت إلى السجين الجديد مباشرة وقلت:

- **الفندم عبد الكريم يشتيك، يقول لك مهمتك داخل السجن انتهت.**

لم يتحدّث السجين الجديد، وخرج بهدوء. كان جاسوسًا جديدًا، لكنه لم يعد ذا أهمية داخل السجن. لم ألعب الورق مع الرفقة، بل توجهت مباشرة

إلى فراشي، وتدثّرت وأنا أفكّر فيما حدث تلك الليلة، حتى غرقت في النوم متأخرًا، لدرجة أنني لم أستطع النهوض إلا عند الواحدة ظهرًا.

ظللت لساعات طويلة متدثّرًا، متظاهرًا بالنوم، خوفًا من نظرات عمي ناصر، أو عمي مسعد، أو عمي فريد، بالإضافة إلى عبد الصمد ورياض، أو حتى الآخرين؛ إذ لم أكن أحتمل أن يروا وجهي الكئيب منذ ليلة أمس.

لم أعد خائفًا من تهديدات الفندم عبد الكريم بقدر ما أصبحت محتقرًا لنفسي. اكتشفت أنني مجرد بطل وهمي، بطل من ورق. بدأ الكره يتسرّب إلى داخلي: تجاه أسرتي، والمنجرة، والدراسة، وحتى أسرتي الجديدة داخل السجن. أحسست أن الجميع ينظر إليّ كمغفّلٍ رمى بنفسه إلى قعر الجحيم، متوهّمًا أنه منقذ.

كان عبده قد خرج ليستلم وجبة الإفطار من خالي، ثم عاد، ووضعها بجانبه دون أن يمسّها. ظل يرمقني بنظرات متسائلة، ولم يجرؤ على الاقتراب مني، حتى بعد الغداء والمقيل. اقترب أخيرًا وهمس:

- **كلنا نتعذب يا سهيل، كلنا نتعذب.**
- **لم أتعذب بالأمس.**
- **إذًا ما حصل لك؟ لا تأكل ولا تلعب ولا تنام!**
- **تراقبني؟ من أنت علشان تراقبني! أنت وصي عليّ، من أنت يا سارق، يا لوطي، مالكش دعوة بي، "اتق شر من أحسنت إليه"!**

احتقن وجهه بالدم، وبدا كأنه على وشك أن يهاجمني، لكنه تماسك،

وخرج إلى باحة السجن تحت شمس ما بعد الظهيرة، وجلس عند بوابة الخروج يلهث من الانفعال.

لم أستطع البقاء تحت الغطاء طويلًا، فخرجت بعده بقليل. كنت قد استعدت بعضًا من روحي بعد أن أفرغت غضبي فيه. دخلت الحمّام، وخلعت ثيابي، وظللت أسكب الماء على جسدي مدة طويلة. سكبت ما يزيد على برميل من ماء الحنفية، وضحكت ضحكة باردة جمّدتها قسوة الماء. خشيت أن أصير مثل عمي حسين الفلسطيني، المقيم في هذا السجن منذ زمن بعيد.

دخل عمي ناصر الحمّام وأنا عارٍ، ولم أعرف كيف أستر نفسي. نظرت إليه بعينين متجمّدتين من البرد، وأسناني تصطكّ، حتى كدت لا أستطيع الكلام. قلت وأنا أحاول ستر عورتي:

- **مالك يا عم ناصر!**
- **مال أمك بتتفقعس! من أمس وإحنا نقول: يعلم الله ما فعلوا بالولد! سألت السجان قال ولا أحد مسكك ولا أحد ضربك ولا أحد أهانك. أنا كنت معتقد أنك رجل، لكن في النهاية طلعت مَرَة، قل لنا لو قدك من النسوان علشان تريحنا بدل ما إحنا بنهرط حليينا للقاع!**
- **أنا رجاااااال يا عم ناصر.**
- **هيا اثبت لي، الكلام ما أصدقه، أشتي فعل.**

وأغلق الحنفية، وكأن ذلك إنذار بعدم فتح الموضوع مجددًا.

خرجت إلى ساحة السجن أبحث عن الدفء، وبقيت واقفًا في مكاني حتى جاء نداء الزيارة للعشاء. رأيت عبد الصمد يتنقّل بين السجناء ويتحدث معهم، فساورتني الشكوك أن الحديث عني، وربما كنت أبحث عن سبب لأتخلّص من تبنّيه؛ فقد أثقلني، ولم تعد الأطعمة تكفي.

ولما لم أعد أحتمل المزيد ذهبت إليه، وجذبته إلى الداخل، وقلت بغضب:

- **جالس تتنقل من واحد لواحد تكلمهم عني؟**
- **لا والله، كنا بنتكلم في حاجات ثانية. ورب الكعبة.**
- **ومن أي حين تعرف رب الكعبة وأنت سارق!**

دفعته بعيدًا عن فراشي، وتدثّرت، وأدرت وجهي عنه، ليعرف أنه غير مرغوب فيه. وبقينا نحن الاثنان بلا إفطار ولا غداء ولا عشاء. لكنني لم أستطع تحمّل رؤيته لاحقًا وهو جالس وحده في مكاننا القديم، لا أحد يدعوه للنوم معه، والبرد يشتدّ. فسحت له مكانًا بجانبي، ورفعت البطانية مشيرًا إليه أن تعال. جاء واندس صامتًا، جائعًا، كما كنت أنا.

همست له:

- **الفندم عبد الكريم أهانني أمس... واتصلت بأخي، قال لي إني أهبل، وما بيرجع إلا بأمر من قائده.**
- **تصدق بالله! أنا ما اشتيك تخرج! من عاد بيأكلني وينيمني عنده!**
- **الله يقلعك، خلينى أخرج وخذ الفراش كله لك.**

- **جلستك عندي تسوى الدنيا.**
- **خلينى أخرج وبس، والله ما عاد أدق عليهم باب بيت.**
- **من؟**
- **أسرتى.**
- **أيوة وأنا كمان، قالوا لي أن أسـرتي عرفت أنني هنا بعد أسـابيع من الغياب، لما ما اتصلت بهم ولا أرسلت لهم فلوس من العمل سألوا وعرفوا.**
- **قد تعشيت؟**
- **لا تعشيت ولا تغديت ولا فطرت.**
- **خلينا نقوم نأكل المخزون ونجيف بالغرفة ضرط للصبح.**

عادت إليّ روحي بعد ذلك. في النهاية، هذه هي أسـرتي الجديدة. لم يقترب مني أحد حين كنت متعبًا؛ كانوا يتركونني بهدوء. حتى عمي ناصـر، بطريقته الخشنة، هو من دفعني للخروج مما كنت فيه.

كانت مشـاعري متناقضـة: أحب هؤلاء السـجناء، لكنني لا أريد أن يكونوا عائلتي، ولا يمكن أن يكونوا كذلك. ورغم الغضـب الذي أحمله تجاه أسـرتي الحقيقية، ما زلت أنتمي إليهم، وأحبهم. كنت مسـتلقيًا، وعبده إلى جواري، أفكّر وأعيد حساباتي، وأحاول أن أجد مخرجًا من هذه الورطة التي دفعت نفسي إليها بسبب بعض الغمزات.

***

في العاشرة من صباح اليوم التالي، دخل عمي ناصر إلى ساحة السجن، لكن هذه المرة لم يكن يحمل طعامًا، بل ممسكًا بيد طفلين. كان يوم زيارة زوجته التي لم تره منذ أكثر من شهرين بسبب بُعد القرية.

كانت الطفلة الكبرى، ثريا، ترتدي قرقوشًا بنيًا بحواف صفراء حريرية، يضفي على وجهها إشراقًا. أما الصغير، حمود، فلم يتجاوز الرابعة، يرتدي ثوبًا بنيًا بلا حذاء، وبقع الحلوى تملأ وجهه الأسمر، وفي يده قطعة حلوى مغطاة بالسكر. كانت عيناهما تجوبان السجن بخوفٍ ودهشة.

قدّمهما لنا عمي ناصر، فسارعتُ لشراء بسكويت من مطعم السجن، وأعطيت كلًّا منهما علبة. وأخرج عمي فريد موزتين لهما، بينما اشترى الحاج ناصر كأسين من الشاي.

جلس الطفلان القرفصاء، يأكلان بنهم، وينظران إلى السجناء بفضولٍ حذر. حاول عمي مسعد مداعبتهما، لكن ابتسامتهما بقيت خجولة.

كان غياب عمي ناصر قد أثقل كاهل زوجته، فلم تعد قادرة على زيارته بانتظام كل أسبوع؛ بسبب واجباتها في البيت وحاجتها إلى المال. وبحكم مكانته بين السجناء، سُمح له بإدخال طفليه للحظات. ما إن احتضنهما حتى دفع بهما إلى الداخل، وبقي يلاعبهما دقائق، قبل أن يأتي الحارس ويأخذهما.

بعد مغادرتهما، عاد إلينا عمي ناصر، وعلى وجهه فرح واضح، وقال إنه يحمل أخبارًا مفرحة:

- **يوم السبت عيخرجوني إلى النيابة، ومن هناك إلى المحكمة. المحامي استلم قضيتنا وسحبها من مبنى المباحث إلى النيابة، وهذا يعنى خروجي أنا والحاج ناصر وفريد.**

كان الخبر مفاجئًا. ها هم على وشك الخروج من سجن المباحث. وربما كان هناك تلاعب ما سيقود إلى خروجهم النهائي، بل وربما إلى الحكم ببراءتهم. شعرتُ بشيء من الأمل؛ فأنا مجرد رهينة. إذا كان أصحاب القضايا الكبرى سيغادرون، فلا بدّ أن يأتي دورنا نحن الرهائن.

كان رياض جالسًا بجانبي، يتابع ابنَي ناصر وهما يلعبان مع والدهما، وعيناه تلمعان بشوقٍ واضح. قال:

- **بنتي عتجي اليوم مع أمها.**
- **وكيف طاوعك قلبك تجيبها إلى السجن؟**
- **صغيرة وما تفهم معنى السجن. أحتاج ألاعبها.**
- **كيف تزوجت؟ لا بد أنك مررت بتجارب عاطفية كثيرة!**

وافقني دون غرور، وظلّ يحدّق إلى الشبك الحديدي مترقبًا:

- **في الجامعة كنتُ من الشباب الذين يتجوّلون كل يوم مع فتاة مختلفة، لكن زوجتي لم تكن من هذا النوع. أعجبتُ بها، وتقربتُ منها، فمانعت قليلًا، ثم بدأت بيننا قصة حب. بعدها لم أعد أتحدث مع غيرها، وتزوجنا في نهاية السنة الثالثة. خلال السنة الرابعة، عملتُ حارسًا في مستشفى جامعة العلوم والتكنولوجيا**

لقربه من الجامعة، وكان طول قامتي له دور في حصولي على العمل في شـركة الحراسـة. أما زوجتي، فلم تُكمل سـنتها الرابعة ولا امتحاناتها، إذ أصـبحت أمًّا لخلود. تعودنا على العيش من راتب المستشفى، إضافةً إلى ما كان يقدمه لي الزوّار مقابل تأمين حراسة جنابيهم ومركباتهم عندما يدخلون بأسـلحتهم. إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم؛ تشاجرتُ مع بعض الشباب، وضاعت الجنبية... ووجدتُ نفسي هنا: بلا عمل، ولا مستقبل، ولا عائلة.

قلت:

- **خليها تشتغل بشهادتها!**

تنهد وقال:

- **ربما لن يوافق أحد على توظيفها وزوجها مسـجون. لكنها قوية؛ أخبرتني أنها تعمل الآن في الصـوف، تخيط ما تحتاجه الأسـر، مثل لباس قصبة المداعة، أو أغطية مزركشة... وأشياء من هذا القبيل.**

وفجأة جاء النداء باسمه فصفع فخذي بيده فرحًا:

- **جت خلود، جت خلود.**

عاد سريعًا، وفي يده زنبيل أسود فيه الإفطار، وبيده الأخرى يحتضن طفلة لم تبلغ العامين. كانت ترتدي فستانًا زهريًا، وشعرها متشابكًا في خصلات صغيرة متفرقة، وعلى خديها حمرة خفيفة بدت كأن أمها مسحتها عليهما من أحمر شفاهها.

كانت الطفلة جميلة؛ تجمع بين وسامة أبيها وربما جمال أمها. وفي قدميها حذاء بلاستيكي رخيص، يُصدر صفيرًا كلما مشت. ما إن وضعها رياض على الأرض حتى بدأت تركض في أرضية السجن المكشوف، ويتردد صوت حذائها في المكان. راح الجميع يحدّقون فيها، مأخوذين بحضورها المفاجئ، حتى كسر عمي مسعد الصمت وهو يصيح:

- **صلوا على النبي يا جن.**

سرت همهمة خافتة بين السجناء، وكان واضحًا أن الجميع يرغب في حضن الطفلة وتقبيلها، لكنها كانت تتملص بخفة، تقفز وتركض بخفة في أرض السجن كفراشة صغيرة. وحين همت بالتوجه نحو الحمامات، أسرع والدها وأمسك بها، ثم عاد بها نحوي، وألقاها في حضني.

لم يكن معي وقتها سوى ثلاثمئة ريال، ادّخرتها لحاجة طارئة، فأعطيتها لها.

- **احتفظ بفلوسك يا سهيل، ما معك غيرها.**
- **عيجي خالي بالغداء وأطلب منه.**

تمدّد بجانبي، وأجلس طفلته على بطنه. أخذ يدغدغها، ويدس سبابته في فمها، فتعضّه بأسنانها الصغيرة النابتة، تضحك فيضحك ضحكة صافية لم أسمع مثلها منه من قبل. ومع انقضاء الدقائق الخمس الساحرة، جاء نداء السجّان الثقيل لينهض رياض إلى الخارج، ومع كل خطوة نحو باب السجن كان يمطر ابنته بمجموعة من القبلات. ثم عاد إلينا مبتهجًا، كأن تلك الدقائق القليلة أعادت إليه عمرًا كاملًا.

كان لوجود الأطفال في السجن أثر السحر. لمعت أعين السجناء بالمحبة، وخفّت قسوة الوجوه، وبدا المكان كله كأنه غُمر بشاحنة من الزهور العطرة، طردت- ولو مؤقتًا- كل روائح السجن العفنة.

❊ ❊ ❊

حرية حزينة

لأسابيع لم يكن عبدالصمد يسمع اسمه إلا حين يُنادى ليلًا ليتعرض للتعذيب. لكن الأمر تغيّر قبل خروج عمي ناصر وشركائه؛ ففي ذلك الصباح سمع اسمه في يومٍ مشمس.

طوال الأسابيع الماضية، أي منذ رأيته جالسًا القرفصاء على البلاط في يومه الأول في السجن، كان قد اعتمد عليّ كليًا في مأكله ومشربه ومنامه. أحسستُ أنه ولدي، وأنني مسؤول عنه، ولم أبخل عليه بشيء. وهو أيضًا لم يبخل عليّ بأحاديثه المتنوعة، واهتمامه بي أيام الامتحانات.

بدا مندهشًا من سماع اسمه يتردد في فم السجّان في الصباح الباكر، فقفز من جانبي بدهشة. كنا قد انتهينا لتوّنا من الإفطار، فهرع مسرعًا إلى بوابة السجن وغاب خلفها نحو ربع ساعة. كنت أعتقد أنه ذهب إلى التعذيب، لكن "الأبرص" لا يعمل في الصباح؛ ولا يمارس التعذيب إلا إذا كان مخمورًا ليلًا، ومن عادته ألا يشرب صباحًا. حتى إن بعضهم يتحدثون عن طيبته في الصباح حين يكون واعيًا، وعن ثقافته العالية وتعامله الراقي.

قال لي عمي ناصر:

- **لا تقلق. إن كان هذا تعذيبًا فقد تعوّد، وإن لم يكن تعذيبًا فهو تحقيق، وإلا فربما عرف أهله بوضعه وجاؤوا إليه. في كل الحالات، هو بخير.**

عدت إلى مكاني أنتظر في ساحة السجن المكشوفة. وما لبث أن عاد محمّلًا بفراشٍ وثيـــر من الإسـفنج، وبطانيةٍ حمراء كبيرة، وزنبيلٍ فيه أكلات كثيرة وفواكه. رمى كل ذلك على فراشي، ثم أدخل يده في جيبه وأراني ثلاثة آلاف ريال:

- **ثلاثة آلاف ريال يا سـهيل! دفعتها لي أمي وأبي. كلهم جاؤوا لزيارتي: إخوتي وأخواتي.. امتلأت غرفة الزيارات.**

بدأ ينبش ما في الزنبيل وأنا أنظر إليه دون أن أفهم شيئًا. أحسستُ به في تلك اللحظة مثل الزئبق؛ بعد أن كان- طوال أسابيع- كالصلصال في يدي أشكّله كيفما أريد. شعرت أنني لم أعد أملكه، ولم يعد تابعي. أخذ قطعة كبيرة من صدر دجاجة مشوية ودسّها في فمي، وهو ما يزال يتحدث عن زواره. رحت أمضغ صدر الدجاجة بصعوبة.

قلت:

- **أين كانوا طوال هذه المدة؟ شـهور... ما فكّروا في الاتصـال بك، وأنت لا تجد ما تأكله ولا ما تشربه؟**

قال:

- **ما كانوا يعرفوا أني هنا.**
- **أو كانوا يعرفون ولا يريدون المجيء؟**
- **المهم أنهم حضروا في النهاية يا سهيل!**
- **في النهاية! بعد أن بقيت أسابيع تقتات على فضلات السجناء وبعد أن اقترب موعد خروجك أتوا يكفرون عن جريمتهم بدجاجة!**

بدا متفاجئًا من حدّة كلامي، واستعد للدفاع عن أسرته:

- **هم في القرية، ما درَّاهُم! أنت تعرف أن كل الذين كنت أسكن معهم في الدكان تحت بيت القاضي ما رجعوش إلى القرية؟ هربوا بما سرقوه؛ لأن الشرطة ممكن تقبض عليهم هناك! لكن بعدما صرفوا كل النقود وباعوا الجنبية التي سرقوها وصرفوا نقودها رجعوا إلى القرية لتقبض عليهم المباحث واعترفوا بجريمتهم. أسرتي عرفت بالأمس فقط.**

أخذ برتقالة من الزنبيل، قشرها وأعطاني إياها:

- **خذ كل هذه. خلينا نستمتع بالأيام الباقية لي في السجن.**
- **الأيام الباقية لك في السجن! وأنا أجلس هنا!**
- **كلنا سنخرج يا سهيل، كلنا سنخرج!**
- **أنا هنا إلى الأبد، وأشتيك معي.**

قطعت حديثي عصا عمي ناصر وهي تضرب ظهري، مشيرًا إليّ أن أبتعد، ليتمدد هو على البطانية الوثيرة. أخذ برتقالة، وبدأ يقشرها، ويرمي قشرها فوقي، ثم مدّ ساقه المكسورة وألقاها في حجري، وهو يمضغ، ولكزني بعصاه مرات عدة وهو يقول:

- **لا تزعل الولد وتقتل فرحته بزيارة أهله، ومثلما قال لك: كلنا عنخرج من هنا، بعد يوم، بعد أسبوع، بعد شهر، كلنا عنخرج. قاعد تهينه، وما قد أعطيته أساسًا! شوية فاصوليا! والا بسبب أنك أعطيته شبر من فراشك؟ احمد ربك، كان بيدفيك في ليالي البرد!**

عجزت عن الرد. كان عمي ناصر مخيفًا ومحبوبًا في آنٍ واحد. أنهى برتقاله، وبدأ يقطع الدجاجة، وأخذ رجليها يأكلهما. لا أدري لماذا رأيته حينها كطفيلي يأخذ فراشنا ويأكل طعامنا ويتدخل في شؤوني أنا وصديقي الذي كنت أظنه ملكي. لكنني التزمت الصمت، بوجهٍ منكسرٍ وممتلئٍ بغضب مكظوم.

دفعني بقدمه المجبّرة إلى الخارج وقال:

- **اخرج الحوش، اشفط لك هواء بدل الهواء المكظوم هنا، قد وجهك أحمر مثل الطماطم!**

***

بالفعل، كان هواء الحوش منعشًا، مختلفًا عن رائحة العفن في الغرفة. بدأ الصفاء يتسلل إلى رأسي، ومع ذلك ظل الغضب في داخلي. كنت أقول لنفسي: لن أخسر صديقي... لن أخسره... سيبقى معي مهما كان. لكنني لم أحتمل فكرة أن يكون لعبدالصمد طعام أكثر مما يصلني من خالي، ولم أحتمل أنه لن ينام على فراشي كما اعتدنا، ولا أن يفقد مكانه الخاص بجواري.

بعد زيارة أهله، كنت أقبل بصعوبة قطعة لحم يدسها في فمي، وأكره أن آخذ منه شيئًا، أنا الذي كنت أطعمه طوال الشهور الماضية. كنت أشعر بالمهانة وأنا أمضغ ما يعطيني.

حاول ألا يستفزني؛ فكان يأكل من الأطعمة البسيطة التي يحضرها خالي،

مبررًا ذلك بأنه تعوّد أن يأكل معي، وأن بعض الأكلات التي تأتيه تفسد. وأحيانًا كنت أطاوعه فنأكل من طعامه معًا، ويشاركنا الآخرون أيضًا، لكن بشرط أن أكون حاضرًا؛ وإلا تُرك الطعام حتى يفسد.

مع الوقت، اعتدت فكرة أنه أفلت من بين يدي، وبدأت أتعامل معه كصديقٍ عادي، إن أحضر طعامًا أخذت منه، كأي شخص آخر. سألته:

- **متى عتخرج؟**
- **قال لي أخي أنه بعدما وصل السرق للسجن الثاني بدأ بمعاملة خروجي.**
- **متى عتخرج يعني؟**
- **اليوم، قال أخي إنه عيدفع الرسوم حق السجان.**

لم ينتظر ردي. ذهب ليلف فراشه ويربطه بشاله، وتركه بجانب بوابة الخروج، ثم أخذ يودّع السجناء واحدًا واحدًا. كانت أحاديثهم أحاديث وداع، لكنه لم يجرؤ على وداعي... تركني للأخير. لم يمر وقت طويل حتى بدأ السجّان ينادي الأسماء. كنت ما أزال أتناول إفطاري البارد ببطء شديد. خرج عمي ناصر، وعمي فريد، وعمي ناصر الرهينة. لم أساعد أحدًا منهم، رغم أن عمي ناصر ناداني أكثر من مرة، لكنني تحججت بالإفطار الذي طال بشكلٍ لافت.

كان حسام هو من ساعد الجميع، رتّب أغراضهم وحملها إلى الخارج. بدت البوابة مكدّسة بالفُرُش والأدوات المعدنية الخاصة بالسجناء الأربعة الأقرب إليّ.

التفت عمي ناصر إلى الجميع، وألقى خطبته الأخيرة:

"أيها المساجين الكرام، نحن اليوم نودع دفعةً جديدة من المجرمين؛ دفعةً ستغادر هذا المكان وقد تعلّمت الكثير، وتعرّفت إلى وجوهٍ وقصصٍ لن تُمحى من الذاكرة. دفعةٌ ستظلّ، حاضرةً فينا ما حيينا، نستعيد أيامها وتفاصيلها كلما ضاق بنا النسيان."

قاطعه السجّان بفتح باب الزنزانة، ثم بدأ ينادي الأسماء، بينما كان عمي ناصر ما يزال يلقي خطبته:

"... نلاقيكم في الشوارع، وإذا ما تلاقينا، اذكرونا بالخير."

ثم شرع في أداء أغنيته الشهيرة، وهو يتوكأ على عكازه متجهًا نحو الخارج:

"يمني السعيدة يا حمار يا بن الحمار، يمني السعيدة، يا حمار يا بن الحمار."

كان يغنيها وحده، وصوته يبتعد في ممرات المباحث حتى اختفى، فلم يعد هناك كورس يردّد خلفه.

كان قد جاءني عمي ناصر، وأخبرني أنه ترك لي مصحفه هدية، وأن داخل الهدية هديةً أخرى سأعرفها عندما أفتح سورة يوسف. ولماذا يوسف؟ لست أدري. لكنني حين فتحتها وجدت خمسة آلاف ريال.

اقترب عبد الصمد مني، ورغم برودتي في وداعه، أمسك وجهي بكفّيه وقبّلني في خدّي قبلات كثيرة، وهو يحتضنني، ثم قال، ووجهي ما يزال بين يديه:

- **مش عارف ليش زعلان مني الأيام الأخيرة، لكن أنا نسيت أي**

حاجة عملتها بي. ما أتذكر لك يا سهيل إلا كل حاجة حلوة. بجلس أتذكرك لما تخرج، وإذا ما التقينا، والله ما أنساك، بسمي واحد من عيالي على اسمك علشان ما أنساك.

كانت كلماته صادقة. لم أجد ما أعبر به عن الفراق فقلت:

- **طيب، ياالله روح، أهلك منتظرين.**
- **ثوبك الأصفر الثاني تحت فراشك، تفقد جيوبه.**

وقبل أن أفهم ما يقصد، كان قد خرج إلى السجّان، الذي سلّمه لأهله بعد أن أخذ المبلغ مقابل خروجه. ورغم الحزن الشديد لفراق الأربعة الذين أحببتهم كثيرًا، تذكّرت العبارة التي كنت أرددها كلما خسرت صديقًا:

"باب وتقفل!"

ذهبت إلى فراشي لأرى ما تركه لي عبد الصمد، فوجدت ثلاثة آلاف ريال، وهي المبلغ الذي أعطاه إياه والده، بالإضافة إلى ألفين آخرين، ربما أخذها من أحد أشقائه.

كل الناس لديهم أسر تحارب من أجلهم في الخارج، إلا أنا... أحارب من أجل أسرتي في الداخل. شعرت أن هذه اللفتة، لو جاءت في وقت آخر، لكانت رائعة. لكنني الآن شعرت كأنه يعطيني أجر استضافته، رغم أنني لا أحتاج إلى أجر؛ كان يكفيني أنه معي، نتسلى ونلعب ونقضي الوقت في الحديث.

كنت غاضبًا؛ لأن مجموعة من المجرمين وقطاع الطرق واللواطيين يفرج

عنهم، بينما أنا باقٍ هنا، ككلبٍ أجرب لا يفعل شـيئًا. أيّ عدلٍ هذا الذي نعيشه؟ لقد تركوني ورحلوا.

هزّني رياض، حارس المستشفى، وقال:

- **كلنا موجودين معك، أو ما يعجبك المستجدين!**
- **أنت من المحاربين القدامى يا رياض!**
- **حاشـا وكلا، ما أحد قبلك يا فندم. أنت اللواء المقدم الركن في هذا السجن.**
- **أشتى أخرج من هنا، تعبت، ما عاد أشتى أجلس دقيقة واحدة.**
- **كلنا عنخرج، يوم يومين، شهر إثنين ونخرج.**

***

أصـبح السـجن متغيرًا: فارغًا، حزينًا، باردًا، كئيبًا. وفي الليل، سـارع بعض المسـاجين إلى دخول الغرفة الكبيرة لاحتلال أي مكان تحت السـقف بدلًا من الحوش البارد.

أخذ عمي مسـعد مكانه بجانب البوابة، وجلسـتُ بجانبه، ثم رياض، فعبد الفتاح، وبجانبه إبراهيم عامل المنجرة. وفي الجانب الآخر كان هشـام ملتصقًا بالجدار، وبجانبه حبيبه محمد ليحميه من أي متطفل، إذ كان شديد الغيرة. وبجواره راشـد، بائع القات، وسـلطان، بائع المسـروقات، وعاصـي اللوطي. أما الحوش، فبقي لعمي حسين الفلسـطيني مع اللصـوص والنزيل الجديد المخمور. لكن إدارة السـجن لم تترك لنا مسـاحة لالتقاط الأنفاس؛

فما إن مضت ساعة حتى بدأت دفعات جديدة تدخل السجن.

كان أول الداخلين شـابًا أبيض البشـرة، كثّ الشـعر، أجعد، ذا لحية ناعمة، يرتدي ثيابًا يمنية نظيفة: ثوبًا وعسـيبًا وشـالًا وكوتًا. يعطي انطباعًا بأنه من علية القوم. بدا في الثانية والعشـرين من عمره. ولم تمض دقائق كثيرة حتى أحضـرت له أسـرته فراشًـا وبطانية، كما يحدث مع معظم الداخلين. لم يتحدث مع أحد، ولم يكلّمه أحد، وسـارع إلى النوم. وعرفنا اسـمه من نداء السجّان: يحيى.

بعد دقائق، دخل ثلاثة شـبان يتجادلون بشـدة. شـعرنا، نحن القدامى في السـجن، أنهم أفراد عصـابة، على غرار عصـابة "الصـافية" التي خرجت قبل مدة. كان أولهم في العشرينات، أبيض البشرة، يرتدي بنطالًا وقميصًا أزرقين بدرجات مختلفة. أمّا الثاني، فكانت بشـرته تميل إلى الحمرة، يرتدي ثوبًا أبيض دون "عسـيب" أو "جنبية"، ويبدو أنه لا يرتدي ملابس داخلية، كأنه ارتدى ثيابه على عجل. أما الثالث، فكان أسـمر البشـرة، وفي السـن نفسـها تقريبًا، ويرتدي "معوزًا" وقميصًا.

خرجتُ أنا ورياض وإبراهيم للتعرّف عليهم، فعرفنا أسـماءهم: عبد العزيز، ومروان، وهاني. ومع أذان الظهر، دخل سـجين خامس: شـاب في الخامسـة والعشـرين، شـعره أصـفر، بشـرته حمراء، أنفه كبير ومحمر بشـدة، يرتدي بنطال جينز وقميصًـا أسـود. وعرفنا لاحقًا أن اسـمه رامي. ولم يدخل أحد بعده في ذلك اليوم.

بدأت الهمسات تنتشر في السجن؛ الكل يتكهن بتهم الوافدين الجدد، استنادًا إلى أعمارهم وهيئاتهم. وبدأنا، نحن الأقرب إليهم عمرًا، نفتح معهم أحاديث. علمت لاحقًا أن أول سجين دخل بسبب عصيانه لوالده؛ أبلغ عنه فسجنوه في "سجن الطاعة". ولم تكن هذه المرة الأولى، بل الرابعة. كان كلما تشاجر مع والده، اشتكى عليه الأخير للسلطات، ثم يرقّ قلبه بعد أيام فيُخرجه، إلا في المرة الثالثة، حيث بقي نحو نصف شهر في سجن مجاور. بدا لي شابًا مدمِنًا لعقوق والديه... إن صحّت قصته. أما الثلاثة الآخرون، فقد جاءني رياض بخبرهم...

كان الشاب الأكبر سنًا، وكذلك الثاني، جنديين في معسكر داخل العاصمة، أما الثالث فكان معروفًا بميله الجنسي المثلي. وقد شوهد، في إحدى المرات، وهو يصرخ من الألم بسبب جندي داخل قمرة قيادة دبابة، ومرةً أخرى شوهد مع جندي آخر، ورأسه بين فخذيه. كان "رامي" علامة مسجّلة في المعسكر لهذا الغرض.

كانت الخطة أن يذهب الثلاثة إلى دكان هاني- بجانب المعسكر- كل ثلاثة أو أربعة أيام، أو كلما اقتضت الحاجة. واستمروا على هذا الحال فترة طويلة، لكن الله يمهل ولا يهمل؛ إذ افتُضح أمرهم، وجيء بهم إلى هنا.

ومن نظرتي إلى الشبان الثلاثة، قلت لرياض إنهم لا يبدون خائفين ولا خجلين من الفضيحة. عرفت أن الجنود يتبعون الشرطة العسكرية، وأن أي جندي يُسجن في قضايا أخلاقية يُنقل غالبًا إلى جهات مختصة، وغالبًا ما

يُفرج عنه. فالمعسكرات، كما يُقال، فيها واحد أو اثنان يقدّمان مثل هذه "الخدمات" للجنود، ولا أحد يتحدث في الأمر ما دام لا يتحول إلى فضيحة.

حدثنا عمي مسعد عن بعض الجنود الذين دخلوا السجن يومين فقط قبل مجيئنا، ثم رُحِّلوا إلى الشرطة العسكرية لمعالجة قضاياهم هناك. والحقيقة، بحسب ما قيل، أن السجناء الجدد لم يكونوا يمارسون أي نشاط جنسي لحظة ضبطهم؛ إذ دخل عليهم سكان الشارع وهم بكامل ملابسهم، وبين أيديهم طعامهم، وبالتالي لا قضية قائمة من الأساس، لكن سمعة الشاب الثالث هي التي دفعت الناس إلى الظن بهم.

وشرع إبراهيم يتحدث، كعادته حين تتهيأ له فرصة الكلام، رغم أنه قليل المشاركة منذ دخوله، مع أنه يُعدّ من القدماء نسبيًا في السجن. وكان قد ذهب إلى آخر الداخلين في ذلك اليوم، وهو شاب عراقي لم يُقبض عليه في عمل مشين، بل أُخذ من بيته الإيجار، حيث كان يطبخ حلويات ليبيعها على عربة يد متهالكة في باب السلام، بجانب باب اليمن. ومع ذلك، لم يكن أحد يعرف تهمته الحقيقية حتى تلك اللحظة.

نفختُ الهواء الساخن وربّتُّ على صدري مثل العجائز، وقلت ساخرًا:

- **رعاك الله يا عبد الصمد! كنت ولا مراسل الجزيرة، تأتينا بالخبر اليقين.**

لاحقًا، عرفت قصته المتداولة في السجن بطريقتي الخاصة؛ إذ قيل إنه متهم

بتصـــوير أفلام إباحية لفتيات عراقيات لاجئات في صـــنعاء، وربما لفتيات يمنيات أيضًا، وأن الصحف ذكرت اسمه وجنسيته. لكن حين تحدثت إليه، أنكر كل ذلك، وقال إن الأمر مفبرك بالكامل، وإنه لا يملك أصـــلًا هاتفًا بكاميرا، ولا يعرف شيئًا عن التصوير الاحترافي.

تحدثت مع إبراهيم ورياض في الأمر، وكان إبراهيم غاضـــبًا دون ســـبب واضح، فقال:

- **يعني نفتح لهم دولتنا ويفســـدونا ويفســـدوا بناتنا وأولادنا بحقهم الدعارة!**

قاطعه عمي مسعد:

- **خلاص، حكمت عليه! وهو يحلف بالله إنه بريء! ولو صحّ الخبر، أنا أعرف عراقيين في اليمن، وكلهم شرفاء.**

***

لاحقًا، جاء والد الشـــاب الذي سُـــجن بســـبب عصـــيانه، يحمل له الطعام. استغربت: كيف سجنه، ثم يطعمه ويعطيه نقودًا؟ ثم وصلت فُرش وبطانيات للشـــبان الثلاثة، بينما بقي العراقي وحيدًا، بلا غطاء، حتى أفســـح له عمي حسين الفلسـطيني مكانًا إلى جواره، ولا أدري إن كان سيحتمل العيش بين مستوطنات القمل والبراغيث.

رأيت في ذلك لفتة طيبة؛ فهما الوحيدان من غير اليمنيين في الســـجن، وربما يجدان في بعضـهما عزاءً. ومع ذلك، لم أكن أحبذ وجود غرباء جدد، خاصة

من غير اليمنيين؛ إذ يأتون بلا شيء، ثم يطلبون كل شيء بإلحاح.

عند التاسعة ليلًا، نودي باسمي مجددًا. خرجت، فوجدت النقيب عبد الكريم ينتظرني، وكان هذه الليلة أكثر لزوجة من المعتاد. ما إن اقتربت، حتى أحاط خدي بكفّه ومسح عليه بنعومة، وقال إننا سنتصل بأخي مجددًا.

قلت:

- **كلمته المرة الماضية!**
- **نحاول ونشوف، أيش حنخسر!**

اتصلنا وجاءني صوت شقيقي من بعيد:

- **ها سهيل، ما تشتي؟**
- **الفندم عبد الكريم يشتك تسلم نفسك.**
- **قل له مش موافق!**
- **هذا تلفونه.**
- **يا سعم بيسجل؟**
- **مدرى؟**
- **حتى ولو بيسجل، قل له "طز".**
- **مالك، قدك وسخ هكذا.**
- **حر، مزاج، قارورة، زجاج!**
- **بطِّل الكلام حق الجهال.**
- **صدقني يا سهيل أنا هنا معزز مكرم. وبعدين القضية قد هي في**

طريقها للحل. أرسلت للقرية مليونين ونص علشان يضيفونها للدية؛ لأنهم طلبوا الدية "مَحْدَش"؛ يعنى الدية وضعفها أحد عشر مرة. قالوا قد جمعوا حوالي سبعة مليون وشوية، الحمد لله قد أغلبها متوفر.

- **يعنى ممكن أخرج قريب؟**
- **لا، الفلوس عادها بتتجمع بصعوبة، وأنت عارف كل شوية يحصل موقف ويجي لك كم من شيخ يشتوا يذبحوا لهم أثوار وقات وتطير الفلوس ساع الريح.**
- **لا تدعوهم.**
- **ما يسبرش، اللي مالوش كبير يشتري له كبير.**
- **يعني ما بتسلم نفسك؟**
- **لا، يالله معي عمل مهم، مع السلامة.**

كنت أعرف أنه يلعب الشطرنج مع أصحابه، ويقصد إغاظتي. كما كنت أعرف أن النقيب عبد الكريم يريد أن يستفزني، فلم أمنحه الفرصة، شكرته وعدت إلى السجن. ورغم أن رياض وإبراهيم كانا مستعدين لمواساتي، كما تعوّدا كلما خرجت إلى النقيب، فإنني لم أتحدث، ولم يسألاني.

جلسنا نلعب الورق مع عمي مسعد، وبعد دقائق نادى السجّان إبراهيم. قلت مازحًا:

- **جهز جلدك يا قمر للتعذيب، الأبرص جاء، وموعد الكوى بالسجائر، والتعليق على الحديد علشان جلدك يخشن.**

ضحك رياض وهو يرمي ورقة "البنت" على الأرض:

- **علشان جلدك يخشن وتقع رجال.**

صرخ إبراهيم:

- **أنا رجال من قبل ما أعرفك يا رياض.**

ابتعد إبراهيم متجهًا إلى "الأبرص" وفي عينيه نظرة قلقة، ثم عاد سريعًا بنظرة مستبشرة.

سأله عمي مسعد:

- **جت أسرتك؟**

قال وهو يفتح زنبيلًا أسود ويوزع علينا التفاح والخبز، ثم يفرش صحن الفاصوليا لنتعشى للمرة الثانية في هذه الليلة:

- **لا هذا عمي.**

أول مرة أشوف المجني عليه يزور الجاني!

قال عمي مسعد:

- **لما تخرج، لا تسرقه. هذا في مقام أبوك.**

قال إبراهيم:

- **هددني لو ما أرجع الفلوس بيخليني هنا. طيب من فين أجيبها وأنا محبوس؟ يخرجني وأشتغل وأسدد له. هو عارف إن المنجرة كلها تمشي على يدي. هو ما عاد يعرف يشتغل حاجة، كبر وخرف.**

فكرت: لو كانت كل القضايا بهذه البساطة، لحُلّت... خمسون ألف ريال

فقط، وتُطوى هذه المعاناة التي هو فيها.

بعد العشـاء، وزّع عمي مسـعد الورق. كان عمي حسـين قد اقترب، وجمع بقايا الخبز، وحين لم يجد فاصوليا، عاد إلى مكانه وأكله حافًا.

تذكّرته أيام كان السجن ممتلئًا بـــ"علية القوم"، كيف كان يجد ما يأكله. أما الآن، فلم يعد هناك من يعطيه حتى رغيفًا، ولم يعد أمامه إلا الكُدَم الجافة التي يرميها لنا الحرس كل صباح.

تركت اللعب، وذهبت إلى مطعم السجن، واشتريت له كأس شاي؛ فقد كان يمضغ الخبز بصعوبة.

كنت قد أصبحت "ثريًا" داخل السجن، بعد أن ترك لي عبد الصمد خمسة آلاف ريال وعمي ناصـر مثلها، وما يقدمه لي خالي في زياراته. غالبًا ما كنت أترك العشـاء لرياض وإبراهيم، وأكتفي بكعك وشـاي، بعد أن بدأت أعاني من الحموضة بسبب الفاصوليا.

نظرت إلى عمي حسـين، وأدركت أن لا أحد يزوره، ولا مال لديه، ولا أمل واضح في خروجه... ربما هو لا يرغب في الخروج أصلًا.

لم يبقَ من كبار السنّ سوى عمي مسعد، رغم تفاهة تهمته سيظل هنا طويلًا كما نحن. وكعادته، كان عمي مسعد يكسب لعبة الورق؛ إذ يحتفظ في ذهنه بحسـابٍ دقيق لكل ورقةٍ نزلت إلى "الملعب"، دون أن يظهر ذلك على وجهه. وكثيرًا ما يقول لمن يسبقه في اللعب:

- **يالله نزِّل ورقتك علشان أكسب بصرة.**

في الصباح التالي، جاءت الشرطة العسكرية أسرع مما توقعنا. لم يمضِ على وجود الشباب الثلاثة سوى يومين حتى صدر قرار خروجهم. بدأت النداءات منذ الصباح الباكر، وهو أمر نادر، بسبب تأخر إدارة المباحث المعتاد ومجيء مديرها في أوقات متأخرة. لكن بدا أن الأمر "دُبّر بليل"، كما قال عمي مسعد وهو يراهم يغادرون معًا، متجهين إلى الشرطة العسكرية، أو ربما إلى معسكرهم بعد أن مُسحت القضية على الأرجح.

أما الرجل الذي دخل قبلهم وهو يترنح من أثر الخمر، فقد أصبح عصبيًا، كأن معدته تنهشه طلبًا للخمر. اسمه الشدادي، ويفرط في شرب الكولا ليُخفف من حموضةٍ تفتك به طوال الوقت، وكان يظل بعيدًا عن الجميع. يكتفي بالأكل الذي يحضره له والده، وإذا احتاج شيئًا إضافيًا، كان لديه ما يكفي من النقود ليشتريه مع سجائره من دكان السجن.

***

رزق وهيثم- سارقا قناني الغاز- كانا لا يفترقان: يتحدثان، يتهامسان، ويلعبان معًا. ربما جعلتهما شراكتهما في السرقة كأخوين توأمين. أما أنا وإبراهيم ورياض وعبد الفتاح- الشاب الذي عاش مع فتاة- ومعنا عمي مسعد، فقد كوّنا فريقًا واحدًا: نلعب، ونأكل، وننام في مكان واحد. كوَّنا شلّةً بدأت أشعر بها لأول مرة بعد رحيل عمي ناصر الذي جعل السجن أشبه ببيت، والسجناء أشبه بعائلة.

يوسف ما يزال لا يكلمني، أو ربما أنا من لا يتحدث إليه، رغم محاولاته.

وحين تعب من ملاحقتي، اكتفى بالنظر إليّ من بعيد.

من جهتهما، تصادق عاصي وعبد الرب وشكّلا فريقًا متماسكًا، يدافعان عن مساحتهما وقت الزحام، ويأكلان وينامان جنبًا إلى جنب. وربما وجدا في قربهما عزاءً، رغم الفارق الكبير في العمر بينهما.

أما محمد وهشام فقد كوّنا ثنائيًا آخر؛ كان محمد أشبه بحارس شخصي لهشام، كأنه ملكية خاصة له داخل السجن. وربما كان يخشى أن يجد هشام رفيقًا جديدًا، في ظل وجود منافسين أقوياء: رياض، وإبراهيم، ويحيى... وربما أنا.

اللاجئان ظلا معًا، ولم يبدُ أن براغيث عمي حسين تؤثر في العراقي. أما راشد، بائع القات، وسلطان، بائع المسروقات، فكانا لا يفترقان؛ إذ جمعتهما بيئة السوق والعمل.

بدأ النداء على الأسماء. كان أولهم رياض، ثم عبد الفتاح، ثم رامي العراقي. سمعنا عبد الفتاح يبكي؛ وكان كثير البكاء. لم أفهم يومًا ما الذي رأته تلك الفتاة في هذا الشاب الضعيف. كنت أنا أيضًا ضعيف الشخصية، لكن السجن علّمني الكثير، بينما ظل عبد الفتاح خامًا، كأنه مادة خرجت لتوّها من الطبيعة إلى السجن. تساءلت: إن كان يخاف إلى هذا الحد، فلماذا يعيش مع بنات الناس على هواه وبلا مسؤولية؟

غادر الشباب الثلاثة، ومن بينهم رامي العراقي، الذي لم ينسَ أن يتذمر مما يحدث:

- **هربنا من التعذيب في العراق للتعذيب في اليمن!**

قلت له:

- **وما جلستك عندنا؟ أول ما تخرج من السجن ارجع بلدك.**

لكزني عمي مسعد بقوة في خصري، ونظر إليّ معاتبًا:

- **حرام يا سهيل، هذا ضيف وغريب، وما أحد يهين الضيف.**
- **هااع، ولا يهمني.**

***

انضم الشدادي إلى اللعب معنا، وكان محترفًا. وبينما نحن نلعب، ارتفع صوت رزق وهيثم وهما يتجادلان للمرة الأولى. ثم خفَت صوتهما سريعًا، بعد أن توصلا إلى اتفاق. بدا أن الخلاف يدور حول خمسة عشر ألفًا أخفاها أحدهما عن الآخر. أدركا أنهما يفضحان نفسيهما، فسكتا لحظة، ثم عادا إلى الهمس... وفجأة اشتبكا!

قفز إبراهيم نحوهما، لكنه بدل أن يفضّ الاشتباك، تلقى صفعات منهما، فانقلب المشهد: اجتمعا عليه! لحقت به، ومعي عمي مسعد، كما تدخل الآخرون لفض الشجار، ونجحنا في ذلك.

احتقن وجه إبراهيم بالقسوة، واشتد صوته، وتغيرت لكنته حتى بثّ الرعب في اللصّين. وما إن أمرهما بالجلوس حتى انصاعا، وكذلك فعل الآخرون. حتى نحن جلسنا عندما أمرنا بالعودة إلى اللعب. بدا واضحًا أن السجن يصنع داخله حارسًا جديدًا للنظام. تذكرت عمي ناصر، وتلك الأيام التي

بدت الآن بعيدة. واتضح لي أن السجناء يحتاجون إلى يدٍ حديدية ليخضعوا. هكذا هم البشر: لا يمتثلون للنظام بقدر امتثالهم للخوف.

فقدت اللعبة طعمها بعد الشجار، رغم أن الليل لم ينتصف بعد. ادّعى عمي مسعد الإرهاق، فلحقت به، وتفرق الجمع وخلدوا إلى النوم.

في الصباح التالي، بدا أن العمل في إدارة المباحث في ذروته؛ فقد توافد عدد كبير من الداخلين إلى السجن. دخل ستة سجناء دفعة واحدة، كأنهم موجة اجتاحت المكان. كان أولهم رجلًا أسمر شديد السمرة، ضخم الأنف أفطس، بكفين غليظتين تدلان على عملٍ شاق. لم تمضِ لحظات حتى ناداه السجّان: "رفيق". الثاني كان شابًا بكفين معروقتين، كأنهما لكهلٍ في السبعين. عرفت لاحقًا أنه يعمل خياطًا لعباءات النساء. الثالث كان في الخامسة والعشرين، حليق الوجه، مصقول الخدين، يشبه في ملامحه "الفندم" عبد الكريم، وإن كانت ملامح الأخير تميل أكثر إلى النعومة. كان يرتدي ثوبًا أسود وجاكيتًا رخيصًا؛ يبدو أنه اشتراه من محلات الثياب المستعملة. والرابع رجل أنيق، يرتدي ثوبًا وعسيبًا وكوتًا وشالًا متناسق الألوان، كأنه كان في طريقه إلى مناسبة. أما الأخير فشاب في منتصف العشرينات، يحمل حزامًا جلديًا مثقّبًا لطلقات الرصاص، ربما كان جنديًا. كان يرتدي معوزًا مرفوعًا إلى ركبتيه، وتكشف ساقاه عن قوة واضحة. أخبرني إبراهيم أنه من البيضاء، حيث يلبسون على هذا النحو. كان اسمه فراس.

مع نهاية اليوم، دخل رجل أسـود، بأسـنان صـفراء منفّرة حين يبتسـم، بدين نسبيًا، ويرتدي "مقطبًا" مخططًا وقميصًا متناسق الألوان معه.

***

مع مرور الوقت بدأت الزيارات تتوافد: أهالي السـجناء الجدد يجلبون الأفرشة والبطانيات والطعام والماء والنقود، كأنهم ما زالوا في بداية الصدمة. وبدأنا نحن نصنّف القادمين وفق حالتهم المادية، من نوع بطانياتهم.

الشـاب المصـقول الخدين- الشـبيه بعبد الكريم- كان اسـمه عبد الكريم أيضًا... يا لغرابة الصدف! وهو مسجون في قضية شذوذ. أما الشاب النحيف فكان اسمه فواز، والرجل الأنيق اسمه مهدي.

نادى السـجّان باسـم مهدي مرارًا، لكنه لم يجب. فاضـطر إلى الاقتراب منه، وألقى فوقه الفراش وهو يسـبّ ويلعن، اسـتقبل مهدي الفراش ببلادةٍ تامة وقال:

- **ليش ما دعيتني! كنت أشتي أتحاكى مع الذي جاء بالفراش.**
- **صـحت مثل واحدة بتولد اثنين، وأنت مدعمم! من جاء لك بالحاجات ذهب.**
- **أنا ما سرقت ذهب!**
- **رحل، رحل.**

قال ذلك وهو يشير إلى مهدي نحو باب الخروج، علامةً على الرحيل. تهلّل وجه مهدي، وجمع فراشه سريعًا، لكن السجّان باغته بركلةٍ في بطنه، وأشار

إليه أن يجلس في مكانه.

- **ماله هذا شوية يقل لي ارحل وشوية يقل لى اجلس!**

اقترب منه إبراهيم، وألصق فمه بأذنه هامسًا:

- **يقول لك: أخوك رجع البيت، وأنت حتجلس ضيفنا إلى ما شاء الله.**

بدت علامة الفهم على وجه مهدي. فرش الإسفنج تحته، وتمدد ناظرًا إلى سقف الحوش، كأن ما يحدث أمر اعتيادي بالنسبة له.

فراس- الشاب البيضاني- وصلته بطانية لم يحصل على مثلها أحد إلا القباطي، قبل وفاته. وصاحب الأسنان الصفراء، موسى، صومالي الجنسية، توجّه من تلقاء نفسه إلى عمي حسين الفلسطيني ورامي العراقي، دون أن يدفعه أحد تجاههما.

تمتمت في نفسي:

- **حقًا، الطيور على أشكالها تقع!**

حينها أمرني عمي مسعد أن أذهب لأتعرف على قصص السجناء الجدد، لنتسلى بها أثناء لعب الورق. كان انتزاع الحكايات منهم سهلًا، باستثناء مهدي؛ فقد أتعبني كثيرًا. ولم أكن أريد أن يلاحظ الآخرون أنني أجمع القصص، لذا كنت أهمس في أحاديثي، لكن مهدي كان فاضحًا بصوته وتصرفاته. وفي النهاية تركته يائسًا.

حلّ وقت الغداء، وكانت وجبة مميزة. أحضر لي خالي أرزًا أبيض وسلطة

وكمية كبيرة من اللحم تكفي عدة أشـخاص. سـألته عن اللحم، فأخبرني أن الأسرتين دخلتا مرحلة "كسر العظم": "مناصفة".

والمناصـفة تقليد قبلي؛ يجتمع فيه شـيوخ القرى مع أتباعهم، ولا يرحلون، وعلى الأسـرتين المتنازعتين أن تتكفل بإطعامهم وشـرابهم ونومهم وقاتهم، حتى تُنهك إحداهما أو كلتاهما، فيرضخ الطرفان للحكم. وهذا يعني نفقات هائلة، لا تقل عن ذبح ثور يوميًا.

حزنت كثيرًا على أسـرتي، التي ستُسـتنزف مدخراتها وذهب نسـائها، وكذلك مدخرات الأقارب والأصـهار. ولم تكن المعاناة حكرًا علينا؛ فأسـرة القتيل سـتدخل المضـمار نفسـه، رغم أنها المظلومة. أخبرني خالي أن الأسـبوع الماضي كان "دمويًا على الثيران"، لكن ذلك قد يعني أن الفرج قريب.

في المقابل، أحضـرت زوجة رياض طعامًا كشـف عن ذوقها وأناقتها؛ كان الأرز بثلاثة ألوان، كل لون ألذ من الآخر، ومعه باذنجان مقلي بكثرة، امتزج طعمه مع الأرز بشـكلٍ مدهش، حتى قارب طعم السـمك المقلي. لم أفهم كيف جعلت من الباذنجان وجبةً بهذه الروعة، لكنها على الأرجح إحدى براعات الفقراء.

وجاء طعام عمي مسـعد كعادته: عصـيدة، ومرق في زنبيل بلاسـتيكي، وخبز منزلي، و"سَـلْتة" تتوسـطها كرات لحم مقلية. أما طعام إبراهيم فكان مغلفًا بالبلاسـتيك والقصـدير، ومن شـكله ومذاقه عرفت أنه من المطعم نفسـه، بجوار المباحث، الذي يجلب منه خالي الطعام أحيانًا.

اقترب مني الصومالي وقال إنه مظلوم. أجبته:

- **كلنا مظلومون.**

قال إنه دخل السجن غدرًا، فقلت له إننا جميعًا جئنا من الباب ذاته. قال إنه لم يختر ذلك، فقلت:

- **ومن يختار السجن بإرادته؟**

بدت علامات الضيق على وجه عمي مسعد، وقال:

- **قلت له وقال لي... وبعدين؟**
- **نفس قصة العراقي يا عم مسعد... يدير شبكة دعارة لنساء صوماليات.**
- **أيوة! ما بش معانا إلا قصص المخنثة نخترعها للمساجين العرب ونرهط عليها! هل قال إنه عايش في الصافية؟ ممكن يكون من عصابة الصافية.**
- **ما قال لي وين عايش، يمكن كلامك صح.**
- **كملنا قصة الصومالي. طيب والبقية؟**
- **مالك نزق هكذا يا عم مسعد! المهم، جلست مع عبد الكريم قال إنهم قبضوا عليه يبيع ساعات رخيصة في التحرير.**
- **بس، يبيع ساعات؟**
- **هكذا قال، ومش عارف إذا كان صادق أو لا، أما مهدى أتعبني قوي يا عم مسعد، لكن المهم خرجت منه بنتيجة بعد ما سمعونا الكل.**

- **ما قال؟**
- **قال إنهم قبضـوا عليه وهو بيتفرج من "المفرج" حقهم بالناظور على النساء في البيوت، وأهل الحارة بلغوا به.**
- **طيب، ومن بعده؟**
- **فراس، هذا المجرم الحقيقي، اعترف إنه قاتل، وأنا ما صـدقت، وهو أصـلا صـغير وشـنبه ما قد طلع. قال إنه من زمان وهو يتربص بالقتيل لحد ما قتله قبل أيام. قضـية ثأر، وهو يتفاخر بهذه الجريمة أمام كل السجناء.**

انتهى الغداء، وبقيت لديّ قصص أخرى خبأتها لوقت العشاء، أو لنتسلى بها أثناء لعب الورق. قصـة السـجين الجديد محمد تتعلق بالنشـل؛ أمسـك به الرجل الذي حاول أن يقصّ جيبه ويسرق نقوده، فانهال عليه ضربًا، وشاركه الحاضـرون في الضـرب. أما الجريمة الأبشـع فكانت للسـجين الأخير، حمود- صاحب الملابس الأنيقة- المتهم باغتصاب طفلة. قيل إنه اختطفها من جوار منزلهم واعتدى عليها. وقد انتشرت القصة في الصحف، وسمعت أن ناشـطات دفعن بالقضـية إلى الرأي العام، مما صـعّب الوصـول إلى حل قبلي. كان والد الطفلة قد وافق على الدية وذبح ثورين، لكن بعد أن تصـاعد الضـغط الاجتماعي، تحوّل التسـامح إلى تصـلّب، فبقي المتهم في السـجن إلى حين التوصل إلى حل.

***

عاد السجن للازدحام. غرفتنا الكبيرة لم يدخلها أحد؛ كانت ممتلئة بما يكفي. لكن الحوش امتلأ سريعًا، وكما اعتدنا، كنا نتوقع الشجارات. وأول من أشعل النزاع كان فراس والصومالي. رفض فراس النوم بجانب "الأسود الجيفة"، كما قال. كان عمي حسين الفلسطيني ورامي العراقي ينامان وحدهما قرب الحمامات، واقترح البعض نقل الصومالي إليهما، لكن الأخير رفض رغم أنه كان قد انسجم معهما في البداية. عندها برزت شخصية إبراهيم من جديد. رغم أنه ينام بجانبي في الغرفة، إلا أنه خرج إليهم بوجهٍ صارم، أثار التوتر في الحوش، وأخضع الجميع وأذاب قلوب اللوطيين. فرّق بينهم، ووزّعهم على المساحة المتاحة. لكن الهدوء لم يدم. بعد دقائق، اندلع شجار بين فراس وعاصي. كان عاصي قد تمدد إلى جواره، وبدأ يقترب منه مدفوعًا برغباته. غير أن فراس- القادم من بيئة قبلية محافظة- لم يتقبل ذلك.

أشرت إلى إبراهيم أن يُدخله إلى غرفتنا. بدا لي أننا، كشباب، قادرون على احتوائه. وقد وافق، وربما كان افتعاله للمشكلات وسيلةً للانتقال إلينا، حيث كنا أشبه بـ "نخبة" السجن. لو كان الأمر بيدي لجعلت إبراهيم مأمورًا للسجن؛ فقد أصبح المكان أكثر هدوءًا بوجوده، وكأن قبضته تُمسك بالفوضى من عنقها. أما الطعام، فما زلنا نعيش في بحبوحة، بفضل دخول عائلتي مرحلة "المناصفة"، حيث يُذبح ثور كل يوم أو يومين لإطعام الشيوخ وأتباعهم.

كان والدي يرسل ما يقارب ثُمن الذبيحة إلى بيت خالي في صنعاء، ليُوزَّع اللحم على أيام الأسبوع، ويُطبخ ويُحضَر إليّ يوميًا. وقد جعلني ذلك مصدر غذاء جيد لأصدقائي: إبراهيم، ورياض، وعمّي مسعد، وربما فراس أيضًا، إلا إذا كان من أسرة ميسورة؛ حينها سيشاركنا ما يحضره أهله، فنأكل معًا، دون الحاجة إلى أطعمة المطعم التي كان يجلبها عمّ إبراهيم، أو ما تحضره زوجة رياض من طعام لذيذ لكنه خالٍ من اللحوم.

تهيأ الجميع للنوم، ولم تمضِ ساعة أو أقل حتى عمّ الهدوء. وانقضت أيام، والسجن ما يزال مكتظًا، والعراكات في الساعات المتأخرة ما تزال مستمرة، غير أن إبراهيم ظلّ يسيطر عليه بقبضة حديدية.

كانت اتصالاتي بشقيقي- بطلب من الفندم عبد الكريم- تتم كل يومين أو ثلاثة. وفي كثير من الأحيان كان يعرف الرقم ولا يرد، أو يكتفي بإشارة "مشغول"، ونادرًا ما كان يجيب. وكان ذلك يثير غضب الفندم عبد الكريم، الذي بدا أنه لم يعد قادرًا على الصبر، وأن القضية أخذت وقتًا أطول مما تستحق.

***

جاءني الخبر السعيد الذي طالما انتظرته في السجن. تمنّيت لو كان عمي ناصر وعبد الصمد، وكل من وقف معي في أيام امتحاناتي، إلى جانبي ليشاركوني الفرحة. فقد ظهرت النتيجة، ونجحت، رغم أن الكتب لم تكن تدخل السجن. كان خالي هو من نقل إليّ الخبر، عبر ورقة استخرجها من

الإنترنت تؤكد نجاحي. لم يكن نجاحًا باهرًا؛ بالكاد اجتزت المواد بمعدل ٦٢٪، وهو معدل ضئيل ربما لا يؤهلني لدخول التخصص الذي أرغبه.

في تلك الليلة، كان وقت العشاء. لم يكن خالي يأتي في هذا التوقيت غالبًا؛ إذ كان يحضر عَشائي قبل المغرب، أو مع الأذان إن تأخر. سلمني خمسة آلاف ريال هدية نجاحي من والدي. دخلت ساحة السجن بوجهٍ مشرق، أحمل ورقة تثبت أن اجتهادي لم يذهب سدى. مع ذلك شعرت أنني لم أكن الابن البار. ربما كانت شخصيتي القلقة، عبر سنوات حياتي، هي التي وسوست لي بوجود تفرقة بيني وبين إخوتي، حتى دفعتني إلى عجزٍ عن محبة أبي، مهما فعل من أجلي.

يقولون إن "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر"، وقد ترك أبي أثرًا سلبيًا لا يُمحى، ولا أستطيع أن أسامحه عليه. كانت مشاعري متضاربة بين الفرح والمرارة؛ بين ذكريات الطفولة معه، وتجربة السجن، مثل مدٍّ وجزر، يحمل الحب تارة ثم يعيده كرهًا.

في مساء آخر، جاء خالي بخبر أسعد:

- **أسرة القتيل سقطت في المناصفة.**
- **كيف يعني؟**
- **دخلنا الشهر الثاني، والقرية ممتلئة بالشيوخ وأتباعهم. يوم عندنا ويوم عندهم. أسرة القتيل باعت كل ما تملك حتى لا تظهر ضعيفة أمام الناس. استدانوا الملايين، والقرية امتلأت من كثرة الذبائح. في الأخير استسلموا للأمر الواقع.**

- **يعنى بخرج قريب؟**
- **قريب جدا، ما أحد يقدر علينا، إحنا نناصف دولة!**
- **أي والله، والحل؟**
- **رضـوا بالدية بس "محدعش". لو كانت دية واحدة أدفعها أنا وحدي، ولكن أحد عشـر دية من فين؟ والحمد لله الفلوس بتتجمع بسرعة وإن شاء الله خير.**
- **أنت دائما تأتيني بالأخبار السعيدة ولم تتركني كما البقية.**
- **ولا واحد تركك يا "بَزِي"، كل واحد في مجاله، الذي يحرس القات والذي يخدم الضيوف والذي يدخل صنعاء ويرجع القرية في اليوم مرة ومرتين من أجل القضـية، وأنت هنا الأكثر راحة من كل أخوتك. أخواتك تآكلت أيديهن من الطبخ، تعبنا كلنا، بس ما أشتي أزعجك. واحدة من خواتك ولدت في المطبخ وهي تخبز وكملت تولد ورجعت فوق التنور علشـان الشـيوخ يصـطبحوا خبز دافئ مع لحم صغار!**

***

بمناسـبة نجاحي، اشـتريت كوب شـاي لكل سـجين، وأخبرتهم بقرب خروجي. كثيرون لم يفرحوا؛ فهم جدد في السـجن، لم يعيشـوا معي أيام الامتحانات، ولا مربى الجزر، ولا سهرات سورة النور والهدوء الذي وفروه لي.

تذكرت كل من ساعدني؛ كانوا بحق أسرة. أما من هم هنا الآن، فليسوا سوى زملاء سجن، قد يطعن أحدهم ظهرك إن سنحت له الفرصة. أكثر من خطر ببالي كان عبد الصمد الذي اتضح في النهاية أنه بريء من السرقة ومن التهم الأخرى. كان من أصدق وأنقى من عرفت، وكان يحبني فعلًا.

ترددت عبارات التهنئة: صادقة من البعض، وباردة من آخرين. وبما أن عمي حسين من أقدم نزلاء السجن، بل من سكانه الأصليين، فقد جاء إليّ ليهنئني. حدثني وهو واقف:

- **سمعت أنك حصلت على مجموع تروح به منحة على حساب الحكومة. هه**
- **وقف يا عم حسين الله يرضى عليك.**
- **عن أيش أتوقف؟**
- **أنت عارف، خليك واقعي.**
- **الواقع يقول إنني ميت جوع يا سهيل يا ابني.**
- **أيوه كذا الواقعية حلوة، من عيوني.**

أكل أكثر من أربع سندويشات، وشرب كوبين كبيرين من الشاي، ثم نام متعبًا ومثقلًا. وكذلك فعل معظم نزلاء السجن، باستثناء شلة الورق، التي واصلت اللعب حتى وقت متأخر.

في الأيام الماضية، اعتدنا خروج عبد العزيز، ورامي، وهاني- وهم جنود في معسكر قرب العاصمة- إلى التحقيق لدى الشرطة العسكرية. كان الإنكار

سيد الموقف في أقوالهم، والأغرب أنهم لم يُفصلوا عن بعضهم، كما يحدث عادة مع شركاء أي جريمة، بل تُركوا معًا، مما قوّى دفاعهم، إذ حفظوا رواية واحدة ورددوها.

داخل السجن، كانت نكاتهم ومزاحهم لا تتوقف، خاصة مع رامي، الذي كان محور المداعبات؛ أحيانًا بالإيحاءات، وأحيانًا بالكلام الصريح. وكانت النكات الفاحشة تثير عاصم وعبد الرب العجوز. لكن الثلاثة نُقلوا سريعًا بطلب من الشرطة العسكرية، ولم يُثبت التحقيق تهمة واضحة عليهم، رغم انتشار الشائعات في المعسكر، كما شوهد رامي مع أكثر من جندي داخل المعسكر. ومع ذلك، فصورة الفاعل لا تتضرر، بل ربما تزداد رجولة في بيئة ترى الفاعل بصورة مختلفة عن المفعول به.

كان خروج الثلاثة صامتًا؛ فلم يكن عمي ناصر موجودًا ليلقي خطبته العصماء في وداع السجناء. خرجوا بصمت، ودبّ الارتياح في السجن؛ إذ توفرت مساحات إضافية، وخفّ الزحام قليلًا في الحوش. وما إن جاء يوم السبت حتى بدأت إدارة السجن بإخراج المزيد من السجناء، وكان أغلبهم من اللوطيين. ولم يكن خروجهم إلى الشارع، بل إلى النيابة لاستكمال التحقيقات بشأنهم. وكان خروجهم أيضًا صامتًا.

خرج هشام ومحمد وعاصي وعبد الرب العجوز ويوسف، دفعةً واحدة، ولم يحظوا هم أيضًا بخطبة وداع عند خروجهم، رغم أن بعضهم كان من قدماء السجن. أما يوسف فكان من أوائل السجناء الذين تواجدوا طوال

الأشهر التي قضيتها في السجن، وكان من المقربين إليّ، رغم أننا لم نتحدث إلا مرة واحدة.

عند خروجه جذبني من يدي إلى إحدى زوايا السجن. كان يريد أن يقابلني خارج السجن، وأن يجد أي طريقة للتواصل معي. كنت مستغربًا وخائفًا من أن يصل الأمر إلى الفندم عبد الكريم؛ فمنذ ذلك اليوم الذي هددني فيه بعدم الاقتراب من يوسف، لم أعد أرغب في التقرب منه. وقد استغرب يوسف من هذا الابتعاد المفاجئ، خصوصًا بعد اقترابي الشديد منه في ذلك الصباح وتحرشي الفاضح به. قلت له:

- **مدرى! هل بخرج من هذا السجن أو لا يا يوسف!**
- **بتخرج قريب، أنا خارج للنيابة وبعدها من سجن إلى سجن، أنت عتخرج للشارع على طول. تعال زورني في المدرسة، أنا في مدرسة الشعب! وعايش جنبها.**

وعانقني أمام المساجين، ولم أحب أن أتركه طويلًا يفعل ذلك؛ فقد كنت خائفًا من العيون التي تراقبنا. دفعته بخفة نحو الخارج ليمضي، ولا أعرف إن كنت سأراه مجددًا، داخل السجن أو خارجه. لم أهتم كثيرًا؛ فقد تعودت فراق كل من أحبهم.

في الحقيقة، لم تترك الشرطة العسكرية السجن بعد، فقد كان لديها حمود، مغتصب الطفلة. كانت رتبته كبيرة في الجيش، وإمكانيات خروجه من السجن أكبر؛ فموقعه يمنحه قوة وهيمنة، وقدرة على إغراق عائلة الطفلة

بـالنقود والأبقـار والثيران، حتى يسـقطوا على الأرض مطـالبين بـالحـل، وموافقين على كل ما يشـترطه. كل يوم تزداد ثقته وغروره، وكأن خروجه أصـبح مسـألة وقت فقط. في تلك الليلة كان ممددًا بجانبنا يشـاهدنا نلعب الورق، ثم قال فجأة، ومن دون مناسبة:

- **بخرج بكرة.**
- **من فين كل هذه الثقة يا حمود!**
- **حد قالك إن إحنا الاثنين نلعب سـوا في الحارة! لا تنادي باسـمي حاف! أنا الفندم حمود.**

سكت عمي مسعد متخوفًا، واستأنف الفندم حمود الحديث:

- **قبيلتي راحـت إلى بيـت البنـت وذبحنـا ثورين واتفقنـا على مبلغ وتنازلت الأسـرة. كانت أسـرة البنت تشـتينا أتزوج بها لما تبلغ، بس أنا ما رضيت.**

سألته:

- **وليش ما رضيت يا فندم؟**

ضحك باحتقار وقال:

- **قحبة يا سهيل، حتى لو كانت صغيرة!**

كانت جريمة الفندم حمود في طريقها إلى الحل، خصـوصًـا بعد وصـول رسـالة من الرئاسـة بالإفراج الفوري عنه، عقب التوصـل إلى تسـوية قبلية. وهذا بالضـبط ما كانت تريده الرئاسـة حتى لا تُحرج أمام الناس. وكما هو

معروف، فالعُرف درجة من درجات التقاضـي، وما دام الأمر قد انتهى إلى التراضـي، فلم يعد للحكومة شـأن مباشـر به. ورغم كميات الطعام الكبيرة التي كانت تصـل إليه، والتي أعادت إلينا أيام الرخاء الماضـية، فإنني لم أسـتطع تقبله، وكنت أترقب اليوم الذي يخرج فيه من السـجن؛ منذ دخوله، أصبح الهواء أكثر فسادًا.

***

في لحظة ما، فكرت أن أدخل الجندية بعد خروجي من السـجن، وأن أرتدي تلك الثياب الخضـراء. كان واضـحًا أن هذه البدلات تمنح أصـحابها حمايةً هائلة. "الشـواذ" الثلاثة رُحِّلوا إلى المحاكم العسكرية، كما سـمعت، وربما يعودون إلى معسـكرهم، وكأن شـيئًا لم يحدث، لكنهم كانوا يُعاملون باحترام، تقديرًا للجهة التي ينتمون إليها.

تخيلت نفسـي مثل الفندم حمود: قويًّا، متغطرسًـا، قادرًا على فعل ما يريد دون حسـاب أو عقاب. وبرغم كراهيتي له، كنت أحلم أن أكون مثله. لن أغتصـب الأطفال بالطبع، لكنني على الأقل سـأحمي نفسـي من الإهانة اليومية، ومن الحاجة المسـتمرة إلى الطعام والشـراب والسـتر. وربما كان الستر وحده كل ما أريده.

في صـباح اليوم التالي خرج الفندم حمود، وحتى بعد خروجه ظللت أفكر فيه باسـم "الفندم حمود". لقد زرع أصـحاب البدلات الخضـراء الخوف في داخلي، سواء كانوا حاضرين أم غائبين.

في إحدى جلســات لعب الورق رميت ورقة "الأربعة" الحمراء إلى الأرض وقلت:

- **لما أخرج من السجن ما بدخل الجامعة!**

رمى عمي مسعد ورقته الرابحة وهو يضحك:

- **"بصرة"، يعني عتخرج تبيع لحوح!**
- **لا تضحك يا عم مسعد، بتعسكر!**
- **عترجع عصفري! حالي قوي!**

وبلهجة قلقة سألني إبراهيم وهو يرمي ورقته:

- **طيب والدراسة؟ على الأقل اتخرج من الجامعة، وبالشهادة تتخرج برتبة حلوة.**
- **لا تصــدق. ما معك إلا تتفرعن وكل شــيء عيســبر وتقع من كبار القيادات.**

قاطعنا إبراهيم:

- **ما علينا من هذا الخبر. حد عارف ليش عبد الكريم، حق الساعات، مسجون؟**

قلت ضاحكًا:

- **لأنه يبيع ساعات!**

رد إبراهيم:

- **بَطِّل هبالة يا سهيل، طلع نصاب كبير، يبيع ساعات على أساس أنها**

أصـلية وهي تقليدية. الغلطة الكبيرة حقه أنه باع سـاعة لفندم هنا في المباحث.

- **سهلة، يرجع قيمة الساعة للفندم وكل شيء يمشي.**
- **ما عاد هي حكاية فلوس. انتقام؛ يقلك الفندم: أنا أضـحك على الناس كلهم ويجي هذا التافه يضحك عليا! والله ما سبرت.**
- **يعني ما عاد يخرج؟**
- **ممكن!**

انتهت اللعبة، وجمع عمي مسـعد أوراقه بخفة، ثم دخلنا جميعًا إلى الغرفة الكبيرة. كنا غالبًا نلعب الورق في الحوش لبرودته وهوائه النقي، المفتقد داخل الغرفة المكتظة. وكانت غرفة السجن والحوش قد أصبحا أكثر فراغًا نسـبيًّا. لم تعد هناك عراكات يتدخل إبراهيم لحلها بهيبته، ولم تمضِ سـوى دقائق حتى كنا جميعًا غارقين في نوم عميق.

***

كنت سـعيدًا بخبر هزيمة غرمائنا في "المنصـاف"، وعجزهم عن ذبح المزيد من الأبقار والخرفان والثيران للشـيوخ وأتباعهم المتوافدين إلى قريتنا لحل المشـكلة قبليًّا. كان معنى ذلك أنهم اقتربوا من التنازل والرضـا بالدية، وهذا تطور كبير في القضية، ويعني أنني في طريقي إلى الخروج من هذا السجن.

فكرت أنني لو كنت متهمًا بالشذوذ، وسرقت، أو حتى ارتكبت جريمة قتل، لكنت قد خرجت سريعًا إلى النيابة أو المحكمة. كل ما كان يؤلمني في الأمر

أنني لا أعرف متى سأخرج. حين دخلت السجن كنت أظن أن خروجي لن يتأخر أكثر من ساعة، لكن الأسابيع والشهور مضت، وما زلت أنتظر الحرية. ربما تحتاج الحرية إلى من يطالب بها، لا إلى من ينتظرها كمنة أو شفقة من شقيق، أو أب، أو نقيب، أو رئيس.

وبينما أنتظر الفرج أبلغني خالي بالأمر خلال زيارته الصباحية لإحضار الفطور. كانت ابتسامته باهتة. مع ذلك بادرته بحماس:

- **هيا يا خال، هات ما عندك من أخبار سعيدة.**

لكنه لم يكن يبدو سعيدًا ولا مبتهجًا.

- **انتهت المشكلة، ودفعنا الدية كلها لأسرة القتيل والحمد لله، أخذوها دفعة واحدة في الديوان بحضور المشايخ كلهم، حتى النقيب عبد الكريم كان معنا.**
- **أيش الذي جاب الفندم عبد الكريم معك؟**
- **كنت قد وعدته بقات من القرية أكثر من مرة، وأكثر من مرة كنت أجيب له القات علشان ما أحد يهينك أو يضربك في السجن.**
- **ومتى بخرج؟**
- **كان على أساس يوم السبت؛ لأن اليوم خميس، وقد انتهى اليوم، وبكرة عطلة، بس يمكن تزيد تتأخر شوية.**
- **يا خال حرام عليكم، كملت السنة وأنا في السجن!**
- **أنت في السجن مش عارف القضية. اليوم رحت أستلم راتب شهر**

يناير.

- **طيب، أيش المشكلة؟**
- **الفندم عبد الكريم يقول باقي الحق العام ولازم يُسجن أخوك للحق العام، ومادام هو مش موجود فأنت موجود.**
- **هياااا ناهى، هيااا ناهي! هيا نااااااهي!**
- **صورته بيحبك.**
- **حبته العقربة، لا يحبنيش، اشتى أخرج.**

لم يتكلم خالي كثيرًا بعد ذلك. تركني ورحل، وحملت زنابيل العشـــاء التي جاء بها. بدا العشـــاء فاخرًا وثقيلًا؛ حتى إن أحد الزنابيل كان يحمل دعاية لمنتجات "كاك بنك". كان العشاء لحمًا خالصًا بلا رز ولا عيش، ويبدو أن الكمية تتجاوز ثلاثة كيلوغرامات، كلها قطع لحم نظيفة خالية من الدهون والشـحوم. وفي الغالب كانت تلك اختيارات والدتي، رغم أنني لم أعد قادرًا على أكل كل هذا اللحم.

أصـــبحتُ بهذا الطعام أمثّلُ دورَ ابنَي الجدري، أو دورَ عمّي هادي. فمنذ ظهور حكاية "الحق العام"، وحتى بعد انتهاء القضية والوصول إلى حل مع الغرماء، صـــار اللحم يصـــلني يوميًّا وبكميات كبيرة. يبدو أن المناصـــف ما تزال مســـتمرة، والشـــيوخ مـا يزالون يتوافـدون إلى القريـة ليـأكلوا اللحم والقات، حتى بعد أن انتهت المشكلة تقريبًا.

❊ ❊ ❊

الخروج

مرت الأيام بطيئةً للغاية؛ بعد أن عرفت أن فترة السجن توشك على الانتهاء، وأن الحرية أصبحت قريبة أخيرًا. كان اللعب وحده، مع عمي مسعد والشباب الآخرين، هو ما يجعل الأيام تمر بيسر. في منتصف يناير ٢٠١١، بدا السجن شبه فارغ؛ بعد خروج معظم من كانوا فيه. وكانت الوجبات التي تصلني تكفينا أنا ورياض وإبراهيم وعمي مسعد؛ فنحن وحدنا تقريبًا من تبقى من الجيل القديم.

مع مرور الأيام بدأت ساحة السجن تمتلئ مجددًا. لم يكن القادمون الجدد لصوصًا، ولا شواذًا، ولا سكارى، كان أغلبهم شبابًا ورجالًا تبدو عليهم الهيبة والثقافة. وفجأة، دخل علينا الجمرة وهو يسبّ الحكومة ويلعنها، كما كان يفعل دائمًا.

استقبلناه بالأحضان والقُبل، أنا وعمي مسعد وعمي حسين الفلسطيني؛ فنحن وحدنا من نعرفه وبيننا عيش وملح. صرخ وهو يضحك:

- **سهيل حبيبي، عادك جالس؟**

قلت مازحًا:

- **وعتخرج مرة ثانية وأنا جالس.**

قهقه بصوت عالٍ:

- **أنت في زمن تسجن فيه الرهينة أكثر من القاتل!**

سألته:

- **أيش جابك مرة ثانية عندنا؟**

لوّح بيده باستهزاء:

- **ولا حاجة، جاءوا للبيت وأخذوني. كنت فاكر حيودوني الأمن السياسي ولكن رجعوني إلى هنا، الأمن السياسي حيكون مليان أصلا مع الأحداث.**

ثم بدأ يحدثنا عن العالم خارج السجن، ونحن ما زلنا عالقين داخله. أخبرنا عن الثورة التونسية التي اندلعت في ديسمبر ٢٠١٠، وعن الأفكار التي أخذت تنتشر حول الثورات ضد الأنظمة العربية، وروى لنا أخبارًا متفرقة عما يجري في مصر، وسورية، وليبيا، واليمن.

حدثنا عن حملات اعتقال سرية في اليمن بدأت تستهدف أشخاصًا يُشتبه بأنهم قد يصبحون قيادات لثورة قادمة، بينما كانت الثورة في مصر تجمع قوتها استعدادًا للعصف بالنظام هناك.

ومع كل يوم كان السجن يمتلئ أكثر بمعتقلين جدد. قال الجمرة، ونحن نلعب الورق: إن السبب هو حملات الاعتقال الواسعة التي رافقت تصاعد الاحتجاجات ومحاولة النظام تفكيك تجمعات الشباب ومنعهم من التكتل.

مع بداية فبراير صار السجن مزدحمًا إلى درجة لم نرَ مثلها من قبل، حتى تحققت نبوءة فتى عصابة الصافية حرفيًّا، وأصبح كل واحد ينام ملتصقًا بصاحبه فعلًا.

حاول مدير المباحث العامة السيطرة على السجناء وتقليل الزحام، فأخرج "الشواذ" من السجن الآخر، وكذلك سارقي قناني الغاز والسكارى. لم يعد هناك مكان لأصحاب الجرائم الصغيرة، فالسجون الآن امتلأت بمن يعتبرهم النظام الحاكم أخطر على المجتمع والدولة.

كانت الأخبار تصلنا يوميًّا مع كل معتقل جديد حتى تحول المكان إلى كومة من اللحوم البشرية المتراكمة فوق بعضها بعضًا، وحتى نحن الذين كنا نعد أنفسنا أمراء السجن لم نستطع الوقوف أمام موجة الزحام. دخل كثيرون إلى الغرفة الكبيرة، وحتى الغرفة الصغيرة، التي كانت مخصصة للقاصرين من الشواذ، امتلأت بالمعتقلين.

كثرت حالات الدخول والخروج السريع، وبلغ معدل الإحلال في السجن حدًّا جعلنا غير قادرين على معرفة قصص القادمين الجدد. لكن ما جعلنا لا نفكر كثيرًا في حكاياتهم أنهم جميعًا تقريبًا دخلوا بالتهمة نفسها: الشغب، أو التجمع دون ترخيص، والتآمر لقلب نظام الحكم.

لم أصدق أنهم متهمون فعلًا بمحاولة إسقاط النظام؛ فمثل هؤلاء لا يُوضعون هنا، بل في سجون الأمن السياسي أو الأمن القومي. ولذلك بدا واضحًا أن من يملؤون السجن هم شباب من توجهات مختلفة وسيصبحون حطب الثورة.

في تلك الفترة تعرفت على ثاني شخص ينتمي إلى جماعة أنصار الله بعد عمي هادي. كانت الجماعة قد شاركت في الثورة التي بدأت تتحول إلى

واقع حقيقي. وفي بعض الأيام كنا نسمع من بعيد هتافات الجموع في الشوارع عن الحرية والعدالة والديمقراطية. وكان بعض الداخلين الجدد يحدثوننا، في اليوم نفسه الذي نسمع فيه المظاهرات، عن الشارع المحيط بجامعة صنعاء، وكيف تحول إلى مخيم ضخم يتمدد يومًا بعد يوم، نحو الجامعة القديمة، وشارع العدل، وحتى الطريق المؤدي إلى هضبة الفرقة الأولى مدرع، بالإضافة إلى المخيمات الصغيرة التي بدأت تنتشر في الشوارع الجانبية المتفرعة من الشوارع الرئيسية الثلاثة.

***

لم أستطع تكوين صداقات وسط هذا الإحلال اليومي الهائل للسجناء، لكنني بدأت أشعر أن السجن لم يعد يتسع لي، وأن الإدارة لا بد أن تتخلص مني قريبًا. فلم أكن الشخص الذي يستحق الاحتفاظ به وسط كل هؤلاء الشباب الذين يظنونهم أخطر بكثير من شاب كان يومًا عامل طلاء أبواب خشبية في منجرة بسيطة بصنعاء القديمة. وهو في الأصل... رهينة.

حينها تذكرت كلام الجمرة، الذي بدأ يشتهر بين الشباب بلقب جديد: "هلال الثورة". تذكرت حديثه ونحن نلعب الورق عن "الرهينة" التي كتب عنها زيد مطيع دماج رواية، حين كان الإمام يأخذ أبناء الأسر رهائن ويستخدمهم في خدمة قصوره وبيوت عماله.

قال لي يومها إن قصة تلك الرهينة هي قصة اليمن كلها، وقصة ثورته القديمة، وإن التاريخ يعيد نفسه، وإنني- كرهينة- سأصبح جزءًا من قصة

الثورة اليمنية الجديدة إذا ما شـاركت فيها وصـرت أحد رموزها. فالرهينة، كما قال، كانت وما زالت موجودة في اليمن، سواء في عهد الإمام أو في العهد الجمهوري؛ فالجمهورية استخدمت أساليب الإمام نفسها في الحكم، لكن برداء جمهوري.

لم أكن أفكر بالمشـاركة في الثورة، رغم إيماني بأن هناك شـيئًا خاطئًا في القضـية كلها: قضـية سـجني، وقضـية قائد اللواء الذي يحمي المجرمين، وغيرها من المظالم الكثيرة.

نعم، كان هناك خطأ ما.

تذكرت عبد الصـمد وما جرى له بعد رفضـه الانقياد لرغبات القاضـي الجنسـية. وتسـاءلت: كيف يعقل أن يكون ذلك القاضـي "شـاذًّا" أصـلًا؟ ولماذا يُترك في منصـبه؟ ومن أين له تلك الجنبية التي تسـاوي ملايين الريالات، وهو لا يملك سـوى راتبه؟ تذكرت أوجاع عمي فريد، ودخوله إلى السجن مجروحًا ومهدور الكرامة. وتذكرت يوسف، ودخوله وخروجه المسـتمر من السـجن، وشـكواه من الاعتداء الجنسـي عليه من قبل الجنود داخل السـجن. تذكّرتُ عليًّا وشـقيقه، بائعي العنب. هل كانا يسـتحقّان السجن بسبب نزاعهما مع نقيبٍ ما، في شارعٍ ما، أراد استغلالهما؟

وجذبتني الذكريات نحو عمي ناصـر؛ القائد الرائع، والسـارق الكبير، والمحب، الجميل قلبًا وقالبًا. أمَا كان يسـتحق أن يُعامل كما عومل بعض الجنود "الشواذ"! أو كما عومل صاحب الرتبة الكبيرة الذي اغتصب طفلة؟

هل لأن عمي ناصـر لم ينتهك شـرف البسـطاء، بل انتهك أموال الأغنياء، أصـحاب السـلطة والسـيطرة، أولئك الذين يتعاملون بالعنف مع كل من هو دونهم، ويقدّمون أنفسـهم أربابًا لكل شـيء حولهم؟ هل لأنه انتهك سـيادة الكهنة في السياسة والاقتصاد، ظلّ هنا بضعة شهور يعاني من ساقه المحطّمة، ويقاوم عناء السجن بقوة شخصيته؟

تذكّرت أيضًـا الرهينة الأخرى، عمي الحاج ناصـر؛ حافظ كتاب الله، الذي كان وجهه يشـعّ نورًا، والذي عوقب نيابةً عن ابنه الهارب. ألم يكن الأجدر احترام إنسانيته وسنه، فلا تُهدر كرامته في السجن؟ فهو لم يرتكب الجريمة، وكان يقول لنا مرارًا: "لا تزر وازرة وزر أخرى."

أليس النظام في اليمن الآن، كما كان يقول هلال دائمًا، قد بلغ حدّ التخمة من الفساد والظلم والخديعة؟

***

في ليلةٍ مزدحمة أخرى، كنا نتحدث أنا ورياض وإبراهيم في مواضيع مختلفة. أخبرنا بأنه سـيخرج قريبًا؛ لحاجة صـاحب المنجرة إليه في الفترة الأخيرة. أدرك أن زيارة إبراهيم اليومية خلال الأسـابيع الماضـية أكثر كلفة من قيمة المبلغ نفسه الذي اختلسه. وقد أُفرج عن إبراهيم فعلًا في أحد أيام الخميس؛ اليوم الذي يطلقون فيه سراح أكبر عدد من السجناء.

غطّى "الجمرة" خروج إبراهيم بشكلٍ جيد؛ فقد كانت له سـمعة حسـنة بين السـجناء الجدد، فمعظمهم ممن يسـمّون أنفسـهم ثوارًا، وكانت لديه قدرة

واضحة على إدارتهم. ألقى يومها خطبة رائعة ومنمّقة، لم تكن صادقة كنبرة عمي ناصر العسكرية الجلفة والنقية، لكنها كانت ملهمة. ولأنها لم تكن ببساطة خطب عمي ناصر، لم أستطع حفظها لأدوّنها هنا.

حين كنت أستمع لبعض محاضرات الجمرة، بدأت أعتقد أن الحكومة غبية؛ إذ كانت تسهم، دون أن تدري، في منح الثوار المساحة والوقت الكافيين للجلوس معًا، والتأثير والتأثر ببعضهم بعضًا، مما كان يزيد الحنق على النظام، ويرفع مستوى الإيمان بحتمية الثورة في ذلك الوقت. ومع ذلك، لم أكن أصغي كثيرًا لما يقوله الجمرة. كان يسعدني أكثر أن ألعب معه الورق، كما اعتدنا في الأيام الأولى للسجن.

كنت أنظر إليه كسكير، كما أُشيع عنه في السجن، لكن الأيام أثبتت كذبها. يبدو أن القصة الأولى هي التي تبقى في الذاكرة مهما مرّ الزمن. مع ذلك صرت فخورًا به بوصفه قائدًا ثوريًا له اسمه في الشارع، لكنني ظللت أتعامل معه كما عرفته أول مرة: ضاحكًا، سكيرًا، ولاعب ورق محترف.

كانت الأيام تمضي سريعًا، ولا يبدو أن الفندم عبد الكريم سيتنازل عن فكرة الحق العام، رغم أن الشارع كان يشتعل. كما أن شقيقي لن يسلم نفسه أبدًا، حتى لو آمن بأن التعذيب أو السجن أهون من الهرب؛ فالحق العام قد يعني سجنًا لبضعة أشهر، أو دفع مالٍ ليُتنازل عنه. لكن الحكومة لم تكن لتلتفت إلى تحصيل حقها العام من أحد، فقد كانت مشغولة، بما يحدث من مظاهرات واعتصامات شارع العدل، وشارع الجامعة، وشارع الرباط، وصلاة الجمعة الأسبوعية في شارع الستين. هناك كان يكمن الخطر

الحقيقي للحكومة، لا عند شـاب طعن جاره في القرية، ولا عند آخر سُـجن رهينة بدلًا عن أخيه.

كـان عمي حسـين مـا يزال كمـا هو، بجانـب الحمـامـات. خرج الأردني، والصـومالي، والعراقي، وبقي الفلسـطيني يقاتل البراغيث كل يوم. وكان عمي مسعد ما يزال يلعب الورق، ورياض ما يزال يقاد إلى التعذيب، وأنا ما زلت كما أنا؛ أشـاهد كل شـيء بصـمت، وأحاول أن أسـتوعب ما يحدث، ويخيفني التغيير المتسـارع في السـجن. لم أعد أحفظ اسـم أي شـاب من السـجناء؛ إذ كان يُسـتبدل بسـرعةٍ مذهلة. أما اللحوم، فما تزال تصـل إلى السجن كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله، حتى خُيّل إليّ أن أسرتنا قد قضت على كل ثورٍ في القرية والقرى المجاورة.

وفجأة... خرجتُ من السجن. بسهولة، كما دخلت بسهولة.

سـمعت النداء باسـمي. خرجت، فوجدت الفندم عبد الكريم ينتظرني خلف الشباك عند باب السجن. كان واقفًا ينظر إليّ. قال:

- **سـهيل، تشـتي حقك الفرش، وإلا ما عاد ينفع تأخذه معك لما تخرج؟**

قلت:

- **خليه للشباب... حرام، بعضهم ينامون على البلاط.**

ابتسم وقال:

تمام، يالله اخرج.

قلت مترددًا:

- **معي الطنجرة حق الغداء حق اليوم!**

لوّح بيده:

- **اتركها خلاص. لو رجعت يمكن أغير قراري وأخليك داخل. اليوم أنا مخدّر من القات المعجزة حقكم، وأشتي أخدمك خدمة العمر. تشتي تخرج؟**

قلت:

- **أيوة.**

فصاح:

- **افتح الباب يا عسكري.**

سألته:

- **والرسوم؟ معي ثلاثة ألف ريال صرفتي يا فندم.**

قال:

- **ناوله ألفين، ولك ألف ترجع به للبلاد عند أمك.**

وفعلت كما قال، وقال ببساطة بعد أن سلم عليّ عند باب الخروج:

- **يالله اخرج.**

وخرجت!

***

لم أستطع حتى أن أقول وداعًا لأي شخص ممن أحببتهم. لم أودّع من تبقى

من أسرتي في السجن. تساءلت: هل سيعرفون أنني خرجت؟ أم سيستغربون غيابي وسيظلون ينتظرون الفاصوليا التي خرجت لاستلامها من خالي، الذي لم يحضر اليوم؟

ربما كان خالي يعرف بما سيحدث؛ علاقته بالفندم عبد الكريم جيدة، وكميات القات التي يحضرها له يوميًا كانت توطد علاقتهما أكثر فأكثر وتحافظ على كرامتي داخل السجن، وتجعلني واحدًا من أولئك الذين ستتذكرهم جدران السجن طويلًا.

ستتذكرني جدران السجن شابًا دخل أرضها خائفًا، عاجزًا عن رفض طلب عجوز للاستمناء! شاب دخل رهينة وحاول أن يتأقلم مع حياة السجن بين المجرمين والمظلومين. شاب دخل إلى قلوب المجرمين وقطاع الطرق واللصوص والشواذ بسرعة غريبة... ربما بسبب طهارته.

هل ما أزال طاهرًا؟

هل ما أزال ذلك الريفي الذي كان يقضي معظم وقته في الجبال يرعى الأغنام، وينظر إلى السماء، فيأخذ منها صفاءها، ومن الأرض اخضرارها، ومن الأغنام صمتها على الظلم والعنف، وسلبيتها حتى عند الذبح؟

لا أعرف!

***

في الساعة الثامنة من مساء السابع عشر من شهر مارس ٢٠١١، خرجت من سجن المباحث العامة دون أن أعرف إلى أين أذهب. كانت الدنيا غارقة في

الظلام؛ فالأخبار التي كانت تصل إلى السجن آنذاك تقول إن الكهرباء تتعرض للتخريب، وأن محطة مأرب الغازية قد ضُربت، وإن اليمن تعيش ساعات طويلة بلا كهرباء. ومع ذلك، بدا لي أن هناك أضواءً تتلألأ في آخر شارع العدل، باتجاه الجامعة الجديدة.

كانت الخيام قد امتدت حتى جوار المعهد الوطني للعلوم الإدارية، وهذا يعني أن الساحة أصبحت قريبة مني. لكنني لم أكن قد كوّنت أي فكرة حقيقية عن العودة إلى القرية، وعن استئناف حياةٍ كنت قد عشتها سابقًا تحت أنياب أبٍ لم أكن يومًا ضمن قائمة تفضيلاته، وأمٍّ ما تزال تنفث دخانها بين أسنانها الذهبية، وإخوةٍ لم يفتح أحد منهم صدره يومًا ليقول: اعتقلوني بدلًا عن سهيل. كان لكل واحد منهم زوجته وأطفاله، ولذلك كان سهيل دائمًا هو الشخص القابل للتضحية. إذا ارتكب أحدهم جريمة، فهناك سهيل ليتحمل العقاب، لأنه ما يزال حرًّا، ولا زوجة لديه ولا أطفال. وإذا احتاجوا راعيًا، فسهيل موجود. وإذا جاءت أخت غاضبة من زوجها، فغرفة سهيل جاهزة، وليذهب هو لينام في الديوان أو في أي مكان آخر.

إذا عدت إلى القرية هل ستتركني أسرة القتيل وشأني؟ أم أنها ستحتفظ بالملايين لتقتل واحدًا منا لاحقًا، ثم تعيد ما أخذته؟ أليس من المحتمل أن تكون موافقتهم مجرد ضمانة لعودة شقيقي، وستبقى الدية محفوظة داخل حقيبة حديدية في غرفة نوم والد القتيل ووالدته؟

كانت قدماي الاثنتان على الإسفلت، بخلاف اليوم الذي عدت فيه إلى

القرية، حين وضعت إحدى قدمي على الإسفلت، بما يمثله من مدنية وتطور، والأخرى على الطريق الترابي، حيث القبيلة والأعراف والعادات والتقاليد.

إلى أين أمضي الآن؟

إلى عصر الثور، بكل ما يحمله من دماء، وقوة، وسيطرة، وظالمين ومظلومين، وثارات وشيوخ وسادة وقبائل وحلاقين وجزارين؟ أم إلى عصر الثورة، التي تبدو من بعيد وكأنها صهرت الجميع في فرنٍ واحد، فصاروا كتلة واحدة من المشاعر والهدف؟

إلى أين أذهب؟

إلى عصر الثورة التي قد تمنحني فرصًا سلبني الثور إياها؟

لماذا لا أذهب إلى الجندية؟ تلك التي يمكن أن تحميني مهما بلغت جرائمي؟

عصر الثور؟

أم عصر الثورة؟

من اختار؟

لم أكن أدري.

ومن هناك...

من بعيد...

تناهت إلى مسامعي أصوات عشرات الآلاف من الحناجر، وهي تترنم

بالنشيد الوطني في مخيمات الثوار:

"رددى أيتها الدنيا نشيدي.. رددية وأعيدى وأعيدى..."

تذكرت لحظتها صباحات المدرسة حين كنا نردد هذا النشيد الأسطوري، وشعرت بالأمان وأنا أسمعه الآن.

نوَّمني مغناطيسيًا، وجذبني إلى هناك... إلى خيام مليئة بالشباب، والنور، والحلم الجميل، والثورة.

ربما، لو نجحت الثورة، لن يكون هناك رهينة أخرى بعدي.

كنت أرغب فعلًا أن أكون آخر رهينة دخلت عتمة السجون بلا جريمة.

وكنت أرغب فعلًا أن أكون بطل ثورة ٢٠١١، مثلما كانت رهينة زيد مطيع دماج بطلة ثورة ١٩٦٢.

هل أستطيع؟

شاهدت مئات اللافتات التي تطالب بالحرية والعدالة، وأحسست أن الذين اجتمعوا هنا لا يؤمنون بدماء الثيران لحل قضاياهم، بل يؤمنون بالقانون وبمؤسسات الدولة.

شعرت أنهم مجتمعون ليسقطوا الثور من عليائه، ويبدؤوا عصرًا جديدًا.

ومثلما كنت أحد ضحايا عصر الثور...

ربما يكافئني القدر، فأصبح أحد نجوم عصر الثورة!

ربما!

❊ ❊ ❊

انتهى جزء "عصر الثور" وإلى لقاء في

الجزء الثاني: "عصر الثورة"

والجزء الثالث: "عصر التبع"

❊ ❊ ❊

سياج: عصر الثور

هل يخرج الإنسان من السجن حقًّا إذا ظل الوطن نفسه أسيرًا؟ في "سياج: عصر الثور" لا يغدو السجن مكانًا للعقاب فحسب، بل مرآة لوطنٍ تتنازع سلطته القبيلة والدولة، وتحاصر أبناءه منظومةٌ من الخوف والثأر والقوة العارية. ومن بين القضبان تتكشف مفارقة موجعة: قد يكون السجين أقلَّ خوفًا ممن يسيرون أحرارًا في الخارج. يتتبع نبيل أحمد الخضر رحلة سهيل، من براءة المرعى إلى قسوة المدينة، ومن وهم البطولة إلى أسئلة الثورة، في رواية ترصد التحولات العميقة التي عاشها اليمن، حيث لم تختفِ الرهائن بتغيّر الأنظمة، بل تبدلت أسماؤها وأشكالها، وبقي الإنسان رهينة عصره. هذه رواية عن وطنٍ يبحث عن الدولة، وعن الحرية حين تُفضي إلى قفص جديد، وعن ثورةٍ تولد من رحم القهر وهي تحمل منذ ميلادها سؤالها الأصعب: هل تستطيع هزيمة "الثور"، أم أن القوة الغريزية العمياء ستعيد بناء الأسوار من جديد؟



نبيل أحمد الخضر: روائي وقاصّ، من مواليد عام 1978. دبلوم محاسبة من المعهد الوطني للعلوم الإدارية، 2005. نال جائزة المقالح لأفضل قصة عن مجموعته القصصية "ذات رغبة". له ست مجموعات قصصية وثلاث روايات، وكتب أكثر من اثنتي عشرة مسرحية للدمى والعرائس. ويعمل حاليًا على سلسلة روائية بعنوان "سيمفونية الخيال والأسطورة"، صدرت روايتها الأولى بعنوان "حروب السندريلا". وروايته "سياج: عصر الثور" من الروايات الفائزة بجائزة السرد اليمني- حزاوي في دورتها الرابعة 2025.

YKB
بنك اليمن والكويت بلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني